

419



S.F.

مكتب الحميد جوده السجاء

<http://www.makbtbna2211.com/>

كتابنا القادم



السلطان سليم خان ياووز YAVUZ السلطان القاطع

أوقاي ترياقبي أوغلو

رواية



ثقافة
THAQAFAT
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution L.L.C.



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbbooks.com

مطبعة خان مكتبة مصر

أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ

عبد الحميد جودة النجار

الطبعة
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

انتشت نفوس المسلمين ، وأحسوا غبطة تشيع في الصدور ، فقد انتصروا
 نصرًا مبينًا في أول معركة خاضوا غمارها ، وأذلوا المشركين .
 ورأى رسول الله أن يبعث إلى المدينة نبأ انتصار المسلمين في بدر ، فقدم زيد بن
 حارثة وعبد الله بن رواحة ، فامتطى زيد العضباء ناقة رسول الله ، وامتطى عبد الله
 راحلته ، وأغذا السير حتى إذا بلغا العتيق انطلق ابن رواحة إلى أهل العالية ، وانطلق
 زيد إلى أهل السافلة يشران بما فتح الله على رسوله والمسلمين :
 أشرف عبد الله على القوم فجعل ينادى على راحلته :
 — يا معشر الأنصار ، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين
 وأسرههم .

وصاح صائح :

— أحقًا يا بن رواحة ؟

— إى والله ... وغذا يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين .

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يشرهم دارًا دارًا .

وقدم زيد على ناقة رسول الله ، فلما جاء المصلى صاح على راحلته :

— قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وزمعة بن
 الأسود ، وأبو البحتري بن هشام ، وأمية بن خلف ، وابنا الحجاج ، وأسرسهيل
 ابن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير .

وبانت الدهشة في الوجوه ، فهؤلاء سادات قريش وصناديدها ، وبدا كأن
 الناس لا يصدقون ما يسمعون ، فجعل بعضهم يقول :

— ما جاء زيد بن حارثة إلا فلا .

وغازظ المسلمين ذلك ، وقال رجل من المنافقين لأسامة وقد قابله وهو عائد من

دفن رقية بنت الرسول :

— قُتِلَ صاحبكم ومن معه .

فأسرع أسامة إلى المصلى وهو فى قلق شديد ، وقال آخر لأحد المسلمين :

— قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون فيه أبداً ، وقد قتل عليه أصحابه ، قُتِلَ

محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب .

ودخل أسامة المصلى وهو يضطرب ، فرأى أباه وقد غشيه الناس وهو يقول :

— قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة .

فجذب أسامة أباه حتى إذا ما اختلى به قال فى اضطراب :

— أحقاً ما تقول ؟

فقال زيد فى تأكيد :

— إى والله حقاً ما أقول يا بنى .

فقويت نفس أسامة ، ورجع إلى ذلك المنافق فقال له :

— أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ، لتقدمنك إلى رسول الله إذا قدم

فليضربن عنقك .

— إنما هو شئ سمعته من الناس يقولونه .

وأقبل رسول الله قافلاً إلى المدينة ومعه الأسارى ، ونزل على كتيب بين مضيق

الصفراء والنازية ، فقسم النفل الذى أفاء الله على المسلمين من المشركين على

السواء ، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه ومن

معه من المسلمين .

فقال لهم رجل من أهل بدر :

— وما الذى تهتفوننا به ؟ والله إن لقينا إلا عجائز صلحاً كالبدن المعقلة

فنحرناها .

فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

— يابن أخى أولئك الملأ .

وعاد البديرون إلى دورهم راضين ، وعاد عليّ مع النبي مغتبطاً ، فقد صال
وجال في بدر وجدل صناديد المشركين ، وما دار بخلدّه أنه أوغر صدور
الأمويين ؛ فما حصد رعوس رجالهم إلا سيفه ، فجرعهم الحزن المرير ، فيا للفتى
الشاب ! ما اشتد ساعده حتى أذاق سادات الأمويين وأصهارهم المنون ، فبات
بينه وبينهم ثارات ، وبذر في صدورهم بذور الغل والأحقاد .

وعاد إلى المدينة هدوؤها ، وجعل خاطر يطوف برعوس صحابة الرسول ، إن
فاطمة الزهراء أضحت في الخامسة عشرة ، وإنه لشرف عظيم أن يصاهر صحابى
النبي الكريم . وجال هذا الخاطر برأس الصديق ، فوطن العزم على مفاتحة النبي في
أمر هذه المصاهرة ، فدخل عليه يوماً بخطب فاطمة ، فأطرق النبي قليلاً ثم قال في
رقة :

— انتظر بها القضاء .

وجاء عمر يخطب الزهراء ، فقال له النبي في رقة :

— انتظر بها القضاء .

وجاءت أسماء بنت عميس لعليّ وقالت له :

— هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله ؟

فأحس كأنما قبض صدره ، فقد كان يتمنى أن يتزوج ابنة عمه ؛ وقال في
صوت فيه رعدة :

— لا .

— فقد خطبت ، فما يمنعك أن تأتى رسول الله ﷺ فيزوجك ؟

فقال على في انكسار :

— وعندى شيء أتزوج به ؟

— إنك إن جئت رسول الله ﷺ تزوجك .

وجعل على يفكر في الأمر ، إنه يريد أن يتزوج فاطمة ، ولكنه يحس رهبة

ووجلا ، فما يجد في نفسه الشجاعة ليفتاح النبي في أمر ذلك الزواج ، فما يملك شيئاً يستحلها به .

وأخيراً رأى أن يأتي رسول الله ﷺ بخطب فاطمة ، فذهب إليه وهو يرتجف رهبة . ودخل عليه فلما قعد بين يديه أفحم ، فوالله ما استطاع أن يتكلم جلالة وهيبة . وفطن النبي إلى اضطرابه فقال له :

— ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ .

فهم أن يتكلم ، ولكنه لم يجد لسانه فسكت وأطرق . فقال له النبي ﷺ :

— لعلك جئت تخطب فاطمة ؟

— نعم .

— هل لك من شيء ؟

— لا .

— فأين درعك الخطمية ؟

— هي عندي .

— فأعطنيها .

ودخل النبي على فاطمة ، فقال لها :

— أي بنية ، إن ابن عمك علياً قد خطبك .. فماذا تقولين ؟

فأطرقت ثم قالت :

— كأنك يا أبت إنما ادخرتني لفقير قريش .

— ما تكلمت في هذا حتى أذن لي الله فيه من السماء .

— رضيت بما رضى الله ورسوله .

ومرت شهور ، وجاءت ليلة الزواج . فبعث بالدرع إلى سوق بدر فبيع بدراهم معدودة ، ووُضِعَت الدراهم في حجر النبي ، فقبض منها قبضة وقال :

— أى بلال ابتع لنا بها طيبًا .

وخطب على خطبة ، وخطب النبي ﷺ خطبة ، وماتم العقد حتى دعا ﷺ بطبق يسر ، فوضع بين يديه ، ثم قال للحاضرين :
— انتهبوا .

وجهر رسول الله فاطمة في خميل وقربة ووسادة آدم حشوها أذخر ، وذهبت فاطمة إلى بيت الزوجية في رفقة أم أيمن ، فقعدت في جانب البيت ، وعلى في جانب آخر . وصاد البيت هدوء وترقب . فقد كان الجميع ينتظرون وفود رسول الله وسمع طرق على الباب فهرعت أم أيمن تفتح للأب الكريم .
وجاء رسول الله ﷺ وورنا إلى فاطمة في حنان ثم قال لها :
— ائتنى بماء .

فقامت تتعثر في ثوبها من الحياء ، فأنته بقعب فيه ماء ، فأخذه رسول الله ﷺ وتلا قل هو الله أحد والمعوذتين ، ثم قال لفاطمة :
— تقدمي .

فتقدمت على استحياء ، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال :
— اللهم إني أعوذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .
ثم قال :
— ائتنى بماء .

فعلم على الذى يريد ، فقام وملاً القعب ، فأثابه به ، فأخذه وصنع بعلى ما صنع بفاطمة ، ودعا له بما دعا لها ، ثم قال في ابتهاج :
— اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في شملهما .
وسار النبي ﷺ ليخرج ، وتبعته أم أيمن . فالتفت إلى على وهو على وصيد الباب وقال :
— ادخل بأهلك باسم الله والبركة .

استيقظت أم الفضل امرأة العباس من نومها وهي تحس انقباضاً ، فقد رأت رؤيا
أزعجتها. وفكرت في أن أن تقص رؤياها على رسول الله، ولكن كيف تقص عليه أنها
رأت عضواً من أعضائه يُقطع ويُلقى به في بيتها ؟ إن ما رآته يزعجها . فعزمت على
ألا تقص خبره على النبي . وأخذت تغدو وتروح . وما تزال الرؤيا المفزعة ماثلة في
ذهنها تقلقها وتحيرها . حاولت أن تتناساها . ولكنها كانت تحتل كل تفكيرها ،
فلما لم تطق صبراً انطلقت إلى النبي . وقالت له في صوت أسيف :

— يا رسول الله . رأيت كأن عضواً من أعضائك في بيتي .

وأحست ببعض الراحة ، فقد أفضت بما كان يقلقها كتمانها . ورنّت إلى النبي
لترى أثر حديثها في وجهه ، فإذا به يتطلق ويقول .

— خيراً رأيته ، تلد فاطمة غلاماً فترضعينه .

ودخل عليّ على فاطمة . والبشر يترقرق في محياه ، تملأ نفسه الغبطة التي تملأ
كل زوج يرقب قدوم وليده الأول . وأقبل على الزهراء يلاطفها ، فنزلت السعادة
بالدار الصغيرة التي ما كان بها إلا إهاب كبش كانت فراش الإلفين وقطيفة . إذا
جعلها بالطول انكشفت ظهورهما . وإذا جعلها بالعرض انكشفت رعوسهما .
وحضرت ولادة فاطمة ، فهرع إلى بيت النبي ، فقال عليه الصلاة والسلام
لأسماء بنت عميس وأم سلمة .

— احضرا فاطمة .

واستمر عليّ في قلقه ، حتى إذا ما وقع ولده واستهل صارخاً . انتشت روحه ،
وسكنت الطمأنينة قلبه ، فقد كان يخشى على زوجه التي شحبت وانتابها هزال في
شهورها الأخيرة .

وجاء النبي . فأخرج إليه المولود في خرقة صفراء ، فرمى بها وقال :
— ألم أنهكم أن تلفوا المولود في خرقة صفراء !
وأمر أن يُلف في خرقة بيضاء ، فلفوه وجاءوا به ، فقطع سرتة وقال له :
— اللهم إني أعينه بك وولده من الشيطان الرجيم :
وفي اليوم السابع جاء رسول الله وقال :
— أروني ابني ، ما سميتوه ؟
فقال علي ، رجل السيف :
— حربًا .
فقال رسول الله :
— بل هو حسن .
ونحر كبشًا ، وأعطى القابلة فخذًا ودينارًا وقال :
— يا فاطمة ، احلقي رأسه وتصدق بزنة شعره فضة .
وأثلج صدر عليّ فقد وهبه الله هبة عظيمة ، وهبه ذرية من نسل رسول الله .
وانشرح صدر فاطمة بوليدها ، فجعلت ترقصه وهي فرحانة وتقول له :
أشبه أباك يا حسن واخلع عن الحق الرسن
واعبد إلها ذا منن ولا توال ذا الإحن
وما انقضى شهر وبعض شهر حتى حملت فاطمة ثانية ، فكانت أم الفضل
تُرضع الحسن . وفي يوم جاءت به إلى النبي ، فوضعت في حجره فبال ، فضربت
كتفه فنظر إليها عليه السلام وقال :
— أوجعت ابني رحمك الله .
ومرت الأيام ، ووضعت فاطمة مولودها الثاني ، فجاء النبي وقال :
— أروني ابني ، ما سميتوه ؟
فقال علي :
— حربًا .

فقال رسول الله :

— بل هو حسين .

* * *

وقف رسول الله يصلى بالمسلمين فجاء الحسن وهو ساجد فجلس على ظهره ،
فرفعه النبي رفعا رفيقا ، فلما فرغ من الصلاة ، وضعه في حجره ، فكان يدخل
أصابعه في لحية النبي ، والنبي يضمه وقبله في حنان ويقول :
— اللهم إني أحبه .

ورأى المسلمون ذلك الحب الدافق ، فقالوا :

— يا رسول الله إنا رأيناك تصنع بهذا الصبي شيئا ما رأيناك تصنعه بأحد .
— إن هذا ریحانتی ، وإن هذا ابني سيد ، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من
المسلمين .

ونفض النبي وحمل الحسن وسار ، فقابله رجل فقال :

— نعم المركب ركبت يا غلام .

فقال النبي :

— ونعم الراكب هو .

وفي يوم خرج رسول الله من بيت عائشة ، فمر على بيت فاطمة ، فسمع حسينا
يبكي ، فمس بكاءه شغاف قلبه ، فهرع إلى فاطمة وقال لها :
— ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني ؟

ودارت عجلة الزمن دورة ، ووقف رسول الله في مسجده يخطب ، وبينما هو
يعظ المسلمين ، جاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ،
فلم يتمالك رسول الله نفسه بل نزل إليهما وأخذهما وعاد إلى المنبر وهو يضمهما
إليه ، ثم وضعهما في حجره وقال :

— صدق الله ! إنما أموالكم وأولادكم فتنة .

سهام تتطاير ، وسيوف تتألق وتتصافح ، ثم تُرفع لتهوى كوميض البرق ،
فتحصد رعوس ، وتهرق دماء تروى أقدام أحد ، وكان يشهد معركة الثأر الناشبة
بين قريش والمسلمين . وقامت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان شيخ الأمويين في
النسوة اللواتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرضنهم ، راحت
هند تقول :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار ضرباً بكل بتار
وكانت هند ترقب القتال الدائر أمامها في قلق ورجاء ، كانت تخشى أن تُمنى
قريش بهزيمة أخرى ، فيلحقهم عار بعد عار ، وتزداد نار الحقد التي تأكل كبدها
تأججاً وضراماً ، وكانت ترجو أن يتمكن الرجال من القضاء على عليّ وحمزة ،
فتشفى غليل نفسها ، وتبرد النار التي كانت تنهشها الليالي والأيام طوال العام الذي
انقضى كما ينقضى أسوأ عام .

رأت عليّ بن أبي طالب يجدل حملة الألوية واحداً إثر واحد ، وحمزة بن عبد
المطلب يحس الرجال بسيفه ، فأحست حنقاً وامتلاّت غيظاً ، فما كانت ترجو في
يومها هذا إلا أن يشرب ابن أبي طالب وعمه حمزة من نفس الكأس التي جرعاها
يوم بدر ابنها حنظلة ، وأباها عتبة ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد .

وخاض حمزة في الناس كأنه الجمل الأورق يهد الأعداء بسيفه هذا ، ما يقوم
له شيء . وتقدم إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال :
— هلم ، إلى يابن مقطعة البظور .

وضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه ، وإذا بحربة وقعت في ثنته حتى خرجت من
بين رجله ، فالتفت فرأى الحبشى الذي رماها ، فذهب لينوء نحوه فغلب .

وقضى حمزة ، فأتاه وحشى فأخذ حربته وعاد إلى العسكر وقعد فيه ، فما كان له بغيره حاجة ، فقد قيل له : إن قتلت حمزة عم محمد فانت عتيق .
وهجم المسلمون على الأعداء وهم يتصايحون : « أمت .. أمت » فانهمز الكفار ، وأخذ نساؤهم يشددن في الجبل ، رافعين عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، وأسرع المسلمون يجمعون الغنائم . فلما لمح الرماة ذلك تصايحوا :
— الغنيمة الغنيمة .

فقال عبد الله بن جبير :

— عهد إلى ﷺ ألا تبرحوا .

— لقد انهزم القوم وابتدأ إخواننا في جمع الغنائم .

— لا تبرحوا .

فأبوا وانصرفوا ليجمعوا الغنيمة ، وأخلوا ظهور المسلمين ، فظهر خيل الكافرين على الجبل خلف المسلمين ، فالتفت المسلمون نحو الصوت مدعورين ، وانقضت خيل قريش عليهم ، فوقع بينهم هرج شديد .

وعادت هند والنسوة اللائي معها ، ورحن يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ، يجدن الآذان والأنوف ؛ حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم قلائد . ورأت حمزة العظيم مجدلاً لا حول له ولا سلطان ، فلم يذهب الموت بأحقادها ، بل ثار الوحش الكامن في نفسها ، فبقرت عن كبده حمزة وهي تصرف أنيابها غيظاً ، ثم رفعت كبده إلى فيها فلاكتها لتطفئ النار المندلعة في جوفها ، فلما لم تستطع أن تسيغها لفظتها .

وجاء أبو سفيان ووقف عند حمزة وقد بقرت بطنه ، فلم تأخذه الشفقة بابن عمه ، بل ثارت حفيظته فضرب في شقه بزج الرمح وقال :
— ذُق عقق .

ورأى الحليس سيد الأحابيش فعلة أوى سفيان النكراء ، فقال في استنكار :

— يا بني كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحماً !

فأحس أبو سفيان خزيًا ، وقال في توسل :

— ويحك ، اكتمها عني فإنها كانت زلة .

ذهب حمزة ، فتجمعت الأحقاد في ابن أبي طالب .

ورمى عتبة بن أبي وقاص رسول الله ﷺ بحجر فكسر ربايعته وجرح شفته السفلى ، وجاء آخر فشجه في جبهته . ووقع رسول الله في حفرة ، فأخذ على بن أبي طالب بيده ، وتفرق عنه أصحابه ، وفر بعضهم مذعورين حتى دخلوا المدينة ، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل إلى الصخرة ، وجعل رسول الله ﷺ يدعو إليه الناس :

— إلتى عباد الله ، إلتى عباد الله .

فاجتمع إليه ثلاثون رجلا ، فجعلوا يسرون بين يديه ، وصاح صائح : « ألا إن محمدًا قد قتل » ، فهدأت المعركة ، وانسل الرسول إلى الشعب ، وانضم إلى أصحابه .

وقعد النبي ﷺ والدم يسيل على وجهه ! فخفت فاطمة إليه ، وأحضر على ماء بالمجن ، وراح يسكبه وفاطمة تغسل جرح أبيها العظيم ، ورأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة ، فأخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها ، فاستمسك الدم .

وعلت هند بنت عتبة على صخرة مشرفة ، وصرخت بأعلى صوتها في شماتة :

نحن جزيناكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لي عن عتبة من صبر	ولا أخى وعمه وبكرى
شفيت نفسي وقضيت نذرى	شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمرى	حتى ترم أعظمى في قبرى

وأشرف أبو سفيان على الجبل وصرخ بأعلى صوته :

— أنعمت ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، اعل هبل .

فقال رسول الله ﷺ لعمر :

— قُمْ يا عمر فأجبه قتل : « الله أعلى وأجل ، لا سواء . قتلانا في الجنة وقتلاكُم في النار » .

فقال أبو سفيان :

— هَلُم إلَيَّ يا عمر .

فقال رسول الله :

— ائمه فانظر ما شأنه !

فجاءه ، فقال له أبو سفيان :

— أُنشِدُكَ الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟

— اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

— أنت عندي أصدق من ابن قمئة وأبر .

وانصرف أبو سفيان ومن معه ، فنادى رسول الله علياً وقال له :

— اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فإن كانوا قد

اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل

فهم يريدون المدينة ، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم

لأناجزنهم .

وتحرك علي ، فقال له النبي :

— أى ذلك كان فاخفه حتى تأتيني .

وخرج علي في آثارهم ينظر ماذا يصنعون ، فلما اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل

علم أنهم توجهوا إلى مكة ، فأقبل يصيح ما يستطيع أن يكتُم الذي أمره به رسول

الله ﷺ لما به من الفرح :

وفرغ الناس لقتلاهم ، فخرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة بن عبد المطلب ،

فوجده ببطن الوادي قد يُقَرَّ بطنه عن كبده ، ومُثَّل به فُجِدَع أنفه وأذناه ، فبان

الحزن العميق في وجه النبي ولم يستطع أن يكتُم ما به ، فقال :

— لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت قط موقفاً أغَيِّظ إلى من هذا .

وصمت رسول الله قليلا ثم قال :

— لولا أن تحزن صفية أو تكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون في أجواف السباع وحواصل الطير ، ولئن أنا أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم .

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على ما فعل بعمة قالوا :
— والله لئن ظهرنا عليهم يوما من الدهر لتمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط .

وتذكر الرسول قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١) ، فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة .
وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى أخيها حمزة ، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام :

— القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها .

فلقيها الزبير وقال لها :

— يا أمه ، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي .

— ولم ؟ وقد بلغني أنه مثل بأخي ، وذلك في الله قليل ، فما أَرْضَانَا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله .

فلما جاء الزبير رسول الله ﷺ وأخبره بذلك قال :

— خل سبيلها .

وانتهى رسول الله إلى أهله ، فدخل على فاطمة كما هي عادته قبل أن يدخل على زوجاته ، وناول سيفه ابنته وقال :

— اغسلي عن هذا دمه يا بنية .

وناولها على سيفه وقال :

— وهذا فاغسلي عنه فوالله لقد صدقني اليوم .

(١) هذه الآية مكية ولم تنزل في هذه المناسبة كما قالت كتب السمر .

(أهل البيت)

استوت الشمس في كبد السماء ، ونزل جيش المسلمين بالقرب من المدينة بعد أن قفلوا عائدين من غزوة بني المصطلق ، وأقبل صفوان بن المعطل يقود بعائشة الراحلة ، وكان هادئاً صافي النفس ، وكانت عائشة مرفوعة الرأس . فقد ذهبت تلتمس عقدها الذي انسل من عنقها دون أن تحس ، فخلفها الركب . وجاء صفوان وكان على ساق الجيش ، فلما رآها قرب ناقته وأناخها وقال لها : « يا أمة قومي فاركبي » ، فركبت وانطلق يغذ السير وهو آخذ برأس البعير ليلحق بالجيش .

ولم يوح طلوع عائشة وصفوان على الناس إلى المؤمنين شيئاً ، فإن نفوسهم طاهرة . ولكن كان هناك كبير المنافقين عبد الله بن أبي الذي أكلت الغيرة قلبه ، وملاً الحقد نفسه . فلما رأى زوجة غريمه ، لذي جاء إلى المدينة إذ كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ، مقبلة بعد الناس مع صفوان ، رأى أن يشكك الناس في زوج نبيهم الأثيرة عنده ، فعاهد شيطان نفسه على أن يخوض الإفك ، وعلى أن يلوث عائشة الطاهرة الذيل ، لعل نفسه تهدأ ، ولعل داء قلبه يبرأ ، ولعله ينتقم ممن استلبه ملكاً .

رأى عائشة على ظهر البعير وقد خمرت رجليها بجلبابها ، وصفوان يقود بعيرها ، فقال في خبث ليلفت نظر الناس إلى القادمين :

— من هذه ؟

فقالوا في براءة :

— عائشة وصفوان .

فقال في نبرات تقطر سما :

— ما برئت منه وما برئ منها .

وهبط على الناس وجوم ، وصمتوا كأنما عُقِدَتْ ألسنتهم فما ينطقون .
فقال ابن أبي في سخرية :

— امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت !

ونشط ابن أبي فراح يجوس خلال العسكر يوسوس للناس ، ويوسع الأرض
إشاعة ! ووجد بعض الآذان الواعية ، فتأدى في غيه حتى ارتج العسكر .

ودخل الناس المدينة ، وذاع خبر عائشة وصفوان ، وما درت عائشة شيئا .
وقال أبو أيوب الأنصاري لزوجته :

— ألا ترين ما يُقال ؟!

ف قالت له في إنكار :

— لو كنت بدل صفوان أكنت تهم بسوء لمجرم رسول الله ﷺ ؟!

— لا .

— ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله .

واشتكت عائشة ومرضت ، وانتهى الحديث إلى النبي وأبي بكر وأم رومان
زوجها ، فأما أبو بكر وأم رومان فقد نزل بهما هم ثقيل ، فكان قلباهما يحترقان غيظا
ولا يحركان لسانهما بكلمة ، ينتظران رحمة الله ولا يذكران لعائشة شيئا . إنها
لتشتكى شكوى شديدة ، وإن ألم نفسيهما الذى يعانيانه لأشد من ألمها .

وآذى رسول الله ما بلغه ، وشاء ألا يُصدق حديث السوء فما يعلم عن عائشة
إلا خيرا ، وجعل يفكر في أمرها فأقلقه فكره ، ودخل يعودها فلم يستطع أن يكرم
ما به ، فلم يلاطفها كما اعتاد أن يلاطفها كلما وعكت ، فأنكرت عائشة منه
ذلك .

وانتقلت إلى بيت أبويها ، وبلغها حديث الناس فازدادت مرضا على مرضها ،
وما زالت تبكى حتى لكاد البكاء يصدق كبدها ، وأقبلت أمها فقالت لها عائشة
عاتبة :

— يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ، وبلغك ما بلغك ، ولا تذكرين لي من ذلك شيئا ؟

فشاءت الأم أن تخفف عن ابنتها وقع مصابها ، وأن تهون عليها ما بلغها ، فقالت :

— أي بنية ، خفضي الشأن ، فوالله قل ما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر ، إلا كثرون وكثر الناس عليها .

وظل النبي يتألم ، وانتظر براءة عائشة ، فإنه لا يستطيع أن يصدق ما قيل ، كما إنه لا يملك البرهان الحاسم الذي يبرئها مما لصق بها . اختبر في أعز ما يملك فصبر ، ولكن حديث الناس يؤذيه ، فشاء أن يضع لذلك الأمر حدا ، فذهب يستشير أصحابه ، فقال له عمر :

— من زوَّجَهَا لك يا رسول الله ؟

— الله تعالى .

— أفتظن أن الله دلس عليك فيها . سبحانك هذا بهتان عظيم .
ودعا النبي علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد . ليستأمرهما في فراق أهله ، فقال أسامة .

— يا رسول الله . أهلك ولا نعلم عليهن إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .
وشعر علي بعظم الأسى الذي يكابده الرسول . فقال في صراحته المعهودة :
— يا رسول الله ، إن النساء لكثير . وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها تصدق .

ودعا رسول الله بُرَيْرَةَ يسألها :

— أي بُرَيْرَة . هل رأيت من شيء يريك ؟

— لا .

فقام إليها علي فضربها ضربا شديدا وهو يقول :

— أصدقني رسول الله .

فالتفتت إلى رسول الله وقالت :

— والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمطه ، غير أنها جارية حديثة السن . تنام عن عجين أهلها فتأثى الدواجن فتأكله .
ونزلت براءة عائشة من السماء . ونسى علي ما قاله ، ولكن عائشة لم تنس قط أن عليا قال : « يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف » .
لقد بذر علي بقوله هذا بذرة من بذور الكره في صدر عائشة ، ستتمو على الأيام ، وستؤتي ثمارها ، يوم يقفان وجها لوجه على رأس جيشين متنازعين من المسلمين .



استمر القتال بين المسلمين والقرشيين وكان أبو سفيان يقودهم لاستئصال محمد وصحبه ، ولكن نجم محمد كان في صعود بينا نجم أبي سفيان كان آخذا في الأفول ، وعقد أخيراً صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش ؛ وفيه أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل . فدخلت بنو بكر في عهد قريش ، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ .

وكان الخزاعيون على ماء لهم آمنين ، فجاءهم بنو بكر ليلاً بغتة . فأصابوا منهم عشرين ، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفياً ، منهم صفوان بن أمية وحويطب ابن عبد العزى وعكرمة بن أبي جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو .
وناصرت قريش بنى بكر على خزاعة ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق . وجاء الحرث بن هشام إلى أبي سفيان وأخبره بما فعل القوم ، فأطرق أبو سفيان قليلاً ثم قال :

— هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه وإنه لشر ، والله ليغزونا محمد . ولقد حدثني هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دماً أقبل من الحجون يسيل

حتى وقف بالخدمة .

وندمت قريش على نقضهم العهد ، وفكروا في أن يبعثوا إلى رسول الله رسولا
يجدد عهدهم ، فلم يجدوا إلا أبا سفيان لهذه السفارة فقالوا له :

— ما لها سواك ، اخرج إلى محمد فكلمه في تبديد العهد وزيادة المدة .

خرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين . وأسرع السير فقد كان يريد أن يبلغ
المدينة قبل أن يبلغ رسول الله خبر ما جرى لحليفه . ولقى أبو سفيان بديل بن ورقاء
بعسفان ، فأشفق أن يكون بديل ، وهو من خزاعة ، جاء المدينة إلى رسول الله
ﷺ فاقترب من بديل ومن معه وقال :

— أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها ؟

— لا علم لنا بها . إنما كنا في الساحل نصلح بين الناس في قتل .

— ما أتيت محمداً يا بديل ؟

— لا .

وتوجه بديل إلى مكة ، فالتفت أبو سفيان إلى مولاه وقال :

— لكن كان جاء إلى المدينة لقد علف بها النوى .

فجاء منزلهم ففتت أبعاد أباعرهم ، فوجد فيها النوى .

قال أبو سفيان : أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً .

ودخل أبو سفيان المدينة ، فرأى أن يدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ، فاتجه
إليها ودخل عندها ، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه ، فبان
في وجهه دهشة وقال :

— يا بنية ، ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟

— بل هو فراش النبي ﷺ وأنت مشرك نجس .

— والله لقد أصابك بعدى شر .

— بل هداني الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ، واعجباً
منك يا أبت وأنت سيد قريش وكبيرها .

- أنا أترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمد ؟
وخرج إلى المسجد حتى أتى النبي ، فالتفت الناس إلى سيد قريش المتعجرف
الذى جاء يرجو ويتوسل .
قال : إني كنت غائبًا في صلح الحديبية ، فامدد العهد وزدنا في المدة .
فقال رسول الله ﷺ :
— لذلك جئت يا أبا سفيان ؟!
— نعم .
— هل كان فيكم من حدث ؟
— معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبذل .
— فنحن على مدتنا وصلحنا .
وحاول أبو سفيان أن يقنع النبي بأن يجدد العهد ، ولكن النبي لم يرد عليه
شيئا ، فرأى أن يستعين بأبي بكر فذهب إليه وقال له :
— جدد العقد وزدنا في المدة .
فقال أبو بكر :
— جوارى في جوار رسول الله ، والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم .
وخرج من عند أبي بكر يجر أذيال الإخفاق ، ولكنه لم يقنط ، فرأى أن يذهب
إلى عمر ، فلما أتاه كلمه ، فقال عمر :
— ما كان من حلفنا جديدًا أخلقه الله ، وما كان مقطوعًا فلا وصله الله .
فرمقه أبو سفيان شزرا وقال :
— جزيت من ذى رحم شرًا .
ثم جاء إلى عثمان بن عفان فقال :
— إنه ليس في القوم أقرب بي رحمًا منك ، فزد في المدة وجدد العقد فإن
صاحبك لا يرد عليك أبدًا .
— جوارى في جواره ﷺ .

ولم يبق أمامه إلا بيت عليّ ، فدخل على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة وحسن غلام يدب بين يديها فقال :

— يا عليّ ، إنك أمس القوم بي رحماً وإني قد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً ، اشفع لي إلى محمد .
فقال عليّ :

— ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه .

فالتفت إلى فاطمة فقال :

— يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجبر بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

— والله ما بلغ ابني ذلك أن يجبر بين الناس ، وما يجبر على رسول الله أحد .
ورأى أبو سفيان الأمور قد انسدت عليه ، فقال :
— يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى .
— والله ما أعلم شيئاً يغني عنك شيئاً ؛ ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك .

— أوترى ذلك مغنيا عني شيئاً ؟

— لا والله لا أظن ؛ ولكن لا أجد لك في غير ذلك .

فخرج أبو سفيان إلى المسجد ، فقام فقال :

— أيها الناس إني أجرت بين الناس .

ثم ذهب إلى النبي ﷺ وقال :

— يا محمد ، إني أجرت بين الناس ، لا والله ما أظن أحداً يخفركني ويرد جوارى .

فقال رسول الله ﷺ .

— أنت تقول هذا يا أبا حنظلة ؟

وركب أبو سفيان بعيره لينطلق إلى قريش بعد أن طالت غيبته في يثرب ؛
واتهمته قريش أنه صباً واتبع محمداً سراً وكنم إسلامه .

دخل أبو سفيان على هند زوجته فقالت له :

— إن كنت مع طول الإقامة جثتهم بنجح فأنت الرجل .

فأخبرها بإخفاق سفارته ، فضربت برجلها في صدره وقالت :

— قبحت من رسول قوم فما جثت بخير .

فلما أصبح أبو سفيان ، حلق رأسه عند إساف ونائلة وذبح عندهما للبدن ،
ومسح رأسهما بالدم ليدفع عنه تهمة إسلامه ، فلما رآته قريش أقبلوا نحوه وقالوا :

— ما وراءك ؟ هل جثت بكتاب من محمد أو عهد ؟

— جثت محمداً ، فكلمته ، فوالله ما رد على شيئاً ، ثم جثت إلى ابن أبي قحافة

فلم أجد فيه خيراً ، ثم جثت عمر بن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جثت عليا
فوجدته ألين القوم ، وقد أشار على بشيء صنعته فوالله لا أدرى أيغنى عني شيئاً أم

لا .

— وبم أمرك ؟

— أمرني أن أجيز بين الناس ففعلت .

— فهل أجاز ذلك محمد ؟

— لا .

— رضيت بغير رضا ، وجئت بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً ، ولعمر الله ما

جوارك بجائز ، وإن إخفارك عليهم هين ، والله أراد الرجل أن يلعب بك .

— والله ما وجدت غير ذلك .

عقد ﷺ الألوية والرايات ودفعها للقبائل ، ثم سار إلى مكة وقد أعمى الله الأخبار عن قريش حتى نزل بمر الظهران ، فأسر ﷺ أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب ، ونظر العباس الذي أقبل إلى رسول الله مسلما إلى عسكر المسلمين فرقت نفسه لأهل مكة ، فجلس على بغلة رسول الله وخرج عليها وهو يقول في نفسه :

— لعلي أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة يخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة .

وفيما هو سائر إذ سمع كلام أبي سفيان وحكيم بن حزام وهما يتراجعان ، فقد خرجا يتحسسان الأخبار وينظران هل يجدان خيرا أو يسمعان به ، فلما سمعا سهيل الخيل راعهما ذلك ، فقال أبو سفيان :

— ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا ، هذه كنيران عرفة .

— هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

— خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وعرف العباس صوت أبي سفيان فقال :

— أبا حنظلة !

فقال أبو سفيان في استغراب .

— أبو الفضل ؟!

— نعم .

— مالك فذاك أبي وأمي ؟

— والله هذا رسول الله ﷺ في الناس قد جاءكم بما لا قبَل لكم به .

- وأصبح قريش ، والله فما الحيلة فذاك أبى وأمى ؟
- والله لئن ظفرك بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتيك رسول الله ﷺ فاستأمنه لك .
- فركب خلفه وسارت البغلة ، وكلما مرا بنار من نيران المسلمين قالوا :
- من هذا ؟ .
- فإذا ما استبانوا بغلة رسول الله ﷺ قالوا :
- عم رسول الله ﷺ على بغلته .
- ومر العباس وأبو سفيان بنار عمر فقال :
- من هذا ؟ .
- وقام إليهما ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال :
- أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد .
- وهرع عمر إلى رسول الله ﷺ فركضت البغلة فسبقتة ، فدخل العباس على رسول الله ﷺ وعمر في أثره يقول :
- يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ، فدعني لأضرب عنقه .
- فقال العباس :
- يا رسول الله إني قد أجرته .
- وجلس العباس إلى رسول الله ﷺ وقال في نفسه : والله لا يناجيه الليلة رجل دوني ، وقال عمر في ثورة :
- دعني يا رسول الله لأضرب عنقه .
- فقال العباس :
- مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بني عُدَيَّ بن كعب ما قلت مثل هذا .
- مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام

الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أن عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال رسول الله ﷺ :

— اذهب به يا عباس ، فإذا أصبحت فأتني به .

وتؤدى بالصلاة . وثار الناس ، ففرع أبو سفيان وقال للعباس :

— يا أبا الفضل ، ما للناس ؟ أأببروا في بشيء ؟

— لا ، ولكنهم قاموا إلى الصلاة .

ورأى أبو سفيان المسلمين يركعون إذا ركع الرسول ويسجدون إذا سجد ،

فقال :-

— يا عباس ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه .

— لو نهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه .

فغمغم أبو سفيان :

— ما رأيت ملكا مثل هذا ، لا منك كسرى ، ولا ملك قيصر ، ولا ملك بنى

الأصفر .

ثم التفت إلى العباس وقال :

— كلمه في قومك هل عنده من عفو عنهم .

انطلق العباس بأبي سفيان حتى أدخله على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله :

— ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

— بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، لقد ظننت أنه لو كان مع

الله إله غيره لما أغنى عنى شيئا .

— ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

— بأبي أنت وأمي ، أما والله هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئا .

فقال العباس :

— ويحك ، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب

عنقك .

فشهد أبو سفيان ثم قال :

— يا رسول الله ادعو الناس بالأمان ، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها
آمنون هم ؟

— نعم من كف يده وأغلق داره فهو آمن .

قال العباس :

— يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً .

— نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ،
ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .
ودخل أبو سفيان مكة وهو يصرخ بأعلى صوته :

— يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبَل لكم به ، فمن دخل دار أبي
سفيان فهو آمن .

فما إن صك صوته أذنتي هند وزوجه ، حتى اربد وجهها وأحست غيظاً ،
فخرجت إليه فأخذت بشاربه وقالت :

— اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه ، قُبِع من طليعة قوم .

— ويحك اسكتي ، ادخلي بيتك ، ويحكم فلا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه
قد جاءكم ما لا قبَل لكم به .

— قُبِحك الله ، وما تغني عنا دارك !

— ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى
سلاحه فهو آمن .

ودانت مكة للرسول الكريم ، فدخلها وهو راكب على ناقته القصواء ، واضعاً
رأسه على رحله ، تواضعاً لله تعالى حين رأى الفتح العظيم .

وجاء البيت وطاف به سبعاً على راحلته ؛ وحُطِّمَت الأصنام جميعاً ولم يبق إلا
أكبرها ؛ ووفد الليل فانطلق رسول الله ﷺ بعلي حتى أتى الكعبة ، فقال له :

— اجلس .

فجلس على إلى جانب الكعبة ، فصعد رسول الله ﷺ على منكبه ثم قال :

— انهض .

فنهض على ، فلما رأى الرسول ضعفه تحته ، أشفق عليه فقال له :

— اجلس .

فجلس على ، وهبط رسول الله ﷺ ثم جلس وقال :

— يا على ، اصعد على منكبي واهدم الصنم .

— يا رسول الله بل اصعد أنت ، فإنى أكرمك أن أعلوك .

— فاصعد أنت .

فصعد على على كاهله ثم نهض به ، فصعد فوق ظهر الكعبة ، وتنحى رسول

الله ﷺ ، وراح على يعالج الصنم ، والتفت الزبير إلى أبى سفيان وقال :

— إن هبل الذى كنت تفخر به يوم أحد قد كسر .

— دع هذا عنك يا بن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد ﷺ غيره ، لكان

غير ما كان .

* * *

وأمر رسول الله بقتل عبد الله بن أبى سرح ، لأنه كان أسلم قبل مكة ، وكان

يكتب لرسول الله ﷺ الوحي فكان يحاول أن يبدل فى الوحي ، فلما ظهرت

خيانته لم يستطع أن يقيم بالمدينة ، فارتد وهرب إلى مكة ، فلما كان يوم الفتح وعلم

بإهدار النبی ﷺ دمه ، لجأ إلى عثمان بن عفان أخيه من الرضاعة فقال :

— يا أخى استأمن لى رسول الله ﷺ قبل أن يضرب عنقى .

فأتى به عثمان إلى النبی ، فأعرض عنه النبی ، فصار عثمان يقول :

— يا رسول الله أمته ؟

واستمر النبی يعرض عنه ، ففى الواقفين رجل نذر أن يقتل ابن أبى سرح إذا

لقيه ، وظل عثمان يقول فى استعطاف :

— يا رسول الله أمنتك ؟

فقال النبي :

— نعم .

فبسط يده فبايعه .

وخرج عثمان وعبد الله ، فقال ﷺ لمن حوله :

— أعرضت عنه مراراً ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه .

والتفت إلى عبّاد بن بشر وقال :

— انتظرتك أن تفي بنذرك .

فقال عبّاد :

— يا رسول الله خفتك ، أفلا أومضت إليّ ؟

— إنه ليس لنبي أن يومض .

وكان النبي ﷺ قد أمر بقتل هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان لأنها مثلت بعمه حمزة يوم أحد ولاكت قلبه ، فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء فقال :

— تبايعن على ألا تشركن بالله شيئاً ؟

فقالت إحداهن :

— إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه .

— ولا تسرقن ؟

قالت :

— والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة وما أدرى أكان ذلك جلاً لي أم لا .

فقال أبو سفيان .

— أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل .

فقال رسول الله ﷺ :

— وإنك لهند بنت عتبة ؟

— أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف عفا الله عنك .

— ولا تزنين ؟

فقلت هند :

— هل تزني الحرة ؟

— ولا تقتلن أولادكن ؟

— قد ريئاهم صغارًا وقتلتهم يوم بدر كبارًا .

— ولا تأتين ببهتان تفتريه بين أيديكن وأرجلكن ؟

— والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

— ولا تعصينني في معروف ؟

— ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف .

فقال رسول الله ﷺ لعمر :

— بايعهن .

٦

دانت قبائل العرب للرسول إلا هوازن وثقيفا ، ومشيت أشرافهما بعضها إلى بعض ، فقد أشفقوا أن يغزوهم رسول الله ﷺ وقالوا : « قد فرغ لنا فلا ناهية » . واستعد القوم للقاء محمد ، ولم يمش الخوف في ركابهم ، فقد كانوا على ثقة من أمرهم . وقالوا مهونين من شأن محمد : « والله إن محمدًا لاقى قومًا لا يحسنون القتال » .

خرجت هوازن وعلى رأسها مالك بن عوف ، فاجتمع إليه من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر ، وهم الذين كان رسول الله ﷺ مسترضعًا فيهم ، وحضر معهم دريد بن الصمة ، وكان شجاعًا مجربًا ، ولكنه كبير وقد عمى وصار لا ينتفع إلا برأيه ومعرفته بالحرب .

وصك أذن دريد رغاء الإبل ونهاق الحمير وبكاء الأطفال وأصوات النساء
فعجب وقال :

— أين مالك ؟

— هذا مالك .

ودُعِيَ له ، فقال الرجل المُجرب .

— يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من
الأيام . مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ويعار الشاة وبكاء الصغير .

— سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

— ولم ؟

— أردت أن أجعل خلف كل أهله وماله ليقاتل عنهم .

فزجره وقال :

— راعى ضأن ، والله هل يرد المنهزم شيء ، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا
رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت من أهلك ومالك .

ثم صمت قليلا وقال :

— وما فعلت كعب وكُلاب ؟

— لم يشهد منهم أحد .

— غاب الجد والحد ، لو كان يوم غلا ورفع ما غابا ، ولوددت أنكم فعلتم ما

فعلت كعب وكُلاب . فمن شهدها منهم ؟

— عمرو بن عامر وعوف بن عامر .

— ذانك الجذعان من بنى عامر لا ينفعان ولا يضران . يا مالك إنك لم تصنع

بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نخور الخيل شيئا . ارفعهم متمنع بلادهم وعليها

قومهم ثم الق الصباء على متون الخيل . فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن

كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

— والله لا أفعل . إنك قد كبرت وضعف رأيك .

(أهل البيت)

فقال دريد لهوازن :

— قد شرط أن لا يخالفني ، فقد خالفني فأنا أرجع إلى أهلي .

فقام الرجال إليه ومنعوه ، وخشى مالك أن ينتصر رأى دريد فيكون له ذكر
فقام مهدداً :

— والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من
ظهري .

فلم يجد الناس بداً من أن يطيعوه فقالوا :

— أطعناك .

فقال دريد :

— هذا يوم لم أشهده ولم يفتني .

وجعل مالك النساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً ، ثم جعل الناس الإبل
صفوفاً والبقر والغنم وراء ذلك لئلا يفروا ، وراح مالك يتفقد صفوف جيشه ثم
قال :

— إذا أنتم رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا شدة رجل واحد
عليهم .

وبعث عيوناً لينظروا إلى رسول الله ﷺ فأتوا وقد تفرقت أوصالهم ، قال :

— ويلكم ، ما شأنكم ؟

— رأينا رجالاً بيضاً على خيول بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، وإن
أطعنا رجعنا بقومك .

فبان الضيق في وجهه وقال في غيظ :

— أف لكم ، بل أنتم أجبن العسكر .

وسمع رسول الله ﷺ باجتماعهم فأرسل إليهم رجلاً من أصحابه ، وأمره أن
يدخل فيهم ويسمع منهم ما أجمعوا عليه ، فمكث فيهم يومين ، ثم أتى رسول الله
ﷺ فأخبره الخبر وقال :

— يا رسول الله ، إني انطلقت بين أيديهم فإذا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم
ونعمهم وشبابهم اجتمعوا إلى حنين .

فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

— تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى .

وعلم رسول الله أن عند صفوان بن أمية درعاً وسلاحاً ، ولم يكن صفوان قد
أسلم ، فأرسل ﷺ إليه فقال :

— يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غداً .

— أغصباً يا محمد ؟

— بل عارية وهي مضمونة حتى تؤديها إليك .

— ليس بهذا بأس .

واستعار ﷺ من ابن عمه نوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح فقال
له :

— كأني أنظر إلى رماحك تقصف ظهر المشركين .

وخرج رسول الله ﷺ ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه
الذين فتح الله بهم مكة ، وخرج أهل مكة ركباً ومشاة حتى النساء يمشين على غير
وهن يرجون الغنائم .

واقترب جيش المسلمين من العدو ، فأعطى النبي علياً لواء المهاجرين ،
وأعطى الحباب بن المنذر لواء الخزرج ، وأعطى سيد بن حضير لواء الأوس . وفي
عماية الصبح انحدر المسلمون في وادي حنين ، فانقض عليهم العدو من شعاب
الوادي ومضايقه ، وحمل عليهم حملة رجل واحد ، وتطايرت النبال ، وانتشر أهل
هوازن كالجراد ، فقال أهل مكة الذين لم يثبت الإسلام في قلوبهم بعضهم لبعض :
— اخذلوه هذا وقته .

فانهزموا وتبعهم الناس منهزمين لا يلوي أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ذات
اليمن ومعه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل . وهتف
رسول الله :

— أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، إني عبد الله ورسوله ، إلتى أيها الناس .
ولكن الناس اندفعوا لا يلوون على شيء ، ورأى أبو سفيان فرار المسلمين
فابتسم في شماته ، ونضح بما في نفسه من ضغن فقال :

— لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

وقال أخو صفوان بن أمية :

— ألا بطل السحر اليوم .

فقال له صفوان ولم يسلم بعد :

— اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يُربنى (يحكمنى) رجل من قريش أحب

إلتى من أن يُربنى رجل من هوازن .

والتفت رسول الله إلى العباس وكان امرئاً جسيماً شديد الصوت وقال له :

— يا عباس ، اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وبالأنصار الذين

آووا ونصروا .

وجلجل صوت العباس الجمهورى فإذا بأصوات المهاجرين والأنصار ترتفع :

— لبيك يا رسول الله نحن معك .

وكان أمام المشركين رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل ،

إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته رفع رمحاً لمن خلفه فاتبعوه ، ورأى علقم بن أبى

طالب ما يفعل ذلك الرجل ، فاتجه إليه وجاء من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوق

على عجزه ، ووثب الرجل على أنصارى فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه ؛

واجتلد الناس واشتد القتال ، وانقض فرسان المسلمين على هوازن ، فطاحت

رعوس وسالت الدماء ! وانقلبت المعركة إلى مذبحه ، ففر من حملته رجلاه ،

وسقط خلق كثير أسرى في أيدي المسلمين .

عاد النبي ﷺ من حجة الوداع ، فكان يجيء كل صباح إلى دار فاطمة يقول :
 — السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، الصلاة رحمكم الله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .
 وفي ليلة من الليالي أحس رسول الله ﷺ أرقاً ، فخرج من الدار وذهب إلى
 أبي مويهبة وقال له :

— يا أبا مويهبة أسرج لي دابتي .
 فذهب أبو مويهبة في جوف الليل يُسرج دابة رسول الله ، ثم قفل عائداً بها ،
 فقال رسول الله ﷺ :
 — يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معي .
 فركب رسول الله ، ومشى أبو مويهبة حتى انتهى إليهم ، فنزل رسول الله عن
 دابته ، وأمسك أبو مويهبة الدابة ، ونظر رسول الله إلى القبور وقال :
 — السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ؛
 أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى .
 ورجع رسول الله ﷺ من البقيع ، فدخل على عائشة وهي تشتكي رأسها :
 — وَاَرَأَسَاهُ .

— بل أنا والله يا عائشة وَاَرَأَسَاهُ !!
 وجلس إلى جوارها وقال مداعباً :
 — وما عليك لو مت قبلي ، فوليت أمرك وصليت عليك وواريتك .
 — والله إني لأحسب لو كان ذلك لقد خلوت ببعض نسائك في بيتي في آخر
 النهار !

فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ .

واستمر النبي يدور على نسائه ، وهو في وجهه ، وكان يسأل :

— أين أنا غداً ، أين أنا غداً ؟

يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء ، فخرج بين علي بن أبي طالب والفضل بن العباس عاصباً رأسه تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة . واجتمع نساء رسول الله عنده ، فجاءت فادلمة تمشي لا تخطئ مشيتها مشية أبيها ، فلما رآها النبي قال :

— مرحباً بابنتي .

فأقعدها عن يمينه ثم سارها بشيء فبكت ، ثم سارها فضحكت ، فالتفت إليها عائشة وقالت لها :

— خصك رسول الله بالسرار وأنت تبكين ؟

وقامت فاطمة فهرعت عائشة إليها وقالت :

— أخبريني ما سارك ؟

— ما كنت لأفشي سر رسول الله .

وأنت فاطمة بالحسن والحسين إلى رسول الله فقالت :

— يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئاً .

— أما الحسن فإن له هيبتي وسؤددى ، وأما الحسين فإن له جرأتى وجودى .

وثقل برسول الله ﷺ وجهه ، وعكف الناس بالمسجد ينتظرونه لصلاة

العشاء ، فقال :

— أصلى الناس ؟

— لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله .

— صبوا لي ماء في الخضب .

ففعّلوا ، واغتسل ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال :

— أصلى الناس ؟

— لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله .

— ضعوا لي ماء في الخضب .

ففعّلوا ، فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم أفاق فأرسل إلى أبي بكر ليُصلي بالناس .

فلم يقع في قلب عائشة أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً ، وكانت ترى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأرادت أن يعدل ذلك رسول الله عن أبي بكر فقالت :

— إن أبا بكر رجل رقيق ، وإنه متى يقوم مقامك لا يُطيق .

— مروا أبا بكر ليُصلي بالناس .

— إن أبا بكر رجل أسيف ، إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء .

— إنكن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليُصلي بالناس .

وصلّى الناس ، وراح الأنصار يُشفقون من موت النبي ﷺ ، فدخل عليه الفضل فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه عليّ فأخبره بذلك . ثم دخل عليه العباس فأخبره بذلك ، فخرج النبي متوكئاً على عليّ والفضل والعباس أمامه ، والنبي ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثار الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

— أيها الناس ، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل تُخلّد نبي قبل فيمن بُعث إليه فأُخلّد فيكم ؟ ألا وإني لاحق بربي ، وإنكم لاحقون به ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصي المهاجرين فيما بينهم بخير ، فإن الله يقول ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ... ﴾ وإن الأمور تجري بإذن الله ، ولا يحملكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم . وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يُشاطروكم في الثمار . ألم يوسعوا لكم في الديار ،

ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا فإني فرطكم وأنتم لاحقون بي ، ألا وإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغي . يأياها الناس ، إن الذنوب تغير النعم ، فإذا بر الناس برتهم أثمتهم ، وإذا فجر الناس عقوا أثمتهم .

ونامت مدينة الرسول تلك الليلة ، وأصبح البصباح فخرج على من عند رسول الله ، فهرع الناس إليه وقالوا :

— يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ؟

فقال على في انشراح :

— أصبح بحمد الله بارئاً .

فأخذ بيده العباس فقال له :

— أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف

يتوفى من وجعه هذا ، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ، اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر ؟ إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا .

فلم يوافق على ذلك وقال :

— إنا والله لئن سألتها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده ، وإني

والله لا أسأله رسول الله .

والتفت رسول الله إلى من عنده وقال :

— ابعثوا إلى على فادعوه .

ف قالت عائشة :

— لو بعثت إلى أبي بكر .

وأسرعت حفصة وقالت :

— لو بعثت إلى عمر .

واجتمع عليّ وأبو بكر وعمر عند النبي ، ولكن رسول الله لم يقل لهم شيئاً ذا بال ، بل صرفهم قائلاً :

— انصرفوا ، إن تك لي حاجة أبعث إليكم .

وأذن بلال بالظهر ، فاصطف الناس خلف أبي بكر ، وأخرج رسول الله ﷺ رأسه من الستارة ، فلما لمح الناس أرادوا أن ينحرفوا فأشار إليهم أن امكثوا ، وتبسم رسول الله ﷺ لما رأى من هيئة المسلمين في صلاتهم .

ودخل أبو بكر على عائشة وقال :

— الحمد لله ، قد أصبح رسول الله وأرجو أن يكون الله عز وجل قد شفاه .

ثم ركب أبو بكر فلحق بأهله بالسنع ، وانقلبت كل امرأة من نساء النبي ﷺ إلى بيتها . واشتد عليه الوعك ثانية فالتفت إلى عائشة وقال :

— يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم .

وأخذ في الموت فصار يُغمى عليه ثم يُفيق . فبعثت عائشة إلى أزواجه فرجع إليه من كان ذهب من نسائه ، ورأت فاطمة ما يعاني رسول الله فسالت دموعها وقالت :

— واكرب أبتاه .

فقال رسول الله ﷺ .

— ليس على أهلك كرب بعد اليوم .

وتذكر ﷺ أن عنده سبعة دنائير ، فأمر عائشة بإرسالها إلى عليّ كرم الله وجهه ليتصدق بها وهو يقول :

— ما ظن محمد بربه أن لو لقي الله وهذه عنده !

وكان رأس النبي في حجر عائشة ، وكان عنده قدح فيه ماء ، فكان يدخل يده

في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول :

— اللهم أعني على سكرة الموت .

وخفت حركة النبي وتم بصوت خافت :

— بل الرفيق الأعلى من الجنة .

ووجدت عائشة رسول الله يثقل في حجرها ، فذهبت تنظر في وجهه ، فإذا نظره قد شخص ، لقد خيّر فاختار ولحق بالرفيق الأعلى .

ووضعت رأسه على وسادة ، وقامت تلتدم مع النساء وتضرب وجهها .

وراحت فاطمة تبكي وتقول :

— وأبتاه ، أجب داع دعاه ، يا أبتاه ، الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل

ننعه .

وصك صوت فاطمة آذان من في المسجد ، فطاشت العقول ، فأخرس عثمان

ابن عفان ، فلم يطق الكلام ، وأقعد علي فلم يستطع أن يتحرك ، وهرع إلى دار

النبي عمر والمغيرة بن أبي شعبة ، فاستأذنا ، فأذنت لهما عائشة ، وجذبت إليها

الحجاب ، ورأى عمر النبي مُسَجًى ، فرفع عنه الثوب وقال :

— واغشياه ! ما أشد غشى رسول الله ﷺ !

ثم قاما فلما دنيا من الباب قال المغيرة :

— يا عمر ، مات رسول الله .

فثار عمر وقال :

— كَذِبْتَ ، بل أنت رجل تحوسك فتنة ، إن رسول الله لا يموت حتى يفنى

المنافقين .

واختلف الصحابة فيما بينهم ، فمن قائل يقول : مات رسول الله ، ومن قائل :

لم يموت ، فذهب سالم بن عبيد وراء الصديق إلى السنع فأعلمه بموت رسول الله ،

فأقبل على فرس حتى نزل ، فدخل المسجد وهو مكروب حزين ، وانطلق لا يكلم

الناس ، واستأذن فأذن له ، فدخل ، فألقى النبي في فراشه والنسوة حوله قد خمرن

وجوههن واستترن منه ، فكشف عن رسول الله ، فقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، مات رسول الله ﷺ .

ثم أتاه من قِبَلِ رأسه وحدر فاه وقبل جبهته ثم قال :
— واصفياه .

ثم رفع رأسه وحدر فاه وقبل جبهته وقال :
— واخليلاه !

وخرج سريعاً إلى المسجد يتخطى رقاب الناس ، فرأى عمر يخطب في الناس
فقال :

— اجلس يا عمر !

فأبى عمر أن يجلس .

فَتَشَهَّدَ فأقبل الناس إليه ، فقال :

— أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد
الله فإن الله حي لا يموت .

* * *

دخل عليّ والعباس وأبو بكر يعدون العدة لجهاز النبي ، واجتمع الناس في
المسجد يتحدثون ، وأقبل رجل إلى عمر وقال له :

— اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لمبايعة سعد بن عباد خليفة لرسول
الله .

فأرسل عمر إلى أبي بكر أن اخرج إلينا ، فخرج أبو بكر فقال عمر :

— أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا
هذا الأمر سعد بن عباد ؟

فأسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى سقيفة بني ساعدة ، وبقي عليّ والعباس
وبعض بني هاشم يشتغلون بإعداد جهاز النبي ، وأحس العباس أن في الأمر شيئاً ،
وأن الناس يفكرون فيمن يخلف رسول الله ، فالتفت إلى عليّ وقال :

— امدد يدك أبايعك ، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ﷺ
فلا يختلف عليك اثنان .

— أو يطمع فيها يا عم طامع غيرى ؟

— ستسمع .

وظفق علىّ يقول وهو يلى غسله :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد انقطع بمرتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء ، وخصصت حتى صرت مسلماً عن سواك ، وعممت حتى صار الناس فيك سواء ، ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفذنا عليك ماء الشئون ، ولكان الداء ممطلا ، والكمد محالفاً وقلالك ، ولكنه ما لا يملك رده ولا يُستطاع دفعه ، بأبى أنت وأمى ، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك .

واجتمعت بنو أمية إلى عثمان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، اجتمعوا في المسجد في حلق شتى ، وراحوا يتذاكرون أمر المسلمين بعد موت الرسول ، وأقبل عليهم أبو بكر وأبو عبيدة وعمر وقد بايع الناس أبا بكر ، فقال لهم عمر :

— مالى أراكم مجتمعين حلقاً شتى ، قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايعته وبايعه الأنصار .

فقام عثمان بن عفان ومن معه من بنى أمية فبايعوه ، وقام سعد وعبد الرحمن ومن معهما من بنى زهرة فبايعوا .

وبلغ علياً خبر السقيفة واجتماع الناس على بيعة أبى بكر فلم يستطع أن يفعل شيئاً ، فقد كان في شغل بجهاز الرسول ، وقال له العباس :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصيح إلا ضحى الغد وجاء أبو سفيان وهو يقول :

— أما والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ، يا لعبد مناف ، فيم أبو بكر من أمركم ؟ أين المستضعفان علىّ والعباس ؟ أين الأذلان ؟
وجاء علياً فقال له :

— يا أبا الحسن ابسط يدك أبايعك ؛ فوالله لو شئت لأملأها على أبنى فضيل خيلا
ورجلا : فامتنع عليّ فأنشد :

ولن يقيم على خسف يراد به إلا الأذلان غير الحى والود
هذا على الخسف معكوس برمته وذا يشج فلا ييكى له أحد
فزجره عليّ وقال :

— إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة ، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شرا . لا
حاجة لنا فى نصيحتك .

وخرج أبو سفيان وهو يقول :
— مالنا ولأبى فضيل إنما هى بنو عبد مناف .
ف قيل له :

— إنه قد ولى ابنك .
فقال أبو سفيان فى رضا :
— وصلته رحم .

وماتت ثورة أبى سفيان .

أُدرِجَ ﷺ فى أكفانه ، ووُضِعَ على سريرته ، وفُتِحَت الأبواب للمسلمين
ليدخلوا من ناحية المسجد ، ليلقوا على نبيهم الحبيب نظرة الوداع الأخيرة ،
فدخلوا أفواجا أفواجا وقد غَشِيَ وجوههم الإظلام ، وارتسم عليها الأسى
العميق ، وساد المكان صمت رهيب ، وأتم أبو بكر صلاته ثم قال فى صوته
الخفيض :

— اللهم إنا نشهد أنه ﷺ قد بلغ ما أنزل إليه ونصح لأمة وجاهد فى سبيل
الله حتى أعز الله دينه وتمت كلمته .

— آمين .

— فاجعلنا إلهنا ممن تبع القول الذى أنزل معه .

— آمين .

— واجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به فإنه كان بالمؤمنين رءوفاً رحيمًا .
— آمين .

— لا نبتغي بالإيمان به بدلاً ، ولا نشترى به ثمنًا أبدًا .
— آمين .

ودلوه في حفرة بين النشيج والنحيب ، وأخذ شقران مولاه قطيفة كان رسول الله يلبسها ويفترشها فقفها إلى القبر وقال :
— والله لا يلبسها أحد بعدك أبدًا .

وقبر الرسول ، فعاد الناس إلى دورهم مطألمى الرعوس ، فقد نزل بهم هم ثقيل . ودخل على كرم الله وجهه على فاطمة فتالت له :
— يا على ، أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟!
فجرى دمه غزيراً حتى بل لحيته .

٨

ودت عائشة أن تعلم السر الذي أفضى به النبي إلى فاطمة قبل موته ، فاقتربت من الزهراء وقالت :

— أسألك لما لي عليك من الحق لما أخبرتنى ما سارك ؟

— أما الآن فنعم ! سارني في أول الأمر قال لي إن جبريل كان يعارضني في القرآن كل سنة مرة وقد عارضني في هذا العام مرتين ولا أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى ، فاتقى الله واصبرى فنعم السلف أنا لك ، فبكيت ثم سارني فقال : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ؟

وجاء رجال إلى بيت على فأخذوه وأتوا به إلى أبي بكر وهو يقول :

— أنا عبد الله أخو رسول الله .

— بايع أبا بكر .

— أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايكم وأنتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقراية من النبي ﷺ وتأخذوه منا أهل البيت غصبا . أستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة ، فإذا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون .

فقال له عمر :

— إنك لست متروكاً حتى تبائع .

— احلب حلباً لك شطره وشد له اليوم يردده عليك غدا .

فقال أبو عبيدة بن الجراح :

— يا ابن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالاً واستطلاعاً ، فسلم لأبي بكر هذا الأمر فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليف وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

— الله الله يا معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم وتدفعون أهله عن مقامه في الناس وحقه ؛ فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت ونحن أنحق بهذا الأمر منكم . فاعتذر إليه أبو بكر بخوف الفتنة لو أخر ، ثم أشرف على الناس وقال :

— أيها الناس هذا علي بن أبي طالب لا بيعة لي في عنقه وهو بالخيار من أمره ، وأنتم بالخيار جميعاً في بيعتكم ، فإن رأيتم لها غيري فأنا أول من يبايعه .

فلما سمع ذلك علي النبيل زال ما كان قد داخله ، وصفت نفسه فقال :

— أجل لا نرى غيرك ، امدد يدك .

بايعه هو والنفر الذين كانوا معه .

وصلى أبو بكر وعلى العصر ثم خرجا من المسجد ، فوجدا الحسن بن علي يلعب مع الغلمان ، فاحتمله أبو بكر على كاهله وهو يقول :
— هذا بأبي شبه النبي ! ليس شبيهاً بعلى .
فضحك على فقد كان مما يغبطه أن يكون أحسن شبيهاً بجده العظيم .

أراد أزواج النبي أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر ليسأله ميراثهن فقالت عائشة :
— أليس قد قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » .
وأنت فاطمة والعباس وأبا بكر يلتزمان ميراثهما من رسول الله ﷺ ، كانا يطلبان أرضه من فذك وسهمه من خير ، فقالت فاطمة :
— أنت ورثت رسول الله أم أهله ؟
— لا ، بل أهله .
— من يرثك إذا ميت ؟
— ولدى وأهلى .
— فما لنا لا نرث رسول الله ﷺ .

— سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن النبي لا يورث » ، ولكنى أعول من كان رسول الله يعول وأنفق على من كان رسول الله ينفق .
وسأله فاطمة أن ينتظر على تلك الأرض وذلك السهم فقال أبو بكر :
— لست بالذى أقسم من ذلك شيئاً ، ولست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به فيها إلا عملته ، وإني أخشى إن تركت أمره أو شيئاً من أمره أن أزيغ .
فغضبت فاطمة ، وساء أبا بكر وعمر غضبها فقال عمر لأبي بكر :
— انطلق بنا إلى فاطمة فإننا قد أغضبناها .

فانطلقا جميعاً ، فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا علياً فكلماه ، فأدخلهما عليها ، فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط ، فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال :

— يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي ، وإنك أحب إلي من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك أني أمت ولا أبقى بعده ، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ ألا إني سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول : « لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » .
— أرأيتهما أن حدثكما حديثًا عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به ؟

— نعم .

— نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاى وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد أحببني ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟
— نعم سمعناه من رسول الله ﷺ .

— فأني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتاني وما أرضيتاني ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه .
فقال أبو بكر :

— أنا عائد بالله تعالى من سنخه وسخطك يا فاطمة .
ثم انتحب يبكي وخرج باكيا فاجتمع إليه الناس فقال لهم :
— بيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورًا بأهله وتركتموني وما أنا فيه ، لا حاجة لي في بيعتكم ، أقبلوني بيعتكم .
— يا خليفة رسول الله إن هذا الأمر لا يستقيم وأنت أعلمنا بذلك ، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين .

— والله لو لا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة ما بت ليلة ولي في عنق مسلم بيعة بغد ما سمعت ورأيت من فاطمة .
ووقعت الجفوة بين فاطمة وأبي بكر ، فقر على في داره إكراما لفاطمة ، وجانب من خاصمتهم من أجله .

(أهل البيت)

ومرّضت فاطمة وراح أبنائها يرقبونها وهي تذوي بقلوب هصرها الألم ،
وأحس على حسرة ! فقد حزر أن زوجه الحبيبة لاحقة بأبيها الكريم ، إن أحبائه
يمضون خلفيه للشائتين والحاسدين . وعلم أبو بكر بمرض حبيبة الرسول فأتاها أبو
بكر فما يجب أن تموت فاطمة وهي ساخطة عليه ، واستأذن أبو بكر فدخل على
على زوجه فقال :

— هذا أبو بكر يستأذن عليك .

فقال في صوت خفيض :

— أتحب أن آذن له ؟

فقال على :

— نعم .

فأذنت له ، فدخل عليها يترضاها فقال :

— يا حبيبة رسول الله ، والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء
مرضاة الله ، ومرضاة رسوله ، ومرضاتكم أهل البيت .

وظفق يترضاها حتى رضيت ، فانصرف أبو بكر برضاها مسرورا :

ومضت الزهراء لتلحق بأبيها الكريم هاجرة دنيا الغرور ، وغسلها على عليه
السلام وأسماء بنت عميس زوجة الصديق ، ودلى عليها العباس ثم حملت في
سكون الليل إلى البقيع ، وشعر على بنار الحزن تلسع قلبه فلم يقدر على أن يكبت
ما به ، فوقف يناجي رسول الله ويرثي زهراء :

— السلام عليك يا رسول الله ، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك ، والسريعة
للحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ، إلا أن لي
في التأسي بعظيم فرقك وفادح مصيبتك موضع تعز ، ولقد وسدتك في ملحودة
قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك . إنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد
استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ، أما حزنى فسرمد ، وأماليلى فمسهد ، إلى
أن يختار الله لي دارك التى أنت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على

هضمها ، فأحفظها السؤال واستخيرها الحال ، هذا ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سثم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن لما وعد الله الصابرين .

٩

أشرف الصديق على الموت ، وتذكر ما جرى في سقيفة بني ساعدة غب موت الرسول ، لقد كادت الفتنة تطل بخطمها لولا أن جمع الله كلمة المسلمين ، وتذكر جيوش العرب التي تواجه فارس والروم ، فأشفق على المسلمين الفرقة والاختلاف ، فعزم على أن يستخلف قبل أن يموت ليُجنب المسلمين الاختلاف . ودعا الصديق عبد الرحمن بن عوف فسأله عن عمر ، فقال :

— هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه من غلظة .
— ذلك لأنه يراني رفيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه ، ويا أبا محمد قد رمقته فرأيت أنه إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه ، وإذا انت له أراني الشدة عليه .

وخرج عبد الرحمن ودخل عثمان فسأله خليفة رسول الله عن عمر فقال :
— اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله .
وجعل أبو بكر يشاور أصحابه ، وبلغ أمر تلك المشاورة المهاجرين والأنصار فدخلوا على الصديق وقالوا :

— نراك استخلفت علينا عمر وقد عرفته وعلمت بوائقه فينا وأنت بين أظهرنا ، فكيف إذا وليت عنا وأنت لاق الله عز وجل فسألك فما أنت قائل ؟
وبأن الغضب في وجه أبي بكر وصاح بأهله :
— أجلسوني .

فلما أجلسوه التفت إلى طلحة بن عبيد الله الذي قال تلك المقالة التي أغضبه

وقال :

— أبا الله تخوفونني ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم ؟ أقول : اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك .

وخرجوا من عنده ، فخشي الصديق ألا يكون قد جمع كلمة المسلمين على الرضا بخلافة عمر له ، ف قضى ليله مؤرقا ، فلما أصبح الصباح دخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال الصديق :

— إني وليت أمركم خيركم في نفسي فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه .

— خفف عليك رحمك الله ، فإن هذا يهضك . إنما الناس في أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك ، وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيرا ، ولم تزل صالحا مصلحا .
ورأى أبو بكر أن يخاطب المسلمين ، فأمر أن يجتمع له الناس ، فاجتمعوا ، فأشرف من حجرة بداره على المجتمعين بالمسجد فقال :

— أيها الناس ، قد حضرنى من قضاء الله ما ترون ، وإنه لا بد لكم من رجل يلي أمركم ويصلي بكم ويقا تل عدوكم ويقسم فيكم ، فإن شئتم اجتمعتم فأئتمتم ثم وليتم عليكم من أردتم ، وإن شئتم اجتهدت لكم رأيي ، والله الذي لا إله إلا هو لا ألوكم في نفسي خيرا .

فبكى فلم يتمكن الناس من أن يجبسوا دموعهم فسالت عبراتهم وقالوا :

— يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا ، فاختر لنا .

— سأجتهد لكم رأيي وأختار لكم خيركم إن شاء الله .

ودعا عثمان بن عفان فقال :

— اكتب عهدي .

فكتب عثمان وأملى أبو بكر .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده في

الدنيا نازحا عنها . وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن تروه عدل فيكم فذلك ظني به ورجائي فيه ، وإن بدل وغير فالخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

ثم أرسل إلى عمر فقال :

— يا عمر ، أحبك محب وأبغضك مبغض ، وقد بما يحب الشر ويبغض الخير .

وذكر له أنه استخلفه فقال عمر :

— لا حاجة لي بها .

— لكن بها إليك حاجة ، والله ما حبوتك بها ولكن حبوتها بك ... نخذ هذا

الكتاب واخرج به إلى الناس وأخبرهم عن عهدي وسلهم عن سمعهم وطاعتهم .

فخرج عمر بالكتاب مختوما وأعلمهم أنه عهد خليفة رسول الله فقالوا :

— سمعاً وطاعة .

وصاح صائح في المسجد :

— ما في الكتاب يا أبا حفص ؟

— لا أدري ولكني أول من سمع وأطاع .

فصاح الصائح :

— ولكني والله أدري ما فيه : أمرته عام أول وأمرك العام .

ففض عمر الكتاب ولم يلتفت إلى من صاح ، وأخذ يقرأ على الناس عهد خليفة

رسول الله .

* * *

والتفت الصديق إلى عائشة وقال :

— في كم كفن رسول الله ﷺ .

— في ثلاثة أثواب .

— اغسلوا ثوبي هذين وابتاعوا لي ثوباً آخر .

— يا أبة إنا موسرون .

— أى بنية ، الحى أحق بالجديد من الميت ، إنما هى للمهلة والصديد . وأخذ يعالج سكرات الموت ، وفتح عينيه وقال :
— يا عائشة ، ادفنوني بجوار رسول الله .
وراح يجود بأنفاسه وغمغم :

— رنى ، توفنى مسلماً والحقنى بالصالحين .
ومات أبو بكر فارتجت المدينة لوفاته ، وأقبل على العظيم ووقف على بابه يرثيه دون أن يوغر صدره أن خليفة رسول الله الذى يركبه كان السبب فى انفلات الأمر من يده مرتين ، قال على النبيل :

— رحمك الله يا أبا بكر ، كنت والله أوفى التوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً ، وأشدّهم يقيناً وأعظمهم عناء ، وأحفظهم على رسول الله وأحدثهم على الإسلام وأحنّاهم على أهله ، وأشبههم برسول الله خلقاً وخلُقاً ، وهدياً وسمتاً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيراً . صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وأسماك الله فى كتابه صديقاً ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ ؛ تريد محمداً ويريدك .
وكنت والله للإسلام حصناً ، وعلى الكافرين عذاباً ، لم تقلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن . كنت كالجبل الذى لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كما قال رسول الله : ضعيفا فى بدنك ، قويا فى الله ، متواضعا فى نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا فى الأرض ، كبيرا عند المؤمنين . ولم يكن لأحد عندك مطمع ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنّا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك .

* * *

أخذ عمر وبعض أصحابه يتذاكرون الشعر ، فقال بعضهم فلان أشعر ، وقال بعضهم بل فلان أشعر ، وأقبل عبد الله بن عباس ، فقال عمر :
— قد جاءكم أعلم الناس بها .

والتفت إلى ابن عباس وقال :

— من شاعر الشعراء يا ابن عباس ؟

— زهير بن أبي سلمى :

— هلم من شعره ما نستدل به على ما ذكرت .

— امتدح قوما من بنى عبد الله بن غطفان فقال :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم	قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم	طابوا وطاب من الأولاد من ولدوا
إنس إذا أمنوا ، جن إذا فزعوا	مرزعون بهاليل إذا حشدوا
محسدون على ما كان من نعم	لا ينزع الله منهم ماله حسدوا

فقال عمر :

— أحسن ، وما أعلم أحدا أولى بهذا الشعر من هذا الحى من بنى هاشم لفضل رسول الله ﷺ وقرابتهم منه .

— وفقت يا أمير المؤمنين ولم تنزل موقفا .

— يا ابن عباس ، أتدرى ما منع قومكم منهم بعد محمد ؟

فكره ابن عباس أن يجيبه ، فقال :

— إن لم أكن أدري فأمر المؤمنين يدري .

— كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحا بجحا ،

فاختارت قريش لأنفسها فأصابته ووفقت .

— إن تأذن لى فى الكلام وتمط عنى الغضب تكلمت .

— تكلم يا ابن عباس .

— أما قولك يا أمير المؤمنين اختارت قريش لأنفسها فأصابته ووفقت ، فلو

أن قريشا اختارت لأنفسها حيث اختار الله عز وجل لكان لها الصواب بيدها غير

مردود ولا محسود ، وأما قولك إنهم كرهوا أن تكون لنا النبوة والخلافة فإن الله عز

وجل وصف قوما بالكراهية فقال ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُحْبِطَ

(أهل البيت)

أعمالهم ﴿ ٥٦ 〉 .

— هيهات والله يا بن عباس ، قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أفرك عنها فتزيل منزلتك مني .

— وما هي يا أمير المؤمنين ؟ فإن كانت حقاً ، فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك ؛ وإن كانت باطلاً ، فمثلي أმაظ الباطل عن نفسه .

— بلغني أنك تقول إنما صرفوها عنا حسداً وظلماً .

— أما قولك يا أمير المؤمنين ظلماً فقد تبين للجاهل والحليم ، وأما قولك حسداً ، فإن إبليس حسد آدم ، فنحن ولده المحسودون .

— هيهات ، أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلا حسداً ما يحول ، وضعفنا وغشنا ما يزول .

— مهلاً يا أمير المؤمنين ، لا تُصيب قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً بالحسد والغش ، فإن قلب رسول الله ﷺ من قلوب بني هاشم .

— إليك عنى يا بن عباس .

— أفعل .

فلما ذهب ابن عباس ليقوم واستحيا عمر منه فقال :

— يا بن عباس ، مكانك فوالله إني لراع لحقك بحب لِمَا سرك .

— يا أمير المؤمنين إن لي عليك حقاً وعلى كل مسلم ، فمن حفظه فحظه أصاب ومن أضاعه فحظه أخطأ .

بعث أمير المؤمنين عمر إلى عائشة يطلب تزويجه من أم كلثوم بنت الصديق ،
فطلبت من السفير أن يمهّلها حتى تستطلع رأى الصغيرة ، ودخلت أم كلثوم على
عائشة فأجلستها بجوارها وقالت :

— أرسل أمير المؤمنين فيك إلّى ، فما ترين ؟

فأطرقت أم كلثوم وقد توردت وجنتاها وعقد لسانها ولم يظهر في وجهها
الارتياح فقالت لها عائشة :

— الأمر إليك .

وذهب روع أم كلثوم وانطلقت عقدة لسانها فقالت في حياء :

— لا حاجة لى فيه .

— ترغبن عن أمير المؤمنين ؟!

— إنه خشن العيش ، شديد على النساء .

وراحت عائشة تفكر فيما تفعل ، وكيف تبلغ هذا الرفض إلى أمير المؤمنين
الذى يجلهم بعد موت الصديق ، وجعلت تستعرض الدهاة في مخيلتها لتختار من
بينهم أكيسهم ليقوم بهذه السفارة البغيضة دون أن يجرّجها ودون أن يجرّج كبرياء
أمير المؤمنين ، فلم تجد إلا عمرو بن العاص كفثا لها ، فبعثت إليه . وجاء عمرو
فقالت له أم المؤمنين :

— خطب أمير المؤمنين أم كلثوم ولكنها ترغب عنه .

وسكتت عائشة ، وفهم عمرو ما ترمى إليه فقال لها :

— أكفيك .

وخرج إلى أمير المؤمنين ، وطفق يفكر في الطريق ، ولم يطل تفكيره فقد وجد

المخرج ، فجد في السير حتى إذا ما جاء عمر قال له :

— يا أمير المؤمنين ، بلغني خبر أعيذك بالله منه .

— وما هو ؟

— خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر ؟

— نعم . أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني ؟

— لا واحدة ، ولكنها حدثت نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق وفيك

غلظة ، ونحن نهابك ولا نقدر نرد عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك

في شيء فسطوت بها ، كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك .

— فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟

— أنا لك بها ، وأذلك على خير منها .

— فمن ؟

— أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ، تعلق منها بنسب رسول الله ﷺ .

وانصرف عمرو وترك عمر لفكره ، إنه تمنى في يوم من الأيام أن يتزوج من

فاطمة الزهراء ليكون له عقبه من رسول الله ﷺ ، ولكن رسول الله رده في رقة

لأنه كان قد ادخرها لعلي ، وها هي الفرصة تلوح له ليرتبط بابنة الزهراء فيعلق منها

بنسب من رسول الله ﷺ ، وأقبل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقال له :

— ذكرت إليك أم كلثوم يا أبا الحسن .

وصمت علي ولم يجر جوابا ، فأعاد عمر سؤاله فقال علي :

— يا أمير المؤمنين ، إنها صبية .

فقال عمر في عتاب :

— إنك والله ما بك ذلك ، ولكن قد علمنا ما بك .

فلم يجد علي بدا من أن يصارحه بما عزم عليه .

— إنما حبست بناتي على بني جعفر .

وخشى عمر أن ينهار حلمه اللذيذ فقال :

— أنكحنيها يا عليّ ، فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما أرصد .

ورأى عليّ إلخاف أمير المؤمنين فغلبه خجله ، فما كان أمامه إلا أن يوافق على ما طلبه عمر ، وامتلاّت نفس عمر نشوة ، وبان البشر في وجهه ، وأحس خفة فأغذّ في السير ليدخل المسجد يزف البشرى إلى أصحابه .

والتفت عمر إلى من جلس إليه من الناس وقال في سرور :

— رفثوني ، رفثوني .

— بمن يا أمير المؤمنين ؟

— بابنة عليّ بن أبي طالب .

وأقبلوا عليه يهتفونه ، وكأنما شاء أن يعبرّ لهم عن دواعي سروره بهذا الرباط الجديد فقال :

— إن النبي ﷺ قال : كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي .
وهزع عمر إلى بيته ينتظر وفود أم كلثوم بنت عليّ ، فقد اتفق مع أبيها على أن يبعث بها إليه ليراها ، واستأذنت بنت عليّ في الدخول على أمير المؤمنين فأذن لها فدخلت وهي تحمل بُردًا مطويا وما إن بلغت عمر حتى قالت ما لقّنها أبوها :
— أرسلني أني يقرئك السلام ، ويقول : إن رضيت البُرد فأمسكه ، وإن سخطته فرده .

فنظر عمر إليها وقال :

— بارك الله فيك وفي أبيك ، قد رضينا .

ولم يمد عمر يده إلى البُرد ، ولكنه كان يمد بصره إلى الصبية الواقفة أمامه وقد بان الدهول في وجهها ، فما كانت تفهم ما يجري أمامها ، ولم تجد إلا الانصراف فقفلت عائدة إلى الدار ، فسأها أبوها عما فعلت ، فقالت في إنكار :

— ما نشر البُرد يا أبت ولا نظر إلا إليّ :

أرسل عمر إلى ابن عباس فقال له :
— يا بن عباس ، إن عامل حمص هلك ، وكان من أهل الخير ، وأهل الخير قليل ، وقد رجوت أن تكون منهم ، وفي نفسى منك شيء لم أره منك ، وأعيانى ذلك ، فما رأيك فى العمل ؟
— لن أعمل حتى تخبرنى بالذى فى نفسك .
— وما تريد إلى ذلك ؟
— أريده ، فإن كان شيء أخاف منه على نفسى خشيت منه عليها الذى خشيت ، وإن كنت بريئا من مثله علمت أنى لست من أهله ، فقبلت عملك هنالك ، فإنى قلما رأيت أو ظننت شيئا إلا عاينته .
— يا بن عباس ، إنى خشيت أن يأتى على الذى هزأت وأنت فى عملك فتقول : هلم إلينا ، ولا هلم إليكم دون غيركم ، إنى رأيت رسول الله ﷺ يستعمل الناس وترككم ، والله لقد رأيت من ذلك ، فلم تراه فعل ذلك ؟ والله ما أدرى أضن بكم من العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تباعوا بمنزلتكم منه العقاب ، ولا بد من عتاب فقد قرعت لك ؛ فما رأيك ؟
— أرى لا أعمل لك .
— ولم ؟
— إن عملت لك وفى نفسك ما فيها لم أبرح قذى فى عينك .
— فأشر على .
— إبنى أرى أن تستعمل صحيحا منك صحيحا لك .

قوض عمر ملك فارس ، وطفق قواده يجدون فى أثر ملكهم يزدجرد ، فكان كلما نزل بمدينة حاصروها وفتحوها فلا يسعه إلا أن يفر وقد حمل أهل بيته ونفائسه : واستمرت المطاردة العنيفة ، واستمرت المدن تسقط فى أيدي العرب مدينة إثر مدينة ، فضاقت الأرض فى وجه يزدجرد ، وحدث أن دهم الغزاة إحدى

مدنه ولم يأخذ أهفته للفرار ، فكاد أن يقع في الأسر ، فلما وجد الفاتحين قاب قوسين منه أو أدنى ، فر ناجيا بجلده ، هائما على وجهه مخلفا وراءه أعز ما في ملكه ، فلذات أكبادہ الثلاث فوقعن في أيدي العرب سبايا ، وحُملن إلى القائد فيما حُمل إليه من نفائس وغنائم وسبي ، فأخرجن في الخمس الذي بعث به إلى المدينة ليتصرف فيه أمير المؤمنين .

ووردت نفائس كسرى مدينة الرسول ، فقسمت في الناس ، وأمر عمر ببيع السبايا ، وانتظرت بنات يزدجرد ما يُصيبهن وقد ارتسم الألم في وجوههن ، وبان الأسى في عيونهن وخيمت على وجوههن الوضاعة سحائب من الحزن فقد جار الزمن عليهن صغيرات ، وعبس لهن وعبت بهن وما دار بخلدن قط أن يعبس أو يعبت ، فما كن يحسبن الدنيا إلا باسمه مشرقة ، مقبلة غير مدبرة ، فإذا بها عنهن كاشحة معرضة ، ولسلطانن طاوية ، ولحریتن سالبة ، لقد ضاع كل شيء ، ولم يبق لهن إلا شبابهن ونضارتهن ، وتلفتن حولهن بعيون زائغة ملأتها العبرات ، فأين ما هن فيه مما كن فيه ، ذل بعد عز ، وخوف بعد أمن ، وانخفاض بعد رفعة ، وفقر بعد غنى ، ورق بعد سيادة وسلطان .

ونظرت كل إلى أختها وقد سالت الدموع وتأملت النفوس ، فإنهن الآن مجتمعات ، وعما قريب مفترقات ، لا يعلمن إلى أين يُحملن ، ولا إلى من يُدفع بهن ، إلى كريم يرحمهن ويواسي الجراح ، أم إلى لئيم لا يقبل عثرتهن ويسقيهن دواما كأس الهوان ؟

ولم يشأ الزمن أن يستمر في قسوته ، بل شاء أن يجير هذه القلوب التي تصدعت فما نظر ابن أبى طالب إليهن حتى رَقَّ لهن قلبه ، وتحركت عوامل الشفقة في نفسه الكبيرة ، وترقب ما يرى فيهن عمر ، فأمر عمر ببيعهن فالتفت إليه وقال :
— إن بنات الملوك يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوق .

فصوب عمر بصره إليه وقال :

— وكيف الطريق إلى العمل معهن ؟

— يقومون ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن .
فوافق أمير المؤمنين ، وقوم فدفع على قيمتهن ، وأخذ يفكر في أكفاءهن .
فرأى أن يدفع بهن إلى أحب الناس إليه ، فدفع واحدة إلى عبد الله بن عمر ، وأخرى
لولده الحسين ، وأخرى لربييه محمد بن أبي بكر الصديق ، فأولد عبد الله أمته ولده
سالما ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، وأخذت عجلة
الزمن في الدوران ليشب سالم وزين العابدين والقاسم أتقى أهل زمانهم .

* * *

خرج البريد من عند عمر لينطلق إلى ملك الروم ، فبعثت زوجته أم كلثوم بنت
علي إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى
البريد ، وقدم البريد الهدية إلى امرأة هرقل فجمعت نساءها وقالت :
— هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبهم .

ثم أهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر ، وانتهى البريد إلى عمر وقدم إليه العقد
فأمر بإمساكه ودعا : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فصلى بهم ركعتين وقال :
— إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى في أموري .. قولوا في هدية أهدتها أم
كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم .
— هو لها بالذي لها ، وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ، ولا تحت يدك
فتتقيك .

وقال آخرون :

— لقد كنا نهدى الثياب لنسثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب ثمنها .
فلم يعجب ذلك عمر فقال :

— ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم .
وأمر برد الهدية إلى بيت المال ، ورد على أم كلثوم بقدر نفقتها .

عمر بن الخطّاب يطوف في السوق ، فلقبه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، فقال :

— يا أمير المؤمنين ، أعدني على المغيرة بن شعبة فإن على خراجا كثيرا .

— وكم خراجك ؟

— درهمان في كل يوم .

— وإيش صناعتك ؟

— نجار نقاش حداد .

— فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، بلغني أنك تقول لو أردت أن أعمل رحي تطحن بالريح فعلت .

— نعم .

— فاعمل لي رحي .

— لئن سلمت لأعملن لك رحي يتحدث بها من بالشرق والمغرب .

وانصرف أبو لؤلؤة .

فقال عمر : لقد توعدني العبد آثما .

وراح عمر يصرف أمور المسلمين ، ومرت أيام نسي عمر بعدها حديث أبي لؤلؤة ، وارتفع صوت المؤذن يدعو الناس لصلاة الصبح ، فخرج عمر من داره وانطلق إلى المسجد لا يلوى على شيء ، وتقدم الصفوف ، فعرض له أبو لؤلؤة فطعنه ثلاث طعنات ، فصاح عمر :

— دونكم الكلب ، فإنه قد قتلني .

وماج الناس وخرج رجال وصاح بعضهم ببعض دونكم الكلب ، فشد عليه

رجل من خلفه فاحتضنه ، وقال قائل :

— الصلاة عباد الله ، طلعت الشمس .

فقال عمر :

— أفي الناس عبد الرحمن بن عوف ؟

— نعم يا أمير المؤمنين هوذا .

— تقدم .

فصلى عبد الرحمن بأقصر سورتين في القرآن ثم هرع الناس إلى عمر فقال :

— يا بن عباس ، اخرج فناد في الناس أعن ملأ ورضى منهم كان هذا ؟

فخرج فنادى فقالوا :

— معاذ الله ، ما علمنا وما اطلعنا .

واحتمل عمر فأدخل إلى داره ، ودخل الناس عليه يذكرون فضله فقال :

— إن من غررتموه لمغروء ، إني والله وددت أن أخرج منها كفافاً ، كما دخلت

فيها ، والله لو كان لي اليوم ما طلعت عليه الشمس لاقتديت به من هول المطلع .

— يا أمير المؤمنين ، لا بأس عليك .

— إن يكن القتل بأساً فقد قتلتني أبو لؤلؤة .

— فإن يكن ذلك فجزاك الله عنا خيراً .

— لا أراكم تغبطوني بها ، فوالذي نفس عمر بيده ما أدرى على ما أهجم ،

ولوددت أني نجوت منها كفافاً ، لا لي ولا على ، فيكون خيرها بشرها ويسلم لي

ما كان قبلها من الخير .

ودخل علي بن أبي طالب فقال عمر :

— يا علي ، أعن ملأ منكم ورضى كان هذا ؟

— ما كان من ملأ منا ولا رضى ، ولوددنا أن الله زاد من أعمارنا في عمرك .

وكان رأسه في حجر ابنه عبد الله فقال له :

— ضع خدي بالأرض .

فلم يفعل ، فلحظه وقال :
— ضع خدي بالأرض لا أم لك .
فوضع خده بالأرض فقال :
— الويل لعمر ولأم عمر إن لم يغفر الله لعمر .
ودخل المهاجرون على عمر فقالوا :
— استخلف علينا .
— والله لا أحملكم حيا وميتا ، إن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني ،
وإن أدع فقد ترك من هو خير مني .
— جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين .
— ما شاء الله راغبا ، وددت أن أنجو منها لآلى ولا على .
وأحس بالموت فقال لابنه :
— اذهب إلى عائشة وأقرئها مني السلام ، واستأذنها أن أقبر في بيتها مع رسول
الله ومع أبي بكر .
فأتاها عبد الله بن عمر فأعلمها فقالت :
— نعم وكرامة . يا بني أبلغ عمر سلامي وقل له لا تدع أمة محمد بلا راع .
استخلف فيهم ولا تدعهم بعدك هملا فإني أخشى عليهم الفتنة .
فأتى عبد الله فأعلمه فقال :
— ومن تأمرني أن أستخلف ، لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح باقيا استخلفته
ووليته ، فإذا قدمت على ربي فسألني وقال لي : من وليت على أمة محمد ؟ قلت :
أى رب ، سمعت عبدك ونبيك يقول : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة
ابن الجراح ، ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته فإذا قدمت على ربي فسألني من
وليت على أمة محمد ؟ قلت : أى رب ، سمعت عبدك ونبيك يقول : إن معاذ بن
جبل يأتي بين يدي العلماء يوم القيامة ، ولو أدركت خالد بن الوليد وليته فإذا
قدمت على ربي فسألني من وليت على أمة محمد ؟ قلت : أى رب ، سمعت عبدك
(أهل البيت)

ونبيك يقول : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه على المشركين ، ولكنى سأستخلف النفس الذين توفى عنهم رسول الله وهو عنهم راض .

وبعث إلى عبد الرحمن بن عوف وقال له :

— ادع لي علياً وطلحة والزبير وسعدا .

جاء علي وعثمان وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ولم يأت طلحة فقد كان غائبا فقال عمر :

— يا معشر المهاجرين الأولين ، إني نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقا ولا نفاقا ، فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم ، تشاوروا ثلاثة أيام ، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك ، وإلا فأعزم عليكم بالله لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحداكم ، فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهل وليصل بكم صهييب هذه الثلاثة أيام التي تتشاورون فيها ، فإنه رجل من الموالي لا ينازعكم أمركم ، وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيء ، وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابة ، وأرجو لكم البركة في حضورهما ، وليس من أمركم شيء ، ويحضر ابني مستشارا وليس له من الأمر شيء .

وغشى عليه حتى ظنوا أنه قُضى ، فجعلوا ينادونه ولا يفيق ، ومرت مدة ثم فتح عينيه وقال :

— لقد قُومتُ لكم الطريق فلا تعرجوه .

ثم التفت إلى علي بن أبي طالب ، فقال :

— لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقل وقرابتك وشرفك من رسول الله وما أتاك من العلم والفقه والدين فيستخلفونك ، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله يا علي فيه ، ولا تحمل أحدا من بني هاشم على رقاب الناس .

ثم التفت إلى عثمان فقال :

— يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك وسابقتك فيستخلفونك ، فإن وليت هذا الأمر فلا تحملن أحدا من بني أمية على

رقاب الناس .

وجاء العباس ليرى ما استقر عليه رأى الخليفة الجريح ، فقابل علياً وقد بان في وجهه همٌ وضيق فقال له :

— فما العهد يا أبا الحسن ؟

— جعلها في جماعة زعم أنى أحدهم .

فأطرق العباس قليلاً ثم قال :

— يا بن أخى ، لا تدخل معهم وارفع نفسك عنهم .

فقال على فى رفق .

— إنى يا عم أكره الخلاف .

— إذن ترى ما تكره .

ومات عمر وقبر ، ففرغ الناس لأمر دنياهم ، ويم رهط الشورى نحو حجرة عائشة فقابل على عمه العباس فقال له :

— سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون ،

فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن ، فلو كان الآخراى معى لم ينفعانى ، بله إنى لا أرجو إلا إحداهما .

فقال له العباس :

— لم أدفعك فى شىء إلا رجعت إلى مستأخرا بما أكره ، أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن تسأله فىمن هذا الأمر فأبيت ، وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، احفظ عنى واحدة ، كلما عرضوا عليك القول فقل ، لا ، إلا أن يولوك .

واجتمعوا فتشاوروا ثلاثة أيام فلم يبرموا قتيلًا ، فلما كان فى اليوم الثالث قال

لهم عبد الرحمن بن عوف :

— أتدرون أى يوم هذا ؟! يوم عزم عليكم صاحبكم أن لا تتفرقوا فيه حتى

تستخلفوا أحدكم .

— أجل .

— فإني عارض عليكم أمراً .

— وما تعرض ؟

— أن تولوني أمركم وأهب لكم نصيبي فيها وأختار لكم من أنفسكم .

فقال عثمان :

— أنا أول من رضى ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أمين في الأرض

أمين في السماء » .

فقال الزبير وسعد :

— قد رضينا .

وظل على ساكننا لا ينبس وتذكر قول العباس له : كلما عرضوا عليك القول

قل لا إلا أن يولوك ، وهم أن يرفض ، لكن صوت عبد الرحمن رن في أذنه :

— ما تقول يا أبا الحسن ؟

فغلب عليه حياؤه فقال :

— أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ، ولا تأل

الأمّة .

فقال عبد الرحمن :

— أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير ، وأن ترضوا من

اخترت لكم على ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين .

فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله ، وانصرف الجميع وقد ترك الأمر بين يدي

عبد الرحمن بن عوف ، وأتى علياً على انفراد وقال له :

— إنك تقول إني أحق من حضر بالأمر لقربتك وسابقتك وحسن أثرك في

الدين ، ولم تبعد ؛ ولكن رأيت لو صُرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت

ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟

— عثمان .

وانصرف من عند عليّ وانطلق إلى عثمان وخلا به وقال له :
— تقول شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه ، لي سابقة
وفضل ولم تبعه . فلم يصرف هذا الأمر عني ؟ ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء
الرهط تراه أحق به ؟
— عليّ .

وقابل عليّ سعدًا وكان معه الحسين فقال لسعد :
— اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبًا ، أسألك
برحم ابني هذا من رسول الله ﷺ ، وبرحم عمي حمزة منك ألا تكون لعبد
الرحمن لعثمان ظهيرًا عليّ ، فأني أدلى بما لا يدلى به عثمان .
راح عبد الرحمن يدور على أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء
الأجناد وأشرف الناس ، يشاورهم ويسألهم عن ينتخبونه خليفة لهم ، وبلغ
الجهد من عبد الرحمن متناه ، إنه لم يذق كثير غمض ، فأرسل في طلب الزبير
وسعد ، فوافاه الزبير في المسجد ، فسأله للمرة الأخيرة ، فقال الزبير :
— نصيبى لعلّي .

وأقبل سعد في سكون الليل فقال له عبد الرحمن :
— أنا وأنت كلاله فاجعل نصيبك لي فأختار .
— إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعلى أحب إليّ . أيها الرجل
بايع نفسك وأرحنا وارفع رءوسنا .
— يا أبا إسحاق ، إني قد خلعت نفسي منها على أن أختار ، لا يقوم مقام أبى
بكر وعمر أحد فيرضى الناس .
— فأني أخاف أن يكون الضعف قد أدركك ، فامض لرأبك ، فقد عرفت
عهد عمر .

وأصبح الصباح وخرج الناس إلى المسجد زرافات ليروا ما قرّ عليه رأى
رهط الشورى . وصلى الناس الصبح ، ثم جمع عبد الرحمن الرهط وأرسل إلى أمراء

الأجناد . وتوافدت جموع الناس حتى التج المسجد بأهله ، ووقف عبد الرحمن فسكت الجمع وأعاروه سمعهم ، فقال :
— أيها الناس ، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم .

فصاح صائح :

— إنا نراك لها أهلا .

فقال عبد الرحمن :

— أشيروا عليّ بغير هذا .

فقال عمار بن ياسر :

— إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليًا .

فصاح المقداد بن الأسود :

— صدق عمار ، إن بايعت عليًا سمعنا وأطعنا .

فصاح عبد الله بن أبي سرح :

— إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان .

فصاح آخر مؤمنًا على هذا القول :

— إن بايعت عثمان قلنا : سمعنا وأطعنا .

فثار عمار وشم ابن أبي سرح وقال في سخرية :

— متى كنت تنصح المسلمين ؟!

وأخذ بنو هاشم يعددون مناقبهم ، وأخذ بنو أمية يذكرون فضلهم ، وصاح عمار :

— أيها الناس ، إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه ، وأعزنا بدينه ، فأني تصرفون هذا

الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟

فقال أحد أنصار بني أمية :

— لقد عدوت طورك يا بن سمية ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ؟

فاقترب سعد من عبد الرحمن وقال له :

— يا عبد الرحمن ، افرغ قبل أن يفتتن الناس .

فأشار عبد الرحمن للناس فلاذوا بالصمت فقال :

— إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا .

ودعا علياً فقال :

— عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من

بعده ؟

— أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي .

ودعا عثمان وقال له :

— عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من

بعده ؟

— نعم .

— إني أبايعك أميراً للمؤمنين .

فثار أنصار علي ، وأظهروا استيائهم من ذلك القرار ، وقال علي لعبد

الرحمن :

— حبّوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا ، فصبر جميل ، والله

المستعان على ما تصفون .

وانجفل الناس إلى عثمان وأخذوا يبايعونه ، وتقدم سعد وبايعه ، ثم تقدم الزبير ،

وتلكأ علي وخشى عبد الرحمن مغبة ذلك التلكؤ ، فأسرع إليه قبل أن تندلع نار

الفتنة وقرأ :

﴿ من نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه

أجراً عظيماً ﴾ .

فراح علي يشق الناس حتى بلغ عثمان الجالس على الدرجة الثانية من المنبر وهو

يقول :

— خدعة وأيما خدعة .

ثم تقدم منه وبايعه ، فاطمأنت القلوب ، فلن يشق أحد عصا المسلمين ، وبايع
الناس وانصرف عثمان وعلي وسعد وعبد الرحمن والزبير إلى بيت فاطمة ابنة قيس .
فقام المغيرة بن شعبة خطيباً فقال :

— يا أبا محمد ، الحمد لله الذي وفقك ، والله ما كان لها غير عثمان .

فقال عبد الرحمن :

— يا بن الدباغ ، ما أنت وذاك ، والله ما كنت أبائع أحداً إلا قلت فيه هذه

المقالة .

١٢

سمع عبيد الله بن عمر من عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان
وجفينة يدخلون في مكان يتشاورون وبينهم خنجر له رأسان ومقبضة في وسطه .
فلما مات عمر وقبض على أبي لؤلؤة ، ثارت نائرة عبيد الله ، فجرد سيفه وانطلق
إلى الهرمزان فقتله ، وإلى جفينة فقتله ، وإلى بنت صغيرة لأبي لؤلؤة فقتلها ، وجعل
يصيح :

— والله لأقتلن رجالاً ممن شرك في دم أبي .

وتفرق الناس عنه مفزوعين ، وبلغ الخبر سعد بن أبي وقاص فخرج إليه ،
وانقض عليه ونزع منه السيف ، ولكنه أخذ يقاوم ويثور ويتوعد ، فجذب سعد
شعره حتى أضجعه إلى الأرض ، ثم اقتاده إلى داره وحبسه فيها ، وانتظر حتى يفرغ
الناس من انتخاب خليفتهم .

وبويع لعثمان وجلس للناس ، فأخرج سعد عبيد الله وجاء به إليه . فالتفت
عثمان إلى من عنده وقال :

— أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق .

فقال على الذى يعلم أن النفس بالنفس :

— أرى أن تقتله فما من العدل تركه .

فقال بعض المهاجرين مستنكرين :

— أَيْقَتْلُ أبوه بالأمس وَيُقَتْلُ هو اليوم ؟

فقال عمرو بن العاص :

— يا أمير المؤمنين قد برأك الله من ذلك ، قضية لم تكن فى أيامك فدعها عنك .

فودى عثمان أولئك القتلى من ماله ، وخلق سبيل عبيد الله ، فلم يعجب ذلك علياً ، وأوغر صدر عبيد الله على علي ؛ فراح يتربص به الدوائر .

وساء ترك عبيد الله خلقاً كثيراً ، ففى يوم تقابل زياد بن لبيد وعبيد الله بن عمر ، فقال زياد :

ألا يا عبيد الله ما لك مهرب	ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دماً والله فى غير حله	حراماً وقتل الهرمزان له خطر
على غير شيء غير أن قال قائل	أتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه والحوادث جمة	نعم أتهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد فى جوف بيته	يقلبها والأمر بالأمر يعتبر
وكان زياد يقول له ذلك كلما رآه فشكاه إلى عثمان ، فاستدعى عثمان زياد إليها	
فقال زياد :	

أبا عمرو عبيد الله رهين	فلا تشكك بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجزم عنه	وأسباب الخطأ فرسا رهان
أتعفو إذ عفوت بغير حق	فمالك بالذى يخلى يدان

* * *

دخل عثمان داره ومعه بنو أمية مغتبطين ، وكان أكثرهم اغتباطاً شيخ الأمويين فقد أصبح الأمر فيهم ، ولم يستطع أبو سفيان أن يكتم غبطته ، فقال هامساً :
— أفيكم أحد من غيركم ؟

— لا .

— يا بني أمية ، تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثه .

فانتهره عثمان ، ولم يكتم الأمويون هذا الكلام بل خرج إلى المهاجرين والأنصار ، فغضب عمار ققام في المسجد فقال :

— يا معشر قريش ، أما إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ها هنا مرة وها هنا مرة ، فما أنا بآمن من أن ينزعه الله فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله .

وقام المقداد فقال :

— ما رأيت مثل ما أودى به أهل هذا البيت بعد نبيهم .

فقال له عبد الرحمن بن عوف :

— وما أنت وذاك يا مقداد بن عمرو ؟

— إني والله لأحبهم بحب رسول الله ﷺ ، وإن الحق معهم وفيهم ؛ يا عبد الرحمن أعجب من قريش وأنت تطولهم على الناس ، أهل هذا البيت قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله ﷺ بعده من أيديهم ، أم وأيم الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصاراً لقاتلتهم كقتالي إياهم مع رسول الله ﷺ يوم بدر .

* * *

دخل أبو سفيان على عثمان ، فتذكر أمير المؤمنين أن عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم معه بمال فقال له عمر : ما هذا يا عتبة ؟ قال : مال خرجت به معي واتجرت فيه ، فقال له عمر مغضباً : ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه ؟! فصيرته في بيت المال ، وشاء عثمان أن يصل أهله على عادته ، فقال لأبي سفيان :

— إن طلبت ما أخذ عمر من عتبة رددته عليه .

فقال شيخ الأمويين ناصحاً :

— إنك إن خالفت صاحبك قبلك ساء رأى الناس فيك . إياك أن ترد على من كان قبلك فيرد عليك من بعدك .

كانت نصيحة خالصة ، لو أن عثمان اتبعها لوفر على نفسه كثيرًا من المعتبة ، ولكن طبعه غلبه فقد كان رقيقًا ، به ضعف لبنى أمية فأعطى مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية ، والحرث بن العاص ثلثمائة ألف درهم ، وزيد بن ثابت مائة ألف درهم ، فتغيرت نفوس الناس وأخذوا يعيرون على عثمان .

وأسلم عبد الله بن سبأ ، وكان يهوديًا من أهل صنعاء ، وكانت أمه سوداء ، فكان يُطلق عليه ابن السوداء ، وراح ابن السوداء منذ اللحظة الأولى يذر بذور الشقاق بين المسلمين ، ويحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز وراح يوسوس في صدور الناس ، يحاول أن يغيرهم على أميرهم عثمان ، ولكنه لم يجد النفوس مهية لدعوته فورد البصرة ، ونفث فيها بعض سمومه ، ثم عرج على الكوفة وبث آراءه ، وهبط إلى الشام وقابل أبا ذر الغفاري ، وأوغر صدره على معاوية ، فهب أبو ذر ليناوته ، وبلغ معاوية أن ابن السوداء هو الذى غير عليه أبا ذر فأخرجه من الشام . وأقلق أبو ذر معاوية فكتب لأمر المؤمنين : « إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ، وقد ضيق على وأعضل بى ولا آمن أن يفسدهم عليك ، فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله » . فرد عليه عثمان : « إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ولم تبق إلا أن تثب ، فلا تنكأ الجرح وجهز أبا ذر إلّى وابعث به وكفكف الناس ونفسك ما استطعت فإنما تمسك ما استمسكت » .

وهبط ابن السوداء مصر ، وجعل يحدث الناس حديث دينهم فالتف الناس حوله ، وراح يحدث الناس :

— لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمدًا يرجع ، وقد قال الله عز وجل ﴿ إِنْ الذِّى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ؟ .

فنظر الناس إليه نظرة استفهام مشوبة بإعجاب ، فما كانوا يفقهون هذا قبل

الآن ، وما كانوا يدرون شيئاً عن الرجعة التي حدثهم عنها ابن سبأ ، ثم جعلوا يتكلمون فيها حتى قبلوا ذلك عنه فاطمأن إلى بذرة الشقاق الأولى التي بذرها بعناية ومهارة .

وتقابل ابن سبأ ومحمد بن أبي بكر في مصر ، وكان ابن السوداء يعلم هوى محمد وميله إلى أهل البيت ، فاشترك معه في الدعوة لعلّي وأخذ يقول :
— إنه كان أليف نبي ولكل نبي وصي ، وكان علّي وصي محمد ، ومحمد خاتم الأنبياء ، وعلّي خاتم الأوصياء .

وتعاون محمد بن أبي بكر وعبد الله بن سبأ على دق أول مسمار في نعش عثمان . وظل أبو ذر في ثورته فخشي عثمان أن يفتن الناس ، فدعا مروان وأمره أن يخرج به إلى الربذة ، ونهى الناس أن يصحبوه في مسيره أو يشيعوه ، وجاء علّي بن أبي طالب ومعه ابنه الحسن والحسين وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر ، وعمّار بن ياسر وعلموا أن عثمان أمر بإخراج أبي ذر من مدينة الرسول فأسرعوا خلفه حتى لحقوا به خارج المدينة ، وأقبل على ليحادثه ، فحاول مروان أن يمنعه وقال :
— يا علّي ، إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيره أو يشيعوه ، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلنتك .

فلم يلتفت علّي إليه وتقدم إلى أبي ذر ، فحاول مروان أن يحول بينهما فحمل علّي عليه بالسوط بين أذني راحلته وقال :
— تنح نحاك الله إلى النار .

فلوى مروان عنان راحلته ، وترك أبا ذر لهم وقفل عائداً إلى أمير المؤمنين ليشتكو له ما لقي من ابن أبي طالب .

ومضى علّي ورفقاؤه مع أبي ذر حتى بلغوا الربذة ، فنزلوا عن رواحلهم وجعلوا يتحدثون ؛ وحن وقت الوداع ، فنهض علّي ، وأحس أبو ذر غصة في حلقه وضم عليّاً إلى صدره فانهمر الدمع من عينيه وغمغم :

— رحمكم الله أهل البيت ، إذا رأيتك يا أبا الحسن وولديك ذكرت بكم رسول

الله ﷺ .

وشكا مروان إلى عثمان ما فعله عليّ بن أبي طالب ، فنهض عثمان وقال :
— يا معشر المسلمين من يعذرنى من عليّ ، رد رسولى عما وجهته له وضربه ،
والله لنعطينه حقه .

ورجع عليّ فاستقبله الناس وقالوا له :
— إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشيعك أبا ذر .
— غضب الخيل على اللجم .

وفى الليل دخل على عليّ عثمان ، فقال عثمان :
— ما حملك على ما صنعت بمروان ؟ واجترأت عليّ ورددت رسولى وأمرى ؟
— أما مروان ، فإنه استقبلنى يردنى ، فرددته على ردى ، وأما أمرك فلم أردّه .
— أو لم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبى ذر وتشيعه ؟
— أو كل ما أمرتنا به من شىء يرى طاعة الله والحق فى خلافه اتبعنا فيه أمرك ؟
بالله لا نفعل .

— أقد مروان .

— وما أقيده ؟

— ضربت بين أذنى راحلته .

— أما راحلتى فهى تلك ، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل ، وأما
أنا فوالله لئن شتمنى لأشتمك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقاً .
— ولم لا يشتمك إذا شتمته ، فوالله ما أنت عندى بأفضل منه .
— إلتى تقول هذا القول وبمروان تعدلنى ؟ فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل
من أبيك ، وأمى أفضل من أمك .

فغضب عثمان وانصرف عليّ ، ثم دخل الناس بينهما وعادت الحال إلى ما كانت
عليه قبل نفى أبى ذر ، وقال عليّ لعثمان :
— والله ما أردت تشيع أبى ذر إلا فى الله .

وعزل عثمان عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، واستعمل عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فغضب عمرو غضباً شديداً ، وحقد على عثمان وفارق أخته التي كانت عنده ، وانطلق إلى المدينة وقد عزم على أن يأتي علياً والزبير وطلحة فيؤلبهم عليه ، وأنه يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان ، بل لقد كان حقه عليه هائلاً حتى إنه راح يحرص عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل .

وكان محمد بن أبي حذيفة يتيماً في حجر عثمان ، وشب في كنفه ، فلما بويع عثمان أميراً للمؤمنين طمع محمد بن أبي حذيفة في أن يولي عملاً ، ولكن عثمان لم يستعمله فقد كان حدثاً ، فساء ذلك محمداً ، وانتظر ولم يتغير ، ثم تقدم إلى عثمان يسأله العمل ، فقال له عثمان :

— يا بني لو كنت رضى ثم سألتني العمل لاستعملتك ، ولكن لست هناك .
فأطرق محمد بن أبي حذيفة وقد بان الكمد في وجهه ، وساءه ألا يستعمله عثمان فقال في صوت فيه أسى :
— فأذن لي فلاخرج فلاطلب ما يقوتني .
— اذهب حيث شئت .

وجهزه عثمان وحمله وأعطاه ما يكفيه فانطلق إلى مصر .
وأخذت أخبار الأمصار تفد إلى المدينة همساً ، فالناس قد ضجوا من أمرائهم ، وبلغ ذلك الهمس علياً وسعداً وطلحة والزبير فاجتمعوا وجمعوا رأيهم على مفاتحة عثمان في ذلك ، فدخلوا عليه فقالوا :
— يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟
— لا والله .

— فإننا قد أتاننا أن الناس في الأمصار مستاعون من عمالهم ومتذمرون من سوء تصرفهم ، وأنهم يستعدون للثورة عليك .
فأطرق عثمان برهة ثم رفع رأسه وقال :
— فأنتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا على .

— نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم .

وأرسل عثمان الرجال إلى الأمصار ، وبعث عمار بن ياسر إلى مصر ، وكان قد ضربه لكلام بينه وبين آخر ، فبالعثمان ، لقد اجتمع في مصر ابن سبأ ، ومحمد بن أبى بكر ، ومحمد بن أبى حذيفة ، وعمار بن ياسر .

١٣

بعث عثمان إلى عمال الأمصار ليؤافوه وليسمع منهم ما يسخط الناس ليعمل على إزالة أسباب شكواهم ، فؤافاه عماله فقال لهم :

— ويحكم ! ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة ، إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا إلى بى .

— ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء ؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا .

وخرج العمال وبقي معاوية ، فبعث عثمان إلى على والزبير وطلحة وسعد ، فجاء رسول الخليفة إلى على وهو جالس في المسجد بعد صلاة العصر يدعوه ، فلما أن ولى الرسول أقبل على على عبد الله بن عباس فقال :

— لِمَ تراه دعانى ؟

— دعاك ليكلمك .

— انطلق معى .

فانطلقا حتى دخلا على عثمان ، فإذا طلحة والزبير وسعد وأناس من المهاجرين ، فجلسا فسكت القوم ونظر بعضهم إلى بعض ، فحمد الله عثمان ثم قال :

— أما بعد ، فإن ابن عمى معاوية هذا قد كان غائباً عنكم وعن ما نلت منى

وعاتبتمكم عليه وعاتبتموني ، وقد سألتني أن يكلمكم وأن يكلمه من أراد .

فقال سعد بن أبي وقاص في استنكار :

— وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ما قلت . وقيل لك ؟

فقال علي :

— ذلكم ، تكلم يا معاوية .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد ، يا معشر المهاجرين وبقية الشورى ، فإياكم أعني فمن أجابني

بشيء فمنكم واحد ، فإني لم أرد غيركم . توفي رسول الله ﷺ فبايع الناس أحد

المهاجرين التسعة ، ثم دفنوا نبيهم فأصبحوا سالمًا أمرهم كأن نبيهم بين أظهرهم ،

فلما أيس الرجل من نفسه بايع رجلا من بعده أحد المهاجرين ، فلما احتضر ذلك

الرجل شك في واحد أن يختاره فجعلها في ستة نفر بقية المهاجرين ، فأخذوا رجلا

منهم لا يألون عن الخير فيه فبايعوه وهم ينظرون إلى الذي هو كائن من بعده لا

يشكون ولا يمترون . مهلا مهلا معشر المهاجرين فإد ، وراءكم من إن دفعتموه اليوم

اندفع عنكم ، ومن إن فعلتم الذي أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من

جمعكم ، ثم استن عليكم بستمكم ورأى أن الدم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي ،

فسددوا وارفقوا ، لا يغلبكم على أمركم من حذرتكم .

فقال علي بن أبي طالب :

— كأنك تريد نفسك يابن اللخناء لست هنالك .

— مهلا عن بنت عمك فإنها ليست بشر نسائك . يا معشر المهاجرين وولادة

هذا الأمر ولاكم الله إياه فأنتم أهله ، وهذان البلدان مكة والمدينة مأوى الحق

ومنتباه ، وإنما ينظر التابعون إلى السابقين ، والبلدان إلى البلدين ، فإن استقاموا

استقاموا ، وأيم الله الذي لا إله إلا هو لئن صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا

يقوم السابقون للتابعين ، ولا البلدان للبلدين ، وليسبن أمركم ، ولينقلن الملك من

بين أظهركم ، وما أنتم في الناس إلا كالشامة السوداء في الثور الأبيض ، فإني رأيتمكم

نشبت في الطعن على خليفتك ، وبطرت معيشتكم ، وسفهتم أحلامكم ، وما كل نصيحة مقبولة ، والصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله .

وخرج القوم ، وأمسك عثمان ابن عباس ، فقال له عثمان :

— يا ابن عمي ويا ابن خالتي ، فإنه لم يبلغني عنك في أمرى شيء أحبه لا أكرهه على ولا لى ، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا ، وقد أحببت أن تعلمني رأيك فيما بيني وبينك فأعذر .
— يا أمير المؤمنين ، إنك قد ابتليتني بعد العافية ، وأدخلتني في الضيق بعد السعة ، ووالله إن رأيي لك أن يجلس سنك ويعرف قدرك وسابقتك ، ووالله لو ددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك . فإن كان شيئاً تركاه لما رأينا أنه ليس لهما علمت أنه ليس لك كما لم يكن لهما ، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن ينال منهما مثل الذى ينال منك تركته لما تركاه له ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك .

فقال عثمان معاتباً :

— فما منعك أن تشير على بهذا قبل أن أفعل ما فعلت ؟

— وما علمي أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل ؟

— فهب لى صمتاً حتى ترى رأيي .

وخرج ابن عباس فقال عثمان لمعاوية :

— ما ترى ؟ فإن هؤلاء المهاجرين قد استعجلوا القدر ولا بد لهم مما فى أنفسهم :

— الراى أن تأذن لى فأضرب أعناق هؤلاء القوم .

فقال عثمان فى فزع :

— من ؟

— على وطلحة والزبير .

— سبحان الله ! أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ولا ذنب

(أهل البيت)

ركبوه ؟!

- فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلوك .
- لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته بإهراق الدماء .
- فاختر مني إحدى ثلاث خصال .
- وما هي ؟
- أرتب لك ههنا أربعة آلاف فارس من خيل أهل الشام يكونون لك ردءًا ، وبين يدك يدا .
- أرزقهم من أين ؟
- من بيت المال .
- أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمي ، لا فعلت هذا .

— فتانية .

— وما هي ؟

- فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان في مصر واحد ، واضرب عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته .
- سبحان الله ، شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم ، لا فعلت هذا .
- فتالفة .

— وما هي ؟

- اجعل لي الطلب بدمك إن قُتلت .
- نعم هذه لك ، إن قُتلت فلا يطل دمي .

استمر ابن سبأ ينفث سمومه في مصر ، وطفق يمرض الناس على الطعن على أمرائهم ، وأمر أتباعه أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليستميلوا

الناس ، وجعل يكاتب من كان استفسد في الأمصار وكتبوه ، فاستمرت خيوط التآمر على عثمان تُحاك في الظلام حتى إذا ما أخذت بخناقه بانتهت ووضحت وظهرت للعيان ، ومما عاون على اندلاع نار التذمر أن عبد الله بن أبي سرح قد ضرب بعض الذين أتوا إليه من المصريين ، فحنق أهل مصر عليه ، وانضموا إلى الساخطين وقد صمموا على الخروج إلى إمامهم في المدينة .

وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد . فكلم الناس علي بن أبي طالب أن يدخل على عثمان . فدخل عليه فقال له :

— إن الناس ورأى وقد كلموني فيك . ووالله ما أدري ما أقول لك ، وما أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغك ، وما خصصنا بأمر عنك وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره ، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ، وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ رحماً ، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينال ، ولا سبقاك إلى شيء ، فالله الله في نفسك ، فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لو اوضح بيّن ، وإن أعلام الدين لقائمة ، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل ، هدى وهدى فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة معلومة ، فوالله إن كلاً لبيّن ، وإن السنن قائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وأضل به ، فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس من نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم ، فيدور فيها كما تدور الرحائم يرتطم في غمرة جهنم ؛ وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقمته ، فإن عذابه أليم شديد ، وأحذر أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فإنه كان يُقال : يُقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ، ويتركون شيئاً لا يصرون الحق من الباطل يمجون فيها موجاً ، ويمرجون فيها مرجاً .

— قد والله علمت لتقولن الذى قلت ، أما والله لو كنت مكافى ما عنتك ولا أسلمتك ، ولا عبت عليك ، ولا جئت منكراً أبى وصلت رحماً ، وسددت خلة ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى . أنشدك الله يا على هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟

— نعم .

— فتعلم أن عمر ولاء ؟

— نعم .

— فلم تلوموننى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟

— سأخبرك . إن عمر كان كل من ولى فإنما يبطأ على صماخيه ، وإنه إن بلغه حرف جاء به ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك .

— هم أقرباؤك أيضاً .

— لعمري إن رحمهم منى لقريية ، ولكن الفضل فى غيرهم .

— هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ، فقد وليته .

— هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟

— نعم .

— فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، ويقول للناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية .

وخرج على من عنده . وخرج عثمان على إثره فمسعد المنبر فقال :

— ألا فقد والله عبت على بما أقررتم به لابن الخطاب ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه . فدنتم له على ما أحبيتم أو كرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفى ، وكففت يدي ولسانى عنكم ، فاجترأتم على . أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرًا وأكثر عددًا وأقمن إن قلت : هلم إلى إلى ، ولقد أعددت لكم أقرانكم ، وأفضلت عليكم فضولا ، وكشرت لكم عن نابى . فأخرجتم منى

تُحْلَقًا لم أكن أحسنه ، ومنطقًا لم أنطق به . فكفوا ألسنتكم وطعنكم وعيكم على ولاتكم فإنني قد كففت عنكم من لو كان هو الذى بليكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا . ألا فما تفقدون من حقكم ؟ فوالله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى .

قال مروان بن الحكم :

— إن شئتم والله حكمنا بيننا وبينكم السيف . نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :
فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبسون فى دمن الثرى
— اسكت لا سكت ، دعنى وأصحابى ، ما منطقتك فى هذا ، ألم أتقدم إليك أن لا تنطق ؟

فسكت مروان ونزل عثمان :

وخرج المصريون وقد أظهروا أنهم يريدون العمرة ، وخرج محمد بن أبى بكر معهم ، وشيعهم محمد بن أبى حذيفة إلى عجرود ثم قفل راجعًا ، فكان إذا سئل عمن خرج كان يقول : خرج القوم للعمرة ، ولكنه جعل يقول فى السر : خرج القوم إلى إمامهم فإن نزع وإلا قتلوه .

وأوفد عبد الله بن أبى سرح إلى عثمان رسولاً ينبئه بأخبار القوم ، فأطرق عثمان ، ثم التفت إلى من عنده فقال :

— هؤلاء قوم من أهل مصر يريدون بزعمهم العمرة ، والله ما أراهم يريدونها ، ولكن الناس قد دخل بهم وأسرعوا إلى الفتنة ، وطال عليهم عمرى ، أما والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمرى كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة ، مما يرون من الدماء المسفوكة والإحن والأثرة الظاهرة والأحكام المغيرة .

ونزل المصريون ذا خشب ، وذاع فى المدينة أنهم ما جاءوا إلا لقتل أمير المؤمنين ، فلما رأى عثمان ما رأى جاء عليًا فدخل عليه بيته فقال :

— يا بن عم ، إنه ليس لى مترك ، وإن قرابتى قرينة ولى حق عظيم عليك ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحى ، وأنا أعلم أن لك عند الناس قدرًا .

وأنهم يسمعون منك ، فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عني ! فأني لا أحب أن يدخلوا علي ، فإن ذلك جرأة منهم علي ، وليسمع بذلك غيرهم .

— علام أردهم ؟

— علي أن أصير إلى ما أشرت به علي ورأيت لي ولست أخرج من يدك .

— إني قد كنت كلمتك مرة بعد مرة فكل ذلك نخرج فنكلم ونقول ونقول وذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية ، أطعهم وعصيتني .

— فأني أعصيه وأطيعك . . .

وانطلق علي إلى المصريين وقد ركب معه المهاجرون والأنصار . وأرسل عثمان إلى عمار بن ياسر يكلمه أن يركب مع علي ، فأني وأخذ علي يكلم المصريين وما برح من ذي خشب حتى رحلوا راجعين إلى مصر .

وجاء علي عثمان بعد انصراف المصريين فقال له :

— تكلم كلاما يسمعه الناس منك ويشهدون عليه ويشهد الله علي ما في قلبك من النزوع والإنيابة ، فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركبا آخرين يقدمون من الكوفة فتقول : يا علي اركب إليهم ، ولا أقدر أن أركب إليهم ، ولا أسمع عذرا ، ويقدم ركب آخرون من البصرة فتقول : يا علي اركب إليهم ، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحلك واستخففت بحقك .

خرج عثمان فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

— أما بعد أيها الناس فوالله ما عاب من عاب منكم شيئا أجهله . وما جئت شيئا إلا وأنا أعرفه . ولكني متني نفسي وكذبتني وضل عني رشدي . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : من زل فليتب . ومن أخطأ فليتب ولا يتماد . في الهلكة ، إن من تمانى في الجور كان أبعد من الطريق . فأنا أول من اتعظ ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه . فمثلي نزع وتاب فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم . فوالله لكن ردتني الحق عبدا لأستتن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد ، ولأكونن

كالرموق إن ملك صبر وإن عتق شكر وما عن الله مذهب إلا إليه . فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدلوا إلى ، لئن أبت يميني لتابعني شمالي .

فرق الناس له ، وترقرق الدمع في العيون .

وانصرف عثمان إلى منزله فوجد به مروان وسعيداً ونفراً من بنى أمية ولم يكونوا

شهدوا الخطبة ، فلما جلس قال مروان :

— يا أمير المؤمنين ، أتكلم أم أصمت ؟

فقال نائلة ابنة الفرافضة امرأة عثمان :

— لا . بل أصمت ، فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه ، إنه قد قال مقالة لا ينبغي له

أن ينزع عنها .

فقال مروان :

— ما أنت وذاك ؟ فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضأ .

— مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء . تخبر عن أبي وهو غائب تكذب عليه ، وإن

أباك لا يستطيع أن يدفع عنه ، أما والله لولا أنه عمه ، وأنه يناله غمه ، أخبرتك عنه ما لن أكذب عليه .

فأعرض عنها مروان ثم قال :

— يا أمير المؤمنين ، أتكلم أم أصمت ؟

— بل تكلم .

— بأبي أنت وأمي ، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع ،

فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام

الطبيين وخلف السيل الزبي وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل ، والله لإقامة على

خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها ، وإنك إن شئت تقربت بالتوبة

ولم تقرب بالخطيئة ، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس .

— فأخرج إليهم فكلمهم فإني استحيى أن أكلمهم .

فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً فقال :

— ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ، شاهت الوجوه ، كل إنسان
أخذ بأذن صاحبه إلا من أريد ، جئتم تريدون أن تنزءوا ملكنا من أيدينا . اخرجوا
عنا ، أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم .
ارجعوا إلى منازلكم ، فإننا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا .

فرجع الناس مذهولين ، فإن هذا القول لا يتفق وتوبة عثمان ، وخرج بعض
القوم حتى أتوا علياً فأخبروه الخبر ، فجاء علي م غضباً حتى دخل على عثمان فقال :
— أما رضيت من مروان ولا رضى منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك
مثل جمل الظعينة يُقاد حيث يُسار به ؛ والله ما مروان بذى رأى في دينه ولا نفسه ،
وأيم الله إني لأراه سيوردك ثم لا تصدر ، وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعابتك ،
أذهلت شرفك ، وغلبت على أمرك .

وخرج علي فدخلت عليه نائلة امرأته فقالت :

— أتكلم أو أسكت ؟

— تكلمى .

— قد سمعت قول علي لك ، وإنه ليس يعاودك ، وقد أطعت مروان يقودك
حيث شاء .

— فما أصنع ؟

— تتقى الله وحده لا شريك له وتتبع سنة صا-جيبك من قبلك ، فإنك متى
أطعت مروان قتلك ، ومروان ليس له عند الناس ندر ولا هبة ولا محبة ، وإنما
تركك الناس لمكان مروان ، فأرسل إلى علي فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا
يعصى .

وجلس علي غضبان والتفت إلى عبد الرحمن بن الأسود وقال :

— أحضرت خطبة عثمان ؟

— نعم .

— أحضرت مقالة مروان للناس ؟

— نعم .

— عياذ الله ، يا للمسلمين ، إني إن قعدت في بيتي قال لي تركتني وقرابتي وحقى ، وإني إن تكلمت فجاء ما يريد يلعب به مروان ، فصار سيقه له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله ﷺ .

وجاء رسول عثمان يطلب عليًا ، فقال علي بصوت مرتفع عال مغضب :
— قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائد .

١٤

كاتب السبيون في مصر أشياعهم في الكوفة والبصرة ، وتواعدوا على اللقاء في المدينة ، فنزل المصريون بذى خشب ، ونزل الكوفيون بذى قار ، وسار الصحابة إلى الثوار فلم يرجعوا عنهم إلا بعد أن قفلوا عائدين إلى ديارهم وعاتب علي عثمان ولكن ما لبث مروان أن قتله .

وهدأت مدينة الرسول مدة ، وفي يوم ارتفعت أصوات التكبير فارتجت المدينة ، وخرج الناس يسألون عن الخبر فعلموا أن الثوار قد قفلوا راجعين بعد مسيرهم ، وأنهم حاصروا عثمان وقالوا :

— من كف يده فهو آمن .

وجاء علي وهرع إلى الثوار وقال لأهل مصر :

— ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟

— أخذنا مع بريد كتابا بقتلنا .

وأقبل على أهل الكوفة والبصرة فقال لهم :

— وأنتم ما جاء بكم ؟

— نحن ننصر إخواننا .

— كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر ، وقد سرتهم
مراحل ، ثم طويتم نحونا ، هذا والله أمر أبرم بالمدينة .

— ضعوه على ما شئتم ، لا حاجة لنا في هذا الرجل ، ليعتزلنا .
واعتزل الناس في دورهم ، واشتد حصار الثوار لعثمان ، وطالبوا بدمه فبعث
الزبير ابنه عبد الله وبعث عليّ بابنيه الحسن والحسين ومواليه بالسلاح إلى بابه
لنصرته ، وأمرهم أن يمنعوه منهم ، ولبس ابن عمر سلاحه ، وما لبسه بعد موت
الرسول ، وخرج ليزب عن خليفة المسلمين ، وانطلق محمد بن طلحة وأكثر أبناء
الصحابة للذود عن عثمان .

ومنع الثوار عنه الماء ، فأرسل عثمان إلى عائشة ، وإلى عليّ والزبير وطلحة يقول
لهم :

— إنهم منعونا الماء ، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا .
فجاء عليّ في الغلس فقال :

— يا أيها الناس ، إن الذي تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا
تقطعوا عن هذا الرجل الماء ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى ، وما تعرض
لكم هذا الرجل ، فبم تستحلون حصره وقتله ؟؟

فقال الثوار : لا والله ، ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب .

فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضت فيما أنهضتني .

وبعث عثمان إلى الأشتر فدخل عليه فقال أمير المؤمنين :

— يا أشتر ما يريد الناس مني ؟

— ثلاثاً ليس من إحداهن بد .

— ما هن ؟ .

— يخبرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول هذا أمركم فاختروا له من شئتم ، وبين

أن تقص من نفسك ، فإن أبيت هاتين فإن القوم قاتلوك .

— أما من إحداهن بد ؟ .

— ما من إحداهن بد .

— والله لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أخلع قميصاً قمصنيه الله ،
وأترك أمة محمد ﷺ يعدو بعضها على بعض ، وأما أن أقص من نفسى ، فوالله لقد
علمت أن صاحبتى بين يدى قد كانا يعاقبان وما يقوم بدنى بالقصاص ، وأما أن
تقتلوني فوالله لئن قتلتموني لا تتحابون بعدى أبداً ، ولا تصلون جميعاً بعدى أبداً ،
ولا تقاتلون بعدى عدواً جميعاً أبداً .

وجاءت أم حبيبة على بغلة لها برحالة مشتملة على إداوة ، فقيل :
— أم المؤمنين أم حبيبة .

فضربوا وجه بغلتها فقالت :

— إن وصايا بنى أمية إلى هذا الرجل ، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا
تهدر أموال أيتام .
— كاذبة .

وأهروا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأُم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت
راحلتها ، فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها .
وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة ، وقبل أن تنطلق بعثت إلى أخيها محمد
ابن أبى بكر تستبعه فأبى ، وقال له الرسول :
— يا محمد تستبعك أم المؤمنين فلا تتبعها ، وتدعوك ذوؤبان العرب إلى ما لا يحل
فتتبعهم ؟

— ما أنت وذاك يا بن التيمية ؟

— يا بن الخثعمية إن هذا الأمر صار إلى التغالب غلبتك عليه بنو عبد مناف .
وجاء مروان عائشة فقال :

— يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل .

— أريد أن يُصنع لى كما صنع بأُم حبيبة ثم لا أجد من يمنعنى ، لا والله ولا أعير
ولا أدرى إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وأشرف عثمان على من لزموا الباب فقال :

— يا عبد الله بن عباس .

فدعى له فقال :

— اذهب فأنت على الموسم .

— والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب إلي من الحج .

فأقسم عليه لينطلق ، فذهب ابن عباس لينطلق على الموسم .

وصاح ابن عديس زعيم الثوار في أصحابه :

— لا تتركوا أحدا يدخل على هذا الرجل ولا يخرج من عنده .

وفتح باب دار عثمان وأراد ابن عباس أن يخرج ممنعه ، ومر به محمد بن أبي

بكر ، فقال للثوار :

— دعوه .

وحاول الثوار اقتحام الباب ، فبرز لهم الحسن والحسين وابن الزبير ومحمد بن

طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة ، واجتلد

الفريقان ، ونادى عثمان من يذبون عنه :

— الله الله أنتم في حل من نصرتي .

فأبوا واستمروا في القتال ، ففتح عثمان الباب وخرج معه السيف لينهم ،

فلما رأى الثوار عثمان ثبتوا مكانهم قليلا ثم أدبروا فزعين ، فأقسم عثمان على

الصحابة ليدخلن ، فدخلوا فأغلق الباب دون الثوار .

جاء الثوار بنار وأحرقوا الباب والسقيفة ، فتأجج الباب والسقيفة ، وأخذ

الخشب في الاحتراق ، ووقف عبد الله بن سلام أمام الباب وراح يصيح في الناس :

— يا قوم ، لا تسلوا سيف الله عليكم ، فوالله إن سلتموه لا تغمدوه . ويلكم

إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة ، فإن قتلتموه لا ينوم إلا بالسيف ، ويلكم إن

مديتكم محفوفة بملائكة الله ، والله لئن قتلتموه لتركتها .

فارتفعت أصوات الثوار :

- يابن اليهودية وما أنت وهذا ؟
وأغفى عثمان بن عفان فاستيقظ فقال :
— لولا أن يقول الناس تمنى عثمان أمنية لحدثكم .
— أصلحك الله ، حدثنا فلسنا نقول ما يقول الناس .
— إني رأيت رسول الله في منامى هذا فقال : « إنك شاهد معنا الجمعة » .
وأكلت النار الخشب . فخرت السقيفة على الباب ، فثار أهل الدار وخرجوا
يبارزون الثوار ، وخرج الحسن وهو يقول :
لا دينهم دينى ولا أنا منهم حتى أسير إلى طمار شمام
ووقف عثمان يصلى في هدوء كأنما الأمر لا يعنيه ، وجعل يقرأ فى صلاته :
﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ ، واستمر فى قراءته هادئ النفس ما يخطئ
وما يتتبع ، وأتم صلاته ثم التفت إلى ابن الزبير وأمره أن يأتى أهل الدار فيأمرهم
بالانصراف إلى منازلهم .
واستمر القتال ناشبا أمام الباب فجرح الحسن ، وشج قنبر مولى عليّ ، وجرح
محمد بن طلحة ، فخشى القوم أن يثور بنو هاشم للحسن ، فتصور محمد بن أبى
بكر وبعض الثوار من دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان ، ولا يعلم أحد
ممن كانوا بالباب .
وتقدم محمد بن أبى بكر من عثمان ، فأخذ بلحيته فقال :
— ما أغنى عنك معاوية ، وما أغنى عنك ابن عامر ، وما أغنت عنك كُتُبك ،
على أى دين أنت يا نعثل ؟
— على دين الإسلام ، ولست بنعثل ولكنى أمير المؤمنين .
— غيرت كتاب الله .
— كتاب الله بينى وبينكم .
— إنا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول : ﴿ ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا
فأضلونا السبيلا ﴾ .

— يابن أخى ، ما كان أبوك ليأخذ بلحيتى .

فتذم محمد من ذلك ، وأحس خزيا فغطى وجهه بيده ثم انسحب خافض الرأس ، وقابل بعض الثوار مقبلين نحو عثمان فحاول أن يدفعهم وجعل يحاجز دون عثمان ، ولكن لم تفد عثمان محاجزته ، فقد وصل إليه أسود بن حمران فضربه بحربة ، ثم وضع ذباب السيف فى بطنه واتكى عليه وتحامل حتى قتله ، وقامت نائلة دونه ، فقطع السيف أصابعها .

وصرخت نائلة :

— قد قُتل أمير المؤمنين .

وصك الصوت آذان المدافعين عن الباب فأسروا بالدخول ، فوجدوا عثمان مقتولا ، فبكوا ، وذاع النبأ : ألا إن أمير المؤمنين قد قُتل ، فأقبل على ودخل الدار وهو كالواله الحزين ، والتفت إلى ولديه وقال فى غضب :

— كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتم على الباب ؟

وثار على ، فلطم الحسن وضرب الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبد الله بن الزبير ، فقال له ابن طلحة :

— لا تضرب يا أبا الحسن ، ولا تشتم ولا تلعن ، ولو دفع مروان ما قُتل .

واستمرت المدينة تموج بالثوار موجا ، وأصبحت لا أمير لها ، وفكر الناس فى مبايعة خليفة لهم فانطلق المصريون إلى على ، ولكنه اختبأ منهم ، وظلوا يبحثون عنه حتى لقوه ، فباعدهم وظل يتبرأ منهم ومن مقاتليهم ، وانطلق الكوفيون إلى الزبير ، وأرسلوا له رسلا لمحدثه فى أمر البيعة ، ولكنه باعدهم وتبرأ منهم ، واتمس البصريون طلحة فلقبهم ولم يقبل بيعتهم ، وانقضى اليوم الأول ولم يجد الثوار من يقبل الخلافة ، وبقي عثمان فى داره لا يجرؤ أحد على دفنه خشية بطش الثوار به . وطلعت شمس اليوم الثانى ، فراح الثوار يفكرون فىمن يولونه الخلافة غير هؤلاء الذين رفضوها ، فلم يجدوا من أهل الشورى إلا سعدا فجاءوه وقالوا له :

— إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع فاقدم نبايعك .

— إلى وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال .
لا تخلعن خبيثات بطيية واخلع ثيابك منها وانج عريانا
وانقضى اليوم التالي ولم يهتد الثوار إلى خليفة وبقى عثمان في داره لم يُقبر ، وأهل
داره يخشون الخروج لدفنه رهبة من الثوار وبطشهم ، وتصرم الثالث كما تصرم
سابقاه :

وجاء الزبير إلى بيت عثمان ، ولما هداً الناس وأرخصي الليل سدوله ، خرجوا
بعثمان وهم يتلفتون وجلين خشية أن يفاجئهم الثوار فينكلوا بهم، حتى إذا بلغوا
جداراً دفنوه وقفلوا راجعين مسرعين لا يلوون على شيء، وهكذا دُفن عثمان خليفة
المسلمين ، وصهر الرسول ، في هجعة الليل ، وغفلة من الناس .

١٥

الفوضى تسود المدينة ، والثوار يغدون ويروحون بين صحابة الرسول ، فقد
يمضى قتل عثمان في الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله ولا يسمعون أنه بويع لأحد بعده
فيثور كل رجل في تاحية فيكون في ذلك الفساد . ورأى كبار الصحابة ورؤساء
الثوار أن يأتوا علياً مرة أخرى يعرضون عليه الأمر ، فدخلوا عليه في داره ومعه ابنه
محمد بن الحنفية فقالوا :

— إن هذا الرجل قد قُتل ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا
الأمر منك ، لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله ﷺ .
— لا تفعلوا .

وخشى الناس أن يصر على الرفض ، فقال الأشر :

— ابسط يدك نبايعك .

— لا حاجة لي في أمركم ، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به فاختروا .

— والله ما نختار غيرك .

— لا تفعلوا ، فإنى أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا .
فقال الأشر :

— والله تتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينيك عليها ثالثة :
وقال الناس :

— إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة ، وقد طال الأمر .
— إنكم قد اختلفتم إلى وأيتيم وإنى قائل لكم قولاً إن قبلتموه قبلت أمركم وإلا
فلا حاجة لى فيه .

— ما فعلت من شىء قبلناه إن شاء الله .
— ففى المسجد ، فإن بيعتى لا تكون خفيا ولا تكون إلا عن رضا المسلمين .
وجاء على المسجد فصعد المنبر فاجتمع الناس إليه فقال :
— إنى قد كنت كارها لأمركم فأيتيم إلا أن أكون عليكم ، ألا وإنه ليس لى أمر
يونكم إلا أن مفاتيح مالكم معى ، ألا وإنه ليس لى أن آخذ منه درهما دونكم ،
رضيتم ؟

— نعم .

— اللهم اشهد عليهم .

ونزل على فتقدم إليه طلحة ومد له يده الشلاء النى شلت يوم أحد ، يوم كان
يذب عن رسول الله ، فتطير رجل فقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، أول من بدأ بالبيعة يد شلاء ، لا يتم هذا الأمر .
وبايعه الناس .

ودخلت أم حبيبة زوجة الرسول على نائلة زوجة عثمان وأخذت منها قميص
القتيل ، وأصابع نائلة التى أصيبت حين جاحفت عنه بيدها ، وبعثت بها إلى أخيها
معاوية ، فخرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه ومعه أصابع
نائلة ، فورد به على معاوية بالشام ، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس ، وعلق
الأصابع فى كم القميص ، فتباكى الناس حول المنبر ، وكان القميص يُرفع تارة

ويُوضع أخرى ، فيحرك معاوية بذلك الأحقاد ويدعو الناس للأخذ بثأر عثمان .
وبويع لعل فاجتمع الناس إليه بعد ما دخل طلحة والزبير في عدة من الصحابة
فقالوا له :

— يا علي ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم
هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم .

— يا إخوتاه ، إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا
ولا نملكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانهم وثابت إليهم أعرابكم وهم
خلالكم يسومونكم ما شاعوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟
— لا .

— فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله ، إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن
لهؤلاء القوم مادة . وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ
بها أبدا . إن الناس في هذا الأمر إن حرك على أمور ، فرقة ترى ما ترون ، وفرقة
ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها
وتؤخذ الحقوق فاهدءوا عني ، وانظروا ماذا يأتكم ثم عودوا .

وتفرق القوم وبعضهم يقول :

— والله لئن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار ، لترك هذا إلى
ما قال علي أمثل .

وقال بعضهم :

— نقضى الذي علينا ولا نؤخره ، والله إن علينا لمستغن برأيه وأمره عنا ، ولا
نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره .

وبلغ عليا ذلك فقام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل قريش
وحاجته إليهم ، ونظره لهم وقيامه دونهم ، وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذلك
والأجر من الله عز وجل ، ثم قال :

— يا أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب ، يا معشر الأعراب الحقوا

(أهل البيت)

بمياهمكم .

فخشى السبائية أن يخلى بينهم وبين الناس إذا ما خنق الأعراب بمياهمهم ، فأبت السبائية وأطاعهم الأعراب وقالوا :

— لنا غداً مثلها .

ودخل عليّ بيته ، ودخل عليه طلحة والزبير وعمدة من أصحاب النبي ﷺ فقال :

— دونكم ثأركم فاقتلوه .

فقالوا في يأس :

— عشوا عن ذلك .

— هم والله بعد اليوم أعشى وآى .

لو أن قومي طاوعتني سراتهم أمرتهم أمراً يديخ الأعاديا وقال طلحة :

— دعنى آت البصرة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل .

— حتى أنظر في ذلك .

وقال الزبير :

— دعنى آت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل .

— حتى أنظر .

وبلغ المغيرة بن أبي شعبة نبأ ذلك المجلس فعزم على أن يدخل على الإمام ، فجاءه فقال :

— إن لك حق الطاعة والنصيحة ، وإن الرأى اني يوم تحرز به ما في غد . وإن الضياع اليوم تضيع به ما في غد ، أقرر معاوية على عمله وأقرر ابن عامر على عمله وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت . وبان في وجه عليّ عدم الاقتناع بما قال المغيرة ، فإنه ليذكر نصيحته لعمر أن يولى ابنه عبد الله عقب مقتله ، وإنه ليذكر قوله لعبد الرحمن بن عوف بعد مبايعته

لعثمان : « يا أبا محمد ، الحمد لله الذى وفقك . والله ما كان لها غير عثمان » وإنه
ليعلم أن كل هم المغيرة أن يتقرب إلى من بيده السلطان . فقال له :
— لا .

وخرج المغيرة وقد أيقن أن علياً لن يأخذ برأيه ، فرأى أن يكون له بعض الفضل
فيما سينتهج أمير المؤمنين من سياسة ، فعزم على أن يدخل عليه فى الغد لينقض
نصيحته التى لن يعمل الخليفة بها .

وعاد المغيرة من الغد ، ودخل على الإمام فقال :
— إني أشرت عليك بالأمس برأى ، وإن الرأى أن تعاجلهم بالتزوع فيعرف
السامع من غيره ويستقبل أمرك .

ثم خرج وتلقاه ابن عباس خارجاً وهو داخل فأيقن أن أمره سينكشف .
دخل عبد الله بن عباس على الإمام بعد عودته من الحج ، فقال له :
— ماذا قال لك هذا ؟

— قال لى قبل مرته هذه أرسل إلى عبد الله بن عامر وإلى معاوية وإلى عمال عثمان
بعهودهم تقرهم على أعمالهم ويبايعون لك الناس فإنهم يهدئون البلاد ويسكنون
الناس ، فأبيت ذلك عليه يومئذ وقلت : والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها
رأى ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يولى . ثم انصرف من عندى وأنا أعرف فيه أنه
يرى أنى مخطئ ، ثم عاد إلى الآن ، فقال : إني أشرت عليك أول مرة بالذى أشرت
عليك وخالفتنى فيه ، ثم رأيت بعد ذلك رأياً ، وأنا أرى أن تصنع الذى رأيت
فتنزعهم وتستعين بمن تثق به ، فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان .
— أما المرة الأولى فقد نصحك ، وأما المرة الآخرة فقد غشك .

— ولم نصحنى ؟

— لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى تثبتهم لا يزالون بمن ولى هذا
الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا : أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا .
ويؤلبون عليك أهل الشام وأهل العراق مع أنى لا آمن طلحة والزبير أن يكررا

عليك .

— أما ما ذكرت من إقرارهم فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا لإصلاحها، وأما الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولى منهم أحدا أبدا ، فإن أقبلوا فذلك خير لهم ، وإن أدبروا بذلت لهم السيف .
— فأطعنى وادخل دارك والحق بمالك بينع وأغلق بابك عليك ، فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك ، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا .

فأبى على فقال لابن العباس :

— سير إلى الشام . فقد وليتها .

— ما هذا برأى ، معاوية رجل من بنى أمية ، وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام ، ولست آمن أن يضرب عنقى لعثمان أو أدنى ما هو صانع أن يجسنى فيتحكم على .

— ولم ؟

— لقراءة ما بينى وبينك . وإن كل ما حمل عليك حمل على ، ولكن اكتب إلى معاوية فمعه فعهده .

فقال الرجل الذى لا يعرف اللف ولا الدوران :

— والله لا كان هذا أبدا .

— ثبت معاوية ، فإن بايع لك فعلى أن أقبله .

— لا والله لا أعطيه إلا السيف .

ما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

— يا أمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع لست بأرب بالحرب ، أما سمعت

رسول الله ﷺ يقول : الحرب خدعة ؟!

— بلى .

— أما والله لئن أطعنى لأصدرن بهم بعد ورد ، لأتركهم ينظرون في دبر الأمور

لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا إثم لك .
— يابن عباس ، لست من هنيآتك ولا هنيآت معاوية في شيء ، تشير على
فأرى فإذا عصيتك فأطعنى .
— أفعل ، إن أيسر ما لك عندى الطاعة .

١٦

بعث أمير المؤمنين رسولا إلى معاوية ، فقدم عليه ، فلم يكتب معاوية بشيء ولم
يجبه ورد رسوله ، ثم دعا برجل من بنى عبس ، فدفع إليه طومارًا مختوماً عنوانه :
من معاوية إلى عليّ ، فقال له :
— إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار .
ثم أوصاه بما يقول ؛ وانطلق رسول معاوية حتى إذا ما دخل المدينة ، رفع
الطومار كما أمره .
وخرج الناس ينظرون إليه فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ،
ومضى الرسول حتى دخل على الإمام ، فدفع إليه الطومار ، ففرض خاتمه فلم يجد
في جوفه كتابة ، فقال للرسول :
— ما وراءك ؟
— آمن أنا ؟
— نعم ، إن الرسل آمنة لا تقتل .
— ورائي ؛ أنى تركت قومًا لا يرضون إلا بالقود .
— ممن ؟
— من خيط نفسك ؛ وتركت ستين ألف شيخ يكي تحت قميص عثمان وهو
منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق .
— منى يطلبون دم عثمان ؟ أأنت موتورًا كثره عثمان . اللهم إني أبرأ إليك من

دم عثمان ؛ نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ؛ فإنه إذا أراد أمراً أصابه ، اخرج .

— وأنا آمن ؟

— وأنت آمن .

فخرج رسول معاوية وصاحت السبائية :

— هذا الكلب .. هذا وافد الكلاب .. اقتلوه .

فنادى :

— يا آل مضر .. يا آل قيس الخيل والنبل .. إلى أحلف بالله جل اسمه ليردنها

عليكم أربعة آلاف خصي ، فانظروا كم الفحولة والركاب .

وتعاونوا عليه ومنعته مضر وجعلوا يقولون له :

— اسكت .

— لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً ، فلقد آتاهم ما يوعدون .

— اسكت .

— لقد حل بهم ما يحذرون ، انتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم .

وعلم الحسن برسالة معاوية فدخل على أبيه فقال :

— أما والله قد كنت أمرتك فعصيتني .

— وما أمرتني به فعصيتك فيه ؟

— أمرتك أن تركب رواحلك فتلحق بمكة المشرفة فلا تتهم به ولا تحل شيئاً من

أمره فعصيتني ، وأمرتك حين دعيت إلى البيعة أن لا تبسط يدك إلا على بيعة جماعة

فعصيتني ، وأمرتك حين خالف عليك طلحة والزبير لا تكرهما على البيعة ولا

تخلي بينهما وبين وجههما وتدع الناس يتشاورون عاماً كاملاً ، فوالله لو تشاوروا

عاماً ما زويت عنك وما وجدوا منك بداً ، وأنا آمرك اليوم أن تقيلهما بيعتهما ،

وترد إلى الناس أمرهم ، فإن رفضوك رفضتهم وإن قبلوك قبلتهم ، فإنني والله قد

رأيت الغدر في رعوسهم ؛ وفي وجوههم النكث والكراهية .

— أنا إذن مثلك ، لا والله يا بني ، ولكن أقاتل بمن أطاعني من عصائي ، وأيم

الله يا بنى ما زلت مبيعًا على منذ هلك جدك .
— وأيم الله يا أبت ليظهرن عليك معاوية ، لأنه من قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا .

— يا بنى ، وما علينا من ظلمه والله ما ظلمناه ولا أمرنا ، ولا نصرنا عليه ، ولا كتبت فيه إلى أحد سوادًا في بياض ؛ وإنك لتعلم أن أباك أبرأ الناس من دمه ومن أمره .

فقال الحسن الذى كان يمقت الالتجاء إلى العنف وإهراق الدماء :
— دع عنك هذا والله إنى لا أظن ، بل لا أشك أن ما فى المدينة عاتق ولا عذراء ولا صبي إلا وعليه كفيل من دمه .

— يا بنى ، إنك لتعلم أن أباك قد رد الناس عنه مرارًا ، أهل الكوفة وغيرهم ، وقد أرسلتكم جميعًا بسيفيكما لتنصراه ، وتموتا دونه فنهاكما عن القتال ، ونهى أهل الدار أجمعين ، وأيم الله لو أمرنى بالقتال لقاتلت دونه أو أموت بين يديه .
وأحب الناس أن يعلموا ما رأى على فى معاوية وانتفاضه ، ليعرفوا بذلك رأيه فى قتال أهل القبلة ، أيجسر عليه أو ينكل عنه ، فدسوا إليه زياد بن حنظلة وكان منقطعًا إلى على ، فدخل إليه فجلس ثم قال له على :

— يا زياد تيسر .

— لأى شىء ؟

— تغزو الشام .

— الأناة والرفق أمثل .

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
فتمثل على كأنه لا يريدده :

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم
فخرج زياد على الناس والناس ينتظرونه فقالوا :

— ما وراءك ؟

— السيف يا قوم .

ودخل المغيرة بن شعبه فقال له على :

— هل لك يا مغيرة في الله ؟

— فأين هو يا أمير المؤمنين ؟

— تأخذ سيفك فتدخل معنا في هذا الأمر ، فتدرك من سبقك وتسبق من معك ، فأني أرى أمورا لا بد للسيوف أن تُشحذ لها ، وتقطف الرعوس بها .
— إني والله يا أمير المؤمنين ما رأيت عثمان مصيبا ولا قتله صوابا ، وإنها مظلمة تتلوها ظلمات ، فأريد يا أمير المؤمنين إن أذنت لي أن أضع سيفي وأنا في بيتي حتى تنجلي الظلمة ويطلع قمرها فنسرى مبصرين ، نقفوا آثار المهتدين ، ونتقى سبيل الحائرين .

— قد أذنت لك ، فكن من أمرك على ما بدا لك .

فقام عمار فقال :

— معاذ الله يا مغيرة ، تقعد أعمى بعد أن كنت بصيرا يغلبك من غلبته ؛ ويسبقك من سبقته ، انظر ما ترى وما تفعل ، فأما أنا فلا أكون إلا في الرعيل الأول .

فقال له المغيرة :

— يا أبا اليقظان ، إياك أن تكون كقاطع السلسلة ، فر من الضحل فوقع في الرمضاء .

فقال على لعمار :

— دعه ، فإنه لن يأخذ من الآخرة إلا ما خالطته الدنيا ، أما والله يا مغيرة إنها المثوبة المؤدية تؤدي من قام فيها إلى الجنة ولما اختار بعدها ، فإذا غشيناك فتم في بيتك .

— أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم مني ، ولكن لم أقاتل معك لا أعين عليك ، فإن يكن ما فعلت صوابا فأياه أردت ، وإن أخطأت فمنه نجوت ولى ذنوب كثيرة

لا قبل لي بها إلا الاستغفار منها .

ودعا عليّ محمد بن الحنفية ابنه فدفع إليه اللواء ، وولى عبد الله بن عباس ميمته وعمر بن أبي مسلمة ولأه ميسرته ودعا ابن أخى أبي عبيدة بن الجراح وجعله على مقدمته ، وكتب إلى عماله بالأمصار أن يندبوا الناس إلى الشام .

وبينا عليّ يتأهب للمسير إلى الشام جاءه أن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمألتوا على سخط إمارته ودعوا الناس إلى الإصلاح وأنهم يريدون البصرة ، فهياً جيوشه للخروج إليهم وقال في أسف :

— إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين ، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونه ولا إكراه .

فاشتد على أهل المدينة الأمر فتأقلوا ، فبعث إلى عبد الله بن عمر رسولا فجاء به فقال عليّ :

— انهض معي .

— أنا مع أهل المدينة ، إنما أنا رجل منهم ، وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم لا أفارقهم ، فإن يخرجوا أخرج وإن يقعدوا أقعد .

— فأعطني زعيماً بالاً تخرج .

— ولا أعطيك زعيماً .

— لولا ما أعرف من سوء خلقك صغيراً وكبيراً لأنكرتني ، دعوه فأنا به زعيم .

وفي سكون الليل جاء عبد الله بن عمر أم كلثوم بنت عليّ فقال لها إنه يخرج معتمراً مقيماً على طاعة عليّ ما خلا النهوض . وأصبح عليّ فقيل له :

— حدث البارحة حدث هو أشد عليك من طلحة والزبير وأم المؤمنين ومعاوية .

— وما ذلك ؟

— خرج ابن عمر إلى الشام .

فأتى على السوق ودعا بالظهر فحمل الرجال ، وأعد لكل طريق طلابا ، وماج أهل المدينة ، وسمعت أم كلثوم بالذى هو فيه فدعت ببغلتها فركبتها في رحل ، ثم أتت عليا وهو واقف في السوق يفرق الرجال في طلبه فقالت :
— مالك ؟ لا تزند من هذا الرجل ، إن الأمر على خلاف ما بلغته وحدثه ، أنا ضامنة له .

فطابت نفس علي والتفت إلى الرجال فقال :
— انصرفوا ، والله ما كذبت ولا كذب وإنه عندي ثقة .
فيالعلي ، تألب عليه الطامعون والموتورون ، فقد خرج طلحة والزبير ولحقا بعائشة ، وفر مروان إلى مكة ، وفر عبيد الله بن عمر إلى الشام لينضم إلى معاوية لما طلبه علي ليقترض منه للهزمزان . لقد تجمعت المطامع والأحقاد لتخرج السلطان من بيت الرسول . ولكأنما حسد الجميع لبنى هاشم أن تجتمع فيهم النبوة والسلطان .

١٧

عائشة مقيمة بمكة تريد عمرة المُحرم ، فلما تساقط إليها الهراب استخبرت رجلا يُقال له أخضر فقالت :
— ما صنع الناس ؟
— قتل عثمان المصريين .
— إنا لله وإنا إليه راجعون ، أيقتل قوما جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ؟
والله لا نرضى بهذا .
ووفد آخر فسأله :
— ما صنع الناس ؟
— قتل المصريون عثمان .

— العجب لأخضر زعم أن المقتول هو القاتل ، ومن أمير القوم ؟

— لم يجبه إلى التأخير أحد .

— أكيس هذا غب ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح ؟

وتلقت عائشة نبأ مقتل عثمان فلم تثر ، ولم تطالب بدمه ، بل بقيت في مكة حتى إذا ما أتمت حجها ، وقفلت عائدة إلى المدينة لقيها عند سرف رجل من أخوالها من

بنى ليث فقالت :

— ما وراءك ؟

فصمت ولم يجر جوابا .

— ويحك علينا أو لنا ؟

— لا أدري ، قُتل عثمان وبقوا ثمانيا .

— ثم صنعوا ماذا ؟

— أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز ، اجتمعوا

على علي بن أبي طالب .

فما إن صك اسم على أذن عائشة حتى اكفهر وجهها ، وتحركت عوامل الغيظ

في صدرها ، ولم تستطع كبح جماح نفسها بل قالت :

— والله ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ، ردوني ردوني . قتل

والله عثمان مظلوما ، لأطلبن بدمه .

— ولِمَ ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلا

فقد كفر .

— إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي

الأول .

وانصرفت عائشة إلى مكة وقد عازمت على تأليب القوم على أمير المؤمنين ولحق

مروان بعائشة بمكة ، فقالت له عائشة :

— ما وراءك ؟

— غلبنا على أنفسنا .

فقال له رجل من أهل مكة :

— إياك وعلياً فقد طلبك ، ففر من بين يديه .

— لِمَ ؟ فوالله ما يجد إلى سبيلا ، أما هو فقد علمت أن لا يأخذني بظن ولا

ينصب على إلا اليقين ، وأيم الله لا أبالي إذا قصر على سيفه ما طال على من لسانه .

— إذا أطال الله عليك لسانه طال سيفه .

— كلا ؟ إن اللسان أدب والسيف حكم .

وبلغت عائشة المسجد وهي لا تقول شيئاً ، ولا يخرج منها شيء ، ثم قصدت

للحجر فاستمرت فيه ، وبلغ القوم عودة أم المؤمنين ، فأسرعوا إلى المسجد ليروا

ما الخبر ، فلما التج المسجد قالت عائشة في نبرات أخاذاة :

— أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة

اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب . واستعمال من حدثت

سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم ، وهي أمور

قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم ، فلما لم

يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا ، وبادروا بالعدوان ونبأ فعلهم عن قولهم فسفكوا

الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر

الحرام ، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أسألهم ، فنجاة من اجتماعكم

عليهم حتى ينكل بهم غيرهم وبشردهم ، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه

كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من درنه إذا ماصوه كما

يُماص الثوب بالماء . إن عثمان قُتل مظلوماً ، وإن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء

أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام .

وابتدأت الفتنة التي أيقظتها بنت ابن أبي قحافة تتحرك لتنتقل إلى أبعد مما قدرت

بنت الصديق ، ترى لو كانت عائشة تعلم مدى انبلاق فتنتها أكانت تقدم على

إيقاظها ؟!

وقام عبد الله بن عامر الحضرمي ، وكان عامل عثمان على مكة ليحيب أم المؤمنين فقال :

— هأنذا لها أول طالب .

وابتدأ الناس يتجمعون في مكة حول عائشة ليناثوا علياً وليطالبوا بدم عثمان ، وقدم عبد الله بن عامر من البصرة ، ويعلى بن أمية من اليمن ومعه ستائة بغير وستائة ألف درهم ، فأناخ بالأبطح معسكرًا .

دعا عليّ عبد الله بن عباس بعد أن خرج من عنده طلحة والزبير فقال له :

— بلغك قول هذين الرجلين ؟

— نعم بلغني قولهما .

— فما ترى ؟

— أرى أنهما أحبا الولاية ، فول البصرة الزبير وول طلحة الكوفة فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان .

فضحك عليّ ثم قال :

— ويحك ، إن العراقيين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكنا رقاب الناس يستميل السفيه بالطمع ، ويضربا الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأى .

وظل طلحة والزبير يفكران في ترك المدينة فلقد ظهر أن علياً لن يستعملهما ، فجاءا إليه يوما وقالوا :

— يا أمير المؤمنين ، ائذن لنا في العُمره . فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك ،

وإن تسر تتبعك .

فنظر إليهما وقال :

— نعم والله ما العُمره تريدان ، تريدان أن تمضيا لشأنكما .

ومضيا حتى لقيا عائشة فقالت لهما :

— ما وراءكما ؟

— وراءنا أنا تحملنا بقليتنا هربا من المدينة من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوماً
حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلا ، ولا يمنعون أنفسهم .

— فائتمروا أمراً ، ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء .

ودخلت عائشة دارها واجتمع عندها الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن أبى بكر
ومروان وعبد الله بن الزبير وبنو أمية ووجوه القوم ، وأخذوا يتشاورون فى الأمر ،
فقال القوم فيما ائتمروا به :

— نلحق بالشام .

فقال عبد الله بن عامر :

— قد كفاكم الشام من يستمر فى حوزته .

— فأين ؟

— البصرة ، فإن لى فيها صنائع ، ولهم فى طلحة هوى .

— قبحك الله ، فوالله ما كنت بالمسلم ولا بالمحارب ، فهلا أقمت كما أقام

معاوية فنكتفى بك ونأتى الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب ؟

وقال بعض القوم :

— نسير إلى على فنقاتله .

— ليس لكم طاقة بأهل المدينة .

واستمروا يديرون قداح الرأى بينهم حتى استقر رأيهم على الخروج إلى
البصرة .

وقالوا لأم المؤمنين :

— يا أم المؤمنين ، دعى المدينة ، فإن من معنا لا يعترفون لتلك الغوغاء التى

بها ، واشخصى معنا إلى البصرة ، فإننا نأتى بلداً مضيقاً ، وسيحتجون علينا فيه

بيعة على بن أبى طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدين ، فإن أصلح الله

الأمر كان الذى تريدین ، وإلا احتبسنا ودفعنا هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد .

فوافقت عائشة ، وكانت أزواج النبی معها على قصد المدينة ، فلما تحول رأيها إلى البصرة تركن ذلك ، وانطلق القوم بعدها إلى حفصة يسألونها فقالت :
— رأى تبع لرأى عائشة .

أما أم سلمة فقد ساءها اعتزام عائشة على الخروج فكتبت لها : أما بعد ، فإنك سدة بين رسول الله وبين أمته ، وحجابك مضروب على حرمة ، قد جمع القرآن الكريم ذيلك فلا تبدليه ، وسكن عقيرتك فلا تضيعيه ، الله من وراء هذه الأمة ، قد علم رسول الله مكانك لو أراد أن يعهد إليك ، وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن انصدع ، خمرات النساء غض الأبصار وضم الذبول ، ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات على قعود من الإبل من منهل إلى منهل أن يعين الله مهواك ، وعلى رسول الله ﷺ تردین وقد هتكت حجابہ الذى ضرب الله عليك عهده ، ولو أتيت الذى تريدین ثم قيل لى ادخلى الجنة لاستحييت أن ألقى الله هاتكة حجاباً قد ضربه على ، فاجعلى حجابك الذى ضرب عليك حصنك فابغيه منزلاً لك حتى تلقيه ، فإن أطوع ما تكونين إذا ما لزمته ، وأنصح ما تكونين إذا ما قعدت فيه ، ولو ذكرت كلاماً قاله رسول الله ﷺ لنهشتنى نهش الحية والسلام .

فكتبت عائشة إليها : « ما أقبلنى لوعظك ، وأعلمنى بنصحك ، وليس مسيرى على ما تظنين ، ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متناجرتين ، فإن أقدر فقى غير حرج ، وإن أخرج فلا غنى لى عن الازدياد والسلام » .
ورأت أم الفضل ما بُييت لأمر المؤمنين ، فلم تستطع صبراً ، بل كتبت له كتاباً ، واستأجرت رجلاً من جهينة على أن يطوى ويأتى علياً بكتابها ، فانطلق الرجل ينهب الأرض ليلبلغ أمير المؤمنين نبأ المتأمرين .

وذهب القوم يبحثون عن جمل شديد ، يحملون عليه أم المؤمنين ، ورأى يعلى

جملاً قوياً فاتجه إلى صاحبه وقال :

— يا صاحب الجمل ، تباع جملك ؟

— نعم !

— بكم ؟

— بألف درهم .

— مجنون أنت ، جمل يُباع بألف درهم ؟

— نعم ، جملي هذا :

— ومِم ذلك ؟

— ما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولا طلبني وأنا عليه أحد قط إلا فته .

— لو تعلم لمن نريده لأحسنتم بيعنا .

— ولمن نريده ؟

— لأملك .

— لقد تركت أُمي في بيتنا قاعدة لا تريد براحاً .

— إنما أريده لأُم المؤمنين عائشة .

— فهو لك . فخذ به غير ثمن .

— لا . ولكن ارجع معنا إلى الرجل فلنعطك ناقةً ومهرية ونزيدك دراهم .

ورجع الرجل وصاحب الجمل إلى الرجل ليأخذ ناقةً وعائشة وستائة درهم .

ولم يبق إلا الخروج فقالوا :

— كيف نستقل وليس معنا مال نجهز به الناس ؟

فقال يعلى بن أمية :

— معي ستائة ألف وستائة بعير فاركبوها .

فنادى المنادى :

— إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن كان يريد إعزاز

الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان ، ولم يكن عنده مركب ولم يكن له

جهاز ، فهذا جهاز وهذه نفقة .
وأرادت حفصة الخروج ، فأتاها عبد الله بن عمر ، فطلب إليها أن تقعد .
فقعدت ، وبعثت إلى عائشة :
— إن عبد الله حال بينى وبين الخروج .
فقال عائشة :
— يغفر الله لعبد الله .

وابتدأ الرحيل ، فسحت العيون ، وجرت الدموع ، وارتفع النحيب والنشيج
فما من خارج للقتال إلا وقد بكى ، وما من شاهد للخروج إلا ودمعه منهر ،
وحزنه ثقیل ، فإنه ليرى خروج المسلمين لقتال المسلمين ، فلم ير يوم كان أكثر
باكياً على الإسلام ، أو باكياً له من ذلك اليوم ، يوم النحيب .
وانطلق القوم إلى الغيب المجهول ، وانطلقوا وكل منهم بمنى النفس ، وما دار
بخلدهم أنهم سيخرجون منها جميعاً صفر اليدين ، وأنهم سيقتلون ويُقتلون لينالها
غيرهم ، ولكن ذلك كان في سجل القدر مكتوباً .

خرج الـركب من مكة واستمر في السير حتى قابلهم سعيد بن العاص ، فخلا بطلحة والزبير وقال لهما :

— إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر ؟ أصدقاني .

— لأحدنا أينما اختاره الناس .

— بل اجعلوه لولد عثمان ، فإنكم خرجتم تطلبون بدمه .

— ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم .

— فلا أراي أسعى لأخرجها من بني عبد مناف .

ورجع . فقال المغيرة بن شعبة وكان قد لحق بأمر المؤمنين بعد أن قال لأمر المؤمنين إنه قاعد في داره .

— الرأي ما رأي سعيد .. من كان هنا من ثقيف فليرجع .

واستأنف الـركب سيره ، وحن أوان الصلاة ، فأذن مروان ، ثم جاء حتى وقف على بطلحة والزبير وقال :

— أيكما أسلم بالأمر وأؤذن بالصلاة ؟

فقال عبد الله بن الزبير :

— على أبي عبد الله .

وقال محمد بن بطلحة :

— بل على أبي بطلحة .

وأطلت الفتنة بخطمها وكاد الشقاق يقع لولا أن تداركت عائشة الأمر فأرسلت إلى مروان :

— مالك ، أتريد أن تفرق أمرنا ! فليصل ابن أختي .

فصلى عبد الله بن الزبير بالناس ، ترى ما يكون الأمر ، أيحلى الزبير بين طلحة
والأمر . أم يحلى طلحة بين الزبير والأمر ؟
ورحل القوم ، وكانوا كلما مروا على ماء أو واد سألوا الدليل عنه حتى طرقوا
ماء ، فأخذت الكلاب تنبح ، وسألوا الدليل :
— أى ماء هذا ؟

— ماء الحوآب .

فعادت الذكرى بعائشة القهقرى ، فتذكرت يوم قال النبى لنسائه : « ليت
شعري أيتكن التى تنبحها كلاب الحوآب » ، ففرغت وصرخت بأعلى صوتها :
— أنا والله صاحبة كلاب الحوآب طروقاً ، ردونى ، أنا صاحبة كلاب الحوآب
ردونى ردونى .

وضربت عضد بغيرها وأناخته ، فأناخ الناس حولها ، وانقضى يوم وعائشة لا
تبرح مكانها ، ولا تثنى عن عزمها . بل تطلب منهم أن يردوها ، وانقضى الليل
وقبل أن تشرق الشمس كان عبد الله بن الزبير قد فكر ودبر . فجاء أم المؤمنين وهو
يصبح :

— النجاة .. النجاة ، فقد أدرككم والله على بن أبى طالب .

جاء علياً خبر عائشة وطلحة والزبير ، فخرج وهو يرجو أن يأخذهم
بالطريق ، فيحول بينهم وبين الخروج ، فلقى عبد الله بن سلام ، فأشفق على
خروجه فأخذ بعنانه وقال :

— يا أمير المؤمنين ، بالله لا تخرج منها ، فوالله لئن خرجت منها لا يعود إليها
سلطان المسلمين أبداً .

فسبه الناس ، فقال الإمام :

— دعوا الرجل ، فنعم الرجل من أصحاب محمد ﷺ .

وخرج على من مدينة الرسول قاصداً الربرة ليرد الخارجين ، ولكن بلغه أنهم

فاقوه ، فعزم على أن يخرج في آثارهم ، وقابل بعض حجاج الكوفة أمير المؤمنين في الربذة وعلّموا بما عزم عليه ، فبان في وجوههم الحيرة ، فما كانوا يدرون أينضمون إلى عليّ ويقاثلون طلحة والزبير وأم المؤمنين أم يخالسونه ؟ إن هذا لشديد .

وعلم الحسن داعية السلام ما عزم عليه أبوه فأتاه وقال له :

— قد أمرتك فعصيتني فتقتل غداً بمضيعة لا نامر لك .

— إنك لا تزال تحن حنين الجارية ، وما الذي أمرتني فعصيتك ؟

— أمرتك يوم أحيط بعمّان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ،

ثم أمرتك يوم قُتل ألا تباع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر ، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فملا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد كان على يد غيرك ، فعصيتني في ذلك كله .

— أي بُنى ، أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعمّان فوالله لقد أحيط

بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تباع حتى تأتي بيعة الأمصار ، فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام ووالله ما زلت مقهوراً قد وليت ، منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغي ، وأما قولك اجلس في بيتك فكيف لي بما قد لزمني أو من تريدني ، أتريد أن أكون مثل الضبع التي يُحاط بها ويُقال دياب دياب ليست ههنا حتى يحل عرقوبها ثم تخرج . وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعينني فمن ينظر فيها ؟ فكف عنك أي بني .

وأقام الإمام بالربذة أياماً ، وأتاه عن القوم أنهم يريدون البصرة فسرى بذلك عنه وقال :

— إن أهل الكوفة أشدّ إلّيّ حباً وفيهم رعوس العرب وأعلامهم .

وأنته جماعة من طيء قد أتتك منهم من يريد الخروج معك . ومنهم من يريد

التسليم عليك .

— جزى الله كلا خيراً ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً .

ثم دخلوا عليه فقال :

— ما شهدتمونا به ؟

— شهدناك بكل ما تحب .

— جزاكم الله خيرا ، فقد أسلمتم طائعين وقاتلتم المرتدين ووافيتم بصدقاتكم المسلمين ، فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن من الناس من يعبر لسانه عما في قلبه ، وإني والله ما كل ما أجد في قلبي يعبر عنه لساني وسأجهد وبالله التوفيق ، وأما أنا فسنصح لك في السر والعلانية وأقاتل عدوك في كل موطن ، وأرى لك من الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك .

— رحمك الله ، قد أدى لسانك عما يجن ضميرك .

وقام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال :

— يا أمير المؤمنين ، أى شئ تريد ، وإلى أين تذهب بنا ؟

— أما الذى نريد وننوى فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه .

— فإن لم يجيبونا إليه ؟

— ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصير .

— فإن لم يرضوا ؟

— ندعهم ما تركونا .

— فإن لم يتركونا ؟

— امتنعنا منهم .

— فنعم إذا .

وخرج أمير المؤمنين بعد أن بعث محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر برسالة إلى الكوفة وكان على مقدمته أبو ليلي بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية ، وعلى الميمنة عبد الله بن عباس وعلى الميسرة عمر بن أبى سلمة .

— بلغ عثمان بن حنيف عامل البصرة لعل بن أبى طالب أن طلحة والزبير وأم

المؤمنين قد بلغوا فناء البصرة ، فقام فقال :

— يا أيها الناس ، إنما بايعكم الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ، والله لو علم علي أن أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبائع من بايعوا وأطاع من ولوا ، وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة وما بأحد عنه غنى ، ولقد شاركهم في محاسنهم وما شاركوه في محاسنهم ، ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريد الله ، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ، وطلبنا ثواب الله من العباد . وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين ، فإن كانا استكرها قبل بيعتهما وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولوا ولا يأمرنا ، ألا وإن الهدى ما كانت عليه العامة ، والعامة على بيعة علي ، فما ترون أيها الناس ؟

فقام حكيم بن جبل العبدى فقال :

— نرى إن دخلا علينا قاتلناهما ، وإن وقها تلقيناها ، والله لا أبالي أن أقاتلها وحدي وإن كنت أحب الحياة ، وما أخشى في طريق الحق وحشة ولا غيره ولا غشاً ولا سوء منقلب إلى بعث ، وإنها الدعوة قتيلها شهيد ، وحيها فائز ، والتعجيل إلى الله قبل الأجر خير من التأخير في الدنيا ، وهذه ربيعة معك .
ورأى عثمان بن حنيف أن يبعث إلى القادمين عمران بن حصين ، وكان رجل عامة ، وأبا الأسود الدؤلى وكان رجل خاصة ، ليعلما له علمهم . فانطلقا حتى إذا جاءا طلحة ناديا :

— يا طلحة .

فأجابهما ، فتكلم أبو الأسود الدؤلى فقال :

— يا أبا محمد ، إنكم قتلتم عثمان غير مؤمرين لنا في قتله ، وبايعتم علياً غير مؤمرين لنا في بيعته ، فلم نغضب لعثمان إذ قتل ولم نغضب لعلي إذ بويع ، ثم بدا لكم فأردتم خلع علي ونحن على الأمر الأول ، فعليكم المخرج مما دخلتم فيه .
ثم تكلم عمران فقال :

— يا طلحة ، إنكم قتلتم عثمان ولم تغضب له إذ لم تغضبوا ، ثم بايعتم علياً وبايعنا من بايعتم ، فإن كان قتل عثمان ثواباً فمسيركم لماذا ؟ وإن كان خطأ فحظكم منه الأوفر ، ونصييكم منه الأوفى .

فقال طلحة :

— يا هذان ، إن صاحبكما لا يرى أن معه في هذا الأمر غيره وليس على هذا بايعناه ، وأيم الله ليسفكن دمه .

فقال أبو الأسود :

— يا عمران ، أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب للملك .

ثم أتيا الزبير فقالا :

— يا أبا عبد الله ، إنا أتينا طلحة .

— إن طلحة وإيأى كروح في جسدين ، وإنه والله يا هذا ، قد كانت منا في عثمان فلتات احتجنا فيها إلى المعاذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه . وانطلقا حتى انتهيا إلى أم المؤمنين ، وكانت بالحفير والناس عندها ، فاستأذنا فأذنت لهما فسلما فقالا :

— إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟

— والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطي لبنيه الخبر ، إن الغوغاء من أهل الأمصار ، ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المؤمنين بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض ، وأقاموا في دار كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين ، غير نافعين ولا متقين ، لا يقدرُونَ على امتناع ولا يأمنون ، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا .

والتفتت إلى أبي الأسود فقالت :

— يا أبا الأسود ، إياك أن يقودك الهوى إلى النار ، ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ وخرج الرجلان وقد تبلبلت أفكارهما ، فما يفعلان أينضمان إلى عائشة فيقاتلان أمير المؤمنين وابن عم الرسول ، أم ينضمان إلى عليّ فيقاتلان زوجة الرسول وحواريّ الرسول ، ومن ذب عن الرسول يوم أحد حتى أصيبت يده ! والله إنها لحيرة كبرى ، وفكر عمران أن يعتزل ، وكان هوى أبنى الأسود مع عليّ ، فلما دخل على عثمان بن حنيف قال أبو الأسود :

يابن حنيف قد أتيت فانفر وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلثما وشمر

فقال عثمان بن حنيف :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، دارت رحي الإسلام ورب الكعبة ، فانظروا بأى زيفان نزيّف .

فقال عمران فى أسى :

— إى والله لتعركنكم عركاً طويلاً ثم لا يساوى ما بقى منكم شيء .

— فأشر على يا عمران .

— إنى قاعد فاقعد .

— بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين عليّ .

— بل يحكم الله ما يريد .

فانصرف عمران إلى بيته يعتزل وأتى عثمان هشام بن عامر فقال :

— يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يسلم إلى شيء مما تكره ، إن هذا فتق لا

يُرتق ، وصدع لا يجبر ، فسأعهم حتى يأتى أمر عليّ ، ولا تحادهم .

فأتى ونادى عثمان فى الناس وأمرهم بالتهيؤ ، ولبسوا السلاح واجتمعوا إلى

المسجد الجامع ، وأقبل عثمان على الكيد فكاد لينظر ما عندهم ، وأمرهم بالتهيؤ

وأمر رجلاً ودسه إلى الناس فقام وقال :

— يا أيها الناس ، أنا قيس بن العقدية الحميسى ، إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم

خائفين فقد جاءوا من المكان الذى يأمن فيه الطير ، وإن كانوا جاعوا يطلبون بدم
عثمان رضى الله عنه ، فما نحن بقتلة عثمان ، أطيعونى فى هؤلاء القوم فردوهم من
حيث جاءوا .

فقام الأسود بن سريع السعدى فقال :

— أوزعموا أنا قتلة عثمان رضى الله عنه ، فإنما فرعوا إلينا يستعينوا بنا على قتلة
عثمان منا ومن غيرنا ، فإن كان القوم أخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم من
إخراجهم الرجال أو البلدان .

فحصبه الناس ، فعرف عثمان أن لهم بالبصرة نصراً بمن يقوم معهم ، فكره
ذلك . وأقبلت عائشة رضى الله عنها فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المربد ودخلوا من
أعلاه أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه ، وخرج إليها من أهل البصرة من
أراد أن يخرج إليها ويكون معها ، فاجتمعوا بالمربد ، وجعلوا يثوبون حتى غص
بالناس ، فتكلم طلحة ثم الزبير وكان أنصار عائشة فى ميمنة المربد وأنصار على فى
ميسرة فما انتهى الزبير من كلمته حتى قال من فى ميمنة المربد :
— صدقا وبراً وقالوا الحق ، وأمرنا بالحق .

وقال من ميسرته :

— فجرا وغدرا وقالوا الباطل وأمرابه . قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان .
وتجافى الناس وتحاصبوا وأرهبوا ؛ فتكلمت عائشة وكانت جهورية ساحرة
الإلقاء ؛ فأعارها الجميع السمع ، فحمدت الله جل وعز وأثنت عليه وقالت :
— كان الناس يتجنون على عثمان رضى الله عنه ، ويزرون على عماله ويأتوننا
بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ، ونجدهم فجرة كذبة يحاولون غير ما
يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم
الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر ، ألا إن مما ينبغى لا ينبغى لكم غيره
أخذ قتلة عثمان رضى الله عنه وإقامة كتاب الله عز وجل ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا
نصييا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴾

فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين فقالت فرقة :

— صدقت والله وبرت وجاءت والله بالمعروف .

وقال الآخرون :

— كذبتم والله ما نعرف ما تقولون .

وقال جارية بن قدامة السعدى :

— يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ، إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك ، إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك . إن كنت أتيتنا طائعة فارجمى إلى منزلك ، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعينى بالناس .

فخرج غلام شاب من بنى سعد إلى طلحة والزبير :

— أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ﷺ ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله ﷺ بيدك ، وأرى أمكما معكما فهل جثتما بنسائكما ؟

— لا . .

— فما أنا منكما فى شيء .

واعتزل وقال :

صنتم حلائلكم وقدمتم أمكم	هذا لعمرك قلعة الإنصاف
أمرت بجر ذبولها فى بيتها	فهوت تشق اليد بالإيجاف
غرضاً يقاتل دونها أبناؤها	بالنبيل والخطى والأسيف
هتكت بطلحة والزبير ستورها	هذا الحبر عنهم والكفاف

واستعد أصحاب عثمان للقتال ، وبزغت الشمس فدار القتال وكثر القتلى فى أصحاب ابن حنيف وفشت الجراحة فى الفريقين ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون حتى إذا مسهم الشر وعضهم نادوا أصحاب عائشة إلى الصلح فأجابوهم وتواعدوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة فإن رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير بالأمر أمرهما وإن شاء عثمان خرج حتى

يلحق بطيبة ، وإن شاء دخل معها ، وإن رجع بأنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان ، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة عليّ ، وإن شاء أخرجا حتى يلحقا بطيبتهم ، والمؤمنون أعوان الفالح منهما .

وخرج الرسول حتى قدم المدينة فاجتمع الناس لقدمه ، فقام فقال :
— يا أهل المدينة ، إني رسول أهل البصرة إليكم ، أكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علي أم أتياها طائعين ؟
فلم يجبه أحد من القوم ، إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قام فقال :
— اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان .

وثار أنصار عليّ فالتفوا به ، وثار عدة من أصحاب رسول الله حين خافوا أن يقتل أسامة فانفرجوا عنه . وأخذ صهيب بيده فأدخله منزله وقال :
— قد علمت أن أم عامر حامية ، أما وسعك ما وسعنا من السكوت .
— لا والله ما كنت أرى أن الأمر يترامى إلى ما رأيت وقد أبعنا العظيم .
وبلغ عليّا الخبر الذي كان بالمدينة من ذلك ، فبادر بالكتاب إلى عثمان ، وقدم الكتاب على عثمان بن حنيف وقدم رسول القوم إلى المدينة ، فأرسلوا إلى عثمان أن أخرج عنا فاحتج عثمان بالكتاب وقال :
— هذا أمر آخر غير ما كنا فيه .

ودخلوا على عثمان في قصره فضربوه وشتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشعار عينية .

وتكلم طلحة . ثم قام الزبير ليتكلم فأظهر عيب عليّ ، فقام إليه رجل من عبد القيس فقال :

— أيها الرجل أنصت حتى نتكلم .

فقال عبد الله بن الزبير :

— ومالك ولل كلام ؟

— يا معشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ ، فكان لكم بذلك

فضل ، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم ، فلما توفي رسول الله ﷺ بايعتم رجلا منكم ، والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك فرضينا واتبعناكم ، فجعل الله عز وجل للمسلمين في إمارته بركة ، ثم مات رضى الله عنه واستخلف عليكم رجلا منكم فلم تشاورونا في ذلك فرضينا وسمعنا ، فلما توفي الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه على غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً من غير مشورة ، فما الذى نقيم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بغيره أو عمل بغير الحق أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه ، وإلا فما هذا ؟

فضاق صدر القوم فإن ما يقوله الرجل حق ، فقد كانت البيعة بيعة الأنصار والمهاجرين بالمدينة فما كانوا يشاورون الأنصار قبل أن يرموا أمرهم ، فما بالهم يأتونهم اليوم يطلبون منهم قتال أمير المؤمنين ؟ فهموا بقتل الرجل ولكن قام من دونه عشيرته ، فصبر القوم وقد عزموا على أمر ، وانقضى اليوم فلم يستطيعوا أن ينسوا ذلك الرجل الذى أفحهمهم ، وبزغت شمس اليوم الثانى فخرجوا لقتله ، ولكنهم وجدوا أناساً معه ، فهجموا على الرجل فقتلوه وقتلوا معه سبعين رجلاً .

١٩

خرج محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن جعفر من الريزة ، وانطلقا برسالة على إلى الكوفة ، وأغذا في السير حتى دخلا على الناس ، فقام محمد بن أبى بكر يقرأ كتاب أمير المؤمنين :

— إني اخترتكم على الأمصار ، وفزعت إليكم لا حدث ، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً وأيدونا وانفضوا إلينا ، فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة إخواناً ، ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره ، ومن بغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه .

وراح محمد يحادث وجوه القوم ، وجعل محمد بن جعفر يزين للناس الخروج

ويطلب منهم أن ينفروا لعلّى ، ولكن الناس لم يجيبوهما إلى شيء ، فلما جاء المساء دخل الناس على أبي موسى الأشعري عامل الكوفة وقالوا له :

— ما ترى في الخروج ؟

— كان الرأي بالأمس ليس باليوم ، إن الذي تهاونتم به فيما مضى هو الذي جر عليكم ما ترون ، وما بقى إلّا هما أمران ، القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا فاختراروا .

وبلغ محمد بن أبي بكر أن أبا موسى يثبط الناس عنهم ، فثار ودخل ومحمد بن جعفر عليه ، وأغلظا له في القول ، فقال :

— والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما ، فإن لم يكن بد من قتال ، لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا .

وفشلا في سفارتهما فلم ينفر أحد لنصرة عليّ ، فعادا ليلغا أمير المؤمنين ما فعل أبو موسى .

وسار عليّ من الربرة ، والقبائل تنضم إليه في سيره حتى انتهى إلى ذي قار ، فقدم عليه عثمان بن حنيف وليس في وجهه شعر ، فلما رآه عليّ نظر إلى أصحابه ، فقال :

— انطلق هذا من عندنا وهو شيخ فرجع إلينا وهو شاب .

* * *

انطلق محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى عليّ فوافياه بذي قار وأخبراه الخبر وكان الأشتر عنده ، فقال عليّ :

— يا أشتر أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض في كل شيء ، اذهب أنت وعبد الله بن عباس فأصلح ما أفسدت .

فخرج عبد الله بن عباس ومعه الأشتر ، فقدموا الكوفة ، وكلما أبا موسى ، واستعاننا عليه بأناس من الكوفة فقال أبو موسى للكوفيين :

— أنا صاحبكم يوم الجرعة وأنا صاحبكم اليوم .

فجمع الناس فخطبهم وقال :

— يا أيها الناس ، إن أصحاب النبي ﷺ الذين مسحوه في المواطن أعلم بالله عز وجل وبرسوله ﷺ ممن لم يصحبه ، وإن لكم علينا حقًا ، فأنا مؤديه إليكم ، كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تجترئوا على الله عز وجل ، وكان الرأي الثاني أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ولا تكلفوا الدخول في هذا ؛ فأما إذا كان ما كان فإنها فتنة صماء ، النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من الراكب ، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف ، وانصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار ، وآووا المظالم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة .

وفشل الأشر و ابن عباس في سفارتهما ، فرجع ابن عباس إلى عليّ بالخبر ، فدعا الحسن فأرسل معه عمار بن ياسر فقال له :

— انطلق فأصلح ما أفسدت .

فانطلق الحسن بن عليّ و عمار بن ياسر إلى أهل الكوفة ، فقام الأشر إلى عليّ فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إني بعثت إلى أهل الكوفة رجلا قبل هذين فلم أره أحكم شيئًا ولا قدر عليه ، وهذان أخلق من بعثت أن ينشب بهم الأمر على ما تحب ، ولست أدري ما يكون ، فإني رأيت أكرمك الله يا أمير المؤمنين أن تبعثنى في أثرهم فإن أهل المصر أحسن شيء لي طاعة ، وإن قدمت عليهم رجوت ألا يخالفني منهم أحد .

— الحق بهم .

أقبل الحسن و عمار حتى دخلا المسجد ، وبلغ أبا موسى وصول الحسن فخرج لاستقباله ، فلما لقيه ضمه ، وأقبل أبو موسى على عمار فقال :

— يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين ، فأحلت نفسك مع

الفجار ؟.

— لم أفعل ، ولم تسوؤنى ؟.

وكاد الحديث بينهما يشتد ، ولكن الحسن قطعه عليهما ، فأقبل على أبى موسى وقال :

— يا أبا موسى ، لم تثبط الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء .

— صدقت بأبى أنت وأمى . ولكن المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب . وقد جعلنا الله إخوانا وحرم علينا أموالنا ودماءنا وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ وقال جل وعز ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ .

فغضب عمار وسأه وقام وقال :

— يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا قَالَ لَهُ خَاصَّةٌ أَنْتَ فِيهَا قَاعِدًا خَيْرٌ مِنْكَ قَائِمًا .

فقام رجل من بنى تميم فقال لعمار :

— اسكت أيها العبد ، أنت أمس مع الغوغاء واليوم تسافه أميرنا .

وثار الناس ، وجعل أبو موسى يكفكف الناس ، ثم انطلق حتى أتى المنبر ، فقام رجل فقال :

— يا أبا موسى ، هل كان هذان الرجلان ممن بايع عليًا ؟.

— نعم .

— هل أحدث حدثًا يحل نقض بيعته ؟

— لا أدري .

— لا دريت ، فإننا تاركوك حتى تدري ، يا أبا موسى هل تعلم أحدًا خارجًا من

هذه الفتنة التي تزعم أنها هي فتنة ، إنما بقى أربعة قرون ، على بظهر الكوفة

وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة أخرى بالحجاز لا يجبى بها فئ ، ولا يقاتل بها عدو .

— أولئك خير الناس .

— يا أبا موسى غلب عليك غشك .

ودخل الأشر الكوفة وقد اجتمع الناس في المسجد الأعظم ، فجعل لا يمر بقبيلة يرى فيها جماعة في مجلس أو مسجد إلا دعاهم ويقول :

— اتبعوني إلى القصر .

وأقبل زيد بن عبد القيس رسول عائشة إلى أهل الكوفة ، فوقف بباب المسجد ، وترجل وربط حماره ، ثم صعد المنبر يقرأ على الناس كتاب أم المؤمنين : — أما بعد فشطوا أيها الناس واجلسوا في بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

فلما فرغ من الكتاب قال :

— أمرت بأمر وأمرنا بأمر : أمرت أن تقر في بيتها فأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به وركبت ما أمرنا به .

فعجب الناس لرسول عائشة ، فقام إليه شيبث بن ربعي فقال :

— يا عماني ، سرقت بجلواء فقطعك الله ، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله ، ما أمرت إلا بما أمرنا الله عز وجل بالإصلاح بين الناس .

وتهاوى الناس وقام أبو موسى فقال :

— أيها الناس ، أطيعوني تكونوا جراثومة من جراثيم العرب ، يأوى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف . إنا أصحاب محمد ﷺ أعلم بما سمعنا ، إن الفتنة إذا أقبلت شبت ، وإذا أدبرت بينت ، وإن هذه الفتنة باقرة كداء البطن ، تجري بها الشمال والجنوب ، والصبا والدبور ، فتسكن أحيانا فلا يدري من أين تؤتى ، تذر الحليم كابن أمس . شيموا سيوفكم ، فصددوا رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزموا بيوتكم ، خلوا قريشا إذا أبوا إلا الخروج من دار الهجرة

وفراق أهل العلم بالإمرة ترتق فتقها ، وتشعب صدعها ، فإن فعلت فلأنفسها سعت ، وإن أبت فعلى أنفسها جنت ، سمها تهريق في أديمها ، استنصحونى ولا تستغشونى ، وأطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم ، ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها .

فصاح الحسن به :

— اعتزل عملنا لا أم لك ، وتنح عن منبرنا .

فقال له عمار :

— أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟

— هذه يدى بما قلت .

— إنما قال لك رسول الله ﷺ هذا خاصة ، فقال : أنت فيها قاعدا خير منك قائما . غلب الله من غالبة وجاحده .

وقام زيد رسول عائشة فشال يده المقطوعة فقال :

— يا عبد الله بن قيس ، رد الفرات عن دراجه ، اردده من حيث يجىء حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد ، فدع عنك ما لست مدركه ، سيروا إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق .

وخرج على الناس غلمان لأبى موسى يشتدون ينادون :

— يا أبا موسى ، هذا الأشر قد دخل القصر فضر بنا وأخرجنا .

فهرع أبو موسى إلى القصر ، وقام القعقاع بن عمرو فقال :

— إنى لكم ناصح وعليكم شفيق ، أحب أن ترشدوا ولأقولن لكم قولاً هو الحق ، أما ما قال الأمير فهو الأمر لو أن إليه سبيلاً ، وأما ما قال زيد فزيد فى هذا الأمر فلا تستنصحوه ، فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طعن فيها وجرى إليها ، والقول هو القول إنه لا بد من إمارة تنظم الناس وتزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا على يلى بما ولى وقد أنصف فى الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا

(أهل البيت)

الأمر بمرأى ومسمع .

وقال سيحان :

— أيها الناس ، إنه لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعز المظلوم ويجمع الناس . وهذا واليكم يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه ، وهو المأمون على الأمة ، الفقيه في الدين ، فمن نهض إليه فإننا سائرون معه .

وتذكر الحسن أنه نصح أباه مراراً أن يعتزل الأمر ، ولكن هاهي حجج تمحق حجته ، فلمن كان يدع الإمام الظالم والمظلوم لو عمل بنصيحة الحسن واعتزل الناس ، وأطرق الحسن قليلاً فقام عمار فقال :

— هذا ابن عم رسول الله ﷺ يستنفركم إلى زوجة رسول الله ﷺ وإلى طلحة والزبير ، وإني أشهد أنها زوجته في الدنيا والآخرة ، فانظروا ثم انظروا في الحق فقاتلوا معه .

فقال رجل :

— يا أبا اليقظان ، هو مع من شهدت له بالجنة على من لم تشهد له .

فقال الحسن :

— اكفف عنا يا عمار فإن للإصلاح أهلاً .

وقام الحسن بن علي فقال :

— يا أيها الناس ، أجيئوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن يليه أولو النهى أمثل في العاجلة ، وخير في العاقبة ، فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم .

وقام هند بن عمرو فقال :

— إن أمير المؤمنين قد دعانا وأرسل إلينا رسله حتى جاءنا ابنه ، فاسمعوا إلى قوله ، وانتهوا إلى أمره ، وانفروا إلى أميركم فانظروا معه في هذا الأمر وأعينوه برأيكم .

وقام حجر بن عدى فقال :

— أيها الناس ، أجيئوا أمير المؤمنين وانفروا خفافا وثقالا ، مروا أن أمر لكم .
وقال الحسن :

— أيها الناس ، إني غاد فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ومن شاء
فليخرج في الماء .

١٠

قدم أهل الكوفة على الإمام في ذي القار ، فدعا القعقاع بن عمرو فأرسله إلى
أهل البصرة وقال له :

— الق هذين الرجلين يابن الحنظلية ، فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم
عليهما الفرقة . كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه منى وصاة .
— نلقاهم بالذى أمرت به ، فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى
اجتهدنا الرأى ، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي .
— أنت لها .

فخرج القعقاع حتى قدم البصرة فبدأ بعائشة رضى الله عنها فسلم عليها وقال :

— أى أمه ، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟

— أى بنى ، إصلاح بين الناس .

— فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما .

فبعثت إليهما فجاءا فقال :

— إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد فقالت إصلاح بين
الناس ، فما تقولان أنما ، أمتابعان أم مخالفان ؟
— متابعان .

— فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح ، فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه
لا نصلح .

— قتلة عثمان رضى الله عنه ، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل به

كان إحياء القرآن .

— قتلنا قتلة عثمان من أهل البصرة ، فأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذي أفلت فمنعه ستة آلاف وهم على رجل ، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأدبلوا عليهم ، فالذي حذرتم وقرئتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير .

فقالت أم المؤمنين :

— فتقول أنت ماذا ؟

— أقول هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بئار هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثار وبعثة الله في هذه الأمة هزاهزها ، فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له ، فيصرعنا وإياكم ، وأيم الله إني لأقول وأدعوكم إليه وإني خائف ألا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها ، ونزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذي حدث ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل .

— نعم ، إذا قد أحسنت وأصبت المقالة ، فارجع فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر .

وانطلق القعقاع مسرورا ، فقد حسب أنه قد وفق لحقن دماء المسلمين ، وقفل عائدا إلى أمير المؤمنين وقص عليه ما جرى فأعجبه ذلك ، وذاع في معسكر عليّ نبأ اتفاق القوم على الصلح ، فأظهر الناس سرورهم ، ونام عليّ وخطبهم وقال :
— ألا وإني راجل غدا فارتحلوا ، ألا ولا يرتحلن غدا أحد أعان على عثمان رضى

الله عنه ، بشيء في شيء من أمور الناس ، وليغن السفهاء عن أنفسهم .
وكان ابن سبأ الذي قلب الأمصار على عثمان يستمع إلى خطبة عليّ فساءه أن
يكون صلحا ، إنه يريد الفرقة للمسلمين ، وإنه ليعمل على توسيع شقة الخلاف
بينهم منذ أسلم إلى اليوم ، فما بال القوم يفكرون في الاتفاق ، إن هذا لن يكون .
وانطلق ابن سبأ يفكر ، فوسوس له شيطانه أن يجمع من اشترك في قتل عثمان
ليوغر صدورهم على هذا الصلح فيعملوا على تعكيره وعدم وقوعه .
 واجتمع بنفر ممن مشوا إلى عثمان ، وراحوا يديرون قداح الرأي بينهم ،
فقالوا :

— ما الرأي وهذا والله عليّ وهو أبصر الناس بكتاب الله ممن يطلب قتلة
عثمان ، وأقربهم إلى العمل بذلك وهو يقول ما يقول ، ولم ينفر إليه سوانا والقليل
من غيرنا ، فكيف به إذا شام القوم وشاموه ، وإذا رأوا قتلنا في كثرتهم ؟
فقال أحدهم :

— رأى الناس فينا والله واحد ، وإن يصطلحوا وعليّ فعلى دمائنا ، فهلموا
فلنتواثب على عليّ فنلحقه بعثمان فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون .
فقال ابن سبأ :

— بئس الرأي رأيت .

واستمر القوم في حوار ، وكاد عقدهم ينفرط دون أن يتخذوا قرارا ، فقال
أحدهم :

— أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا ، ولا تؤخروا أمرا ينبغي لكم تعجيله ، ولا
تعجلوا أمرا ينبغي لكم تأخير ، فإننا عند الناس بشر المنازل ، فما أدرى ما الناس
صانعون غدا إذا ما هم التقوا .

فقال ابن السوداء ما كان قد بيت عليه العزم :

— إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم ، وإذا التقى الناس غدا فأنشبوا القتال ،
ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجدون بدا من أن يمتنع ، ويشغل الله عليا

وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون .
فأعجبهم الرأى ، وعزموا عليه ، وانصرفوا جميعاً يبيتون الغدر ، وانصرف ابن
سبأ كما ينصرف الشيطان بعد أن تتم غوايته .

* * *

وقدم على البصرة فدخل مما يلي الطف ، فورد موكب نحو ألف فارس يتقدمهم
أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول الله ، على فرس أشهب ، عليه قلنسوة وثياب
بيض ، متقلدا سيفاً ، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض والصفرة مدججين
في الحديد والسلاح ، ثم تلاهم خزيمه بن ثابت الأنصارى ذو الشهادتين ، عليه
عمامة صفراء وثياب بيض متقلدا سيفاً ، متنكب قوساً معه راية على فرس أشقر ،
في نحو ألف فارس ، ثم أقبل أبو قتادة بن ربعى على فرس كميت معتم بعمامة صفراء
من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباء أبيض مصقول ، متقلدا سيفاً ، متنكب قوساً في
نحو ألف فارس من الناس ومعه راية ، ثم أقبل عمار بن ياسر في عدة من الصحابة من
المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، وعمار على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة
سوداء ، قد سد لها بين يديه ومن خلفه ، شديد الأدمة ، عليه سكينه ووقار ، رافع
صوته بقراءة القرآن متقلدا سيفاً متنكب قوساً ، معه راية بيضاء ، في ألف من
الناس مختلفى التيجان ، حوله مشيخة وكهول وشباب ، كأن قد أوقفوا
للحساب ، أثر السجود قد أثر في جباههم ، ثم أقبل قيس بن سعد بن عبادة
الأنصارى على فرس أشقر عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراء متنكب
قوساً ، متقلدا سيفاً تخط رجلاه في الأرض في ألف من الأنصار وغيرهم من
قحطان ، الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض ، معه راية صفراء ، ثم أقبل عبد
الله بن عباس وما رأى الناس أحسن منه ، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سد لها
بين يديه بلواء ، في عدة من أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم أقبلت المواكب
والرايات يقدم بعضها بعضاً واشتبكت الرماح ، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس
كأن على رعوسهم الطير فقد كان يقدمهم على بن أبى طالب ابن عم الرسول

وخليفة المسلمين ، والإمام العظيم وعن يمينه وشماله الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وريحاننا الرسول ومحمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى ، وخلفه عبد الله بن جعفر ، ابن أخيه وزوج ابنته زينب ، وولد عقيل وغيرهم من فتيان بنى هاشم ومشايخ أهل بدر من المهاجرين والأنصار .
وانطلقوا حتى نزلوا الزاوية ، فصلى على أربع ركعات ، وعفر خديه على التربة وقد خالط ذلك دموعه ، ثم رفع يديه يدعو :

— اللهم رب السموات وما أظلت ، والأرضين وما أقلت ، ورب العرش العظيم ؛ هذه البصرة أسألك من خيرها ، وأعوذ بك من شرها ، اللهم أنزلنا فيها خير نزل ، وأنت خير المنزلين ، اللهم هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي ، وبغوا على ، ونكثوا بيعتي ، اللهم احقن دماء المسلمين .

ونزل على بحيال جيوش عائشة وطلحة والزبير ، فنزلت القبائل إلى قبائلهم ؛ مضر إلى مضر ، وربيعه إلى ربيعة ، واليمن إلى اليمن ، وكانت تبشير الصلح تلوح في الأفق ، فقد كان بعضهم يخرج إلى بعض ولا يتحادثون إلا في الصلح ، ومشت السفارات بين المعسكرين وأصبح الصلح أمراً مؤكداً ، لا شية فيه ، وأقبل الليل ونام الناس ، وراح عبد الله بن سبأ يعمل على إنفاذ ما يبت بليل ، فوضع رجلاً قريئاً من على ، وقبل أن يتنفس الصبح ، خرج أتباع ابن سبأ فغدوا مع الغلس ، وانسلوا إلى المعسكر الآخر انسلالا ، وأخذ المضيرون يضعون سيوفهم في المضربين ، واليمانيون في اليمانيين وأهل ربيعة في أهل ربيعة فثار المعسكر وانتشرت الجلبة فخرج على يسأل عن الخبر ؟ فقال له الرجل الذي وضعه ابن سبأ :
— ما فجعنا إلا وقوم منهم يبتونا فرددناهم من حيث جاءوا ، فوجدنا القوم على رجل في كبونا وثار الناس .

فدعا على صاحب ميمته وميسرته وقال :

— لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمه وأنهما لا يطاوعانا . واستمر السبائية ينشبون القتال وعلى يصيح :

— أيها الناس كفوا .

وأسرع رجل إلى عائشة فلما دخل عليها صاح :

— أدركي فقد أوى القوم إلا القتال لعل الله يصالح بك .

وحمل الناس هودجها وشدوه إلى الجمل ، وكان من دفوف الخشب قد ألبسوه المسوح وجلود البقر وجعلوا دونه اللبود ، قد غشي على ذلك بالدروع وأقبلت عائشة على هودجها فلما برزت من البيوت وكانت يميث تسمع الغوغاء وقفت ، فلم تلبث أن سمعت غوغاء شديدة فقالت :

— ما هذا ؟

— ضجة العسكر .

— بخير أو بشر ؟

— بشر .

وقالت للآخذ بخطام ناقتها :

— خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه .

فانطلق كعب يحمل المصحف ويدعوهم إلى كتاب الله فخشي أصحاب ابن سبأ الصلح ، فرشقوه رشقاً واحداً فقتلوه ، وراحوا يرمون عائشة في هودجها ، فجعلت تنادى :

— يا بنية ، البقية البقية ، الله الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب .

ولكن أنصار ابن سبأ صموا آذانهم ، فقالت عائشة للناس :

— أيها الناس ، العنوا قتلة عثمان وأشياعهم .

وأخذت تدعو وضج أهل البصرة بالدعاء ، وسمع علي بن أبي طالب جلبة ، فقال :

— ما هذه الضجة ؟

— عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم .

فدعا علي :

— اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم .

وخرج عمار بن ياسر على فرسه بين الصفين فقال :

— أيها الناس ، ما أنصفتم نبيكم حيث كففتم عتقاء تلك الخدور وأبرزتم عقيلته
للسيوف .

فرشقوه بالنبل ، وتواتر عليه الرمي واتصل ، فحرك فرسه وزال عن موضعه
فقال :

— ماذا تنتظر يا أمير المؤمنين ، وليس لك عند القوم إلا الحرب .

فقام الإمام وقال :

— أيها الناس ، إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيرا ، ولا
تتبعوا موليا ، ولا تطلبوا مدبرا ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، ولا تهتكوا
سترًا ، ولا تقربوا من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد
أو أمة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله .
وخرج عليّ بنفسه حاسرًا على بغلة رسول الله ﷺ ، لا سلاح عليه ،
فنادى .

— يا زبير . اخرج إليّ .

فخرج شاكيًا في سلاحه .

فقبل لعائشة فأحست رعبًا فقد كانت تعلم أن مصير من يخرج لابن أبي طالب
تجرع كأس المنون ، وأشفقت على زوج أختها فقالت :

— واحرباه بأسماء .

— إن عليًا حاسر .

فاطمأنت وسكن روعها ، واعتنق كل واحد منهما صاحبه ، فقال له عليّ في
عتاب :

— ويحك يا زبير ما الذي أخرجك ؟

— دم عثمان .

— قتل والله أولانا بدم عثمان ، أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ في بني
بياضة وهو راكب خماره ، فضحكك إلى رسول الله ، وضحكت أنت معه ،
فقلت أنت : يا رسول الله ، ما يدع عليّ زهوه ، فقال لك ليس به زهو ، أتجبه يا
زبير ؟، فقلت : إني والله لأجبه ، فقال لك : إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم .
— أستغفر الله ، لو ذكرت ما خرجت .

— يا زبير ارجع .

— وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان ؟ هذا والله العار الذي لا
يُغسل .

— يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع بالعار والنار .

فرجع الزبير وقد طأطأ رأسه ، وسار لترك الميدان فهرع إليه ابنه فقال :
— أين تدعنا ؟

— يا بني ، أذكرني أبو الحسن بأمر كنت قد أنسيته .

— لا والله لكنك فررت من سيف بني عبد المطلب ، فإنها طوال حداد تحملها
فتية أنجاد .

— لا والله ، ولكنني ذكرت ما أنسانيه الدهر فاخترت العار على النار ، أبالجبن
تعيرني لا أبالي .

وثارث ثائرة الزبير فأمال سناناه وشد في الميمنة ، وفطن عليّ إلى ما يكابده الزبير
فقال لرجاله :

— أفرجوا له فقد هاجوه .

ثم رجع الزبير فشد في الميسرة ، ثم رجع فشد في الثلب ، ثم عاد إلى ابنه فقال :
— أيفعل هذا جبان ؟

ثم مضى منصرفاً . واشتدت المعركة فزحف الإمام نحو الجمل بنفسه في كتيبه
الخضراء من المهاجرين والأنصار وحوله بنوه حسن وحسين ومحمد ، ودفع الراية
إلى محمد وقال :

— تزول الجبال ولا تزول ، عض على ناجذك ، أعز الله جمجمتك ، تد في الأرض قدميك ، ارم ببصرك أقصى القوم ، وغض بصرك ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه وتعالى .

وتقدم محمد فرشته السهام ، فقال لأصحابه :

— رويدًا حتى تنفذ سهامهم ، فلم يبق لهم إلا رشقة أو رشقتان .

وتريث محمد قليلا فبعث إليه على :

— احمل .

وانتظر الإمام أن يبدأ ابنه المناجزة ، ولكن محمدًا أبطأ عليه فجاءه بنفسه من خلفه فوضع يده اليسرى على منكبه الأيمن . وقال له :

— أقدم لا أم لك .

فقال محمد :

— يا أمير المؤمنين ، أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر ؟

فدفع في صدره وقال :

— أدركك عرق من أمك .

ثم أدركت عليًا رقة على ولده ، فتناول الراية منه بيده اليسرى . وذو الفقار مشهور في يمينه ثم قال :

اطعن بها طعن أبيك محمد لا خير في الحذب إذا لم توقد

بالمشرقي والقنصل المسدد

وحمل على فغاص في عسكر الجمل ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته ، فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار :

— نحن نكفيك يا أمير المؤمنين .

فلم يجب أحدًا منهم ، ولا رد إليهم بصره ، وظل ينحط ويزأر زئير الأسد حتى فرق من حوله ، وتبادروه وإنه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة ، لا يبصر من حوله ولا يرد حوارًا . ثم رفع الراية إلى محمد وقال :

— امح الأولى بالأخرى وهذه الأنصار معك .
فحمل محمد في جمع من الأنصار كثير منهم من أهل بدر ، فحمل حملات كثيرة
أزال بها القوم عن مواقفهم ، فاقرب خزيمة بن ثابت من الإمام فقال :
— أما إنه لو كان غير محمد اليوم لافتضح .
وقالت الأنصار :

— يا أمير المؤمنين ، لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدمنا على محمد
أحدًا من العرب .

فقال عليّ عليه السلام :
— أين النجم من الشمس والقمر ، أما إنه قد أغنى وأبلى وله فضله ، ولا ينقص
فضل صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه .
— يا أمير المؤمنين ، إنا والله لا نجعله كالحسن والحسين ولا نظلمهما له . ولا
نظلمه لفضلهما عليه حقه .

— أين يقع ابنى من ابنى بنت رسول الله ﷺ ؟
ودارت رحى المعركة الرهيبة ، فحمل الإمام حملة ثانية وحده ، فدخل
وسطهم فضربهم بالسيف قدمًا قدمًا ، والرجال تفر من بين يديه ، وتنحاز عنه يمنة
ويسرة حتى خضب الأرض بدماء القتلى ، ثم رجع وقد انحنى سيفه ، فأقامه
بركبته ، فاعصرو صلبه أصحابه ، وناشدوه الله في نفسه وفي الإسلام ، وقالوا :
— إنك إن تصب يذهب الدين ، فأمسك ونحن نكفيك .
— والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله .

واستمرت المعركة واشتدت وبدت الهزيمة تدب في صفوف عائشة قالتف
الناس حول الهودج ، وأقبل عليّ وعمار والأشتر والأنصار يريدون الجمل فاقتتل
الناس حوله حتى حال بينهم الليل .
ونشب القتال وكان الهودج هدف الإمام ورجاله ، ورأى طلحة انهزام جيشه
وأنصاره فرفع يديه إلى السماء وقال :

— اللهم إن كنا قد داهنا في أمر عثمان وظلمناه فخذ له اليوم منا حتى ترضى .
ورأى مروان تضع روح طلحة ، فخشى أن تدور عليهم الدوائر لو انسحب
كما انسحب الزبير ، فغمغم :

— لا أبالي رميت ههنا أم ههنا .

فرماه في أكحله ، فوقع صريعاً يجود بأنفاسه ، فمر به القعقاع فقال له :

— يا أبا محمد ، إنك لجريح ، فادخل الأبيات .

فالتفت طلحة إلى غلامه وقال :

— يا غلام أدخلني وابغني مكاناً .

ورأى عليّ ثبات الناس حول الجمل ، فهتف :

— اعقروا الجمل .

وحمل الناس على الجمل ، وضربه رجل فسقط ، فتفار الناس حوله ، فأسرع
القعقاع ونفر معه بإنزال الهودج عن ظهر البعير ، وتركوه بين القتلى وكأنه قنفذ مما
رمى فيه من النبل ، وأمر عليّ ابن أبي بكر أن ينطلق إلى أخته ليحملها بعيداً عن
القتلى وقال له :

— انظر هل وصل إليها شيء ؟

فانطلق محمد وعمار بن ياسر حتى أتيا الهودج فأدخل رأسه فيه فقالت عائشة :

— من أنت ؟ ويلك ؟

— أبغض أهلك إليك .

— من ؟

— أخوك البر .

— عقوق .

وقال عمار بن ياسر :

— كيف رأيت بنيك اليوم يا أمه ؟

— من أنت ؟

— أنا ابنك عمار .

— لست لك بأم .

— بلى وإن كرهت .

وهدأت نفس عائشة ونظرت إلى محمد وغمغت :

— الحمد لله الذى عافاك .

وحمل الهودج من بين القتلى ووضعوه بعيداً ينتظرون أوامر على فيه ، وأقبل الليل ونشر لواءه الأسود على ميدان القتال ، فحجب القتلى ، فجاء على ومعه قنبر وفى يده مشعلة من نار يتصفح القتلى حتى وقف على طلحة ، فظهر الحزن فى وجهه وقال :

— أعزز على أبا محمد أن أراك معفراً تحت نجوم السماء وفى بطون الأودية .

واستمر يتصفح القتلى ، ويستغفر لهم ، ثم أمر أن يجمعوا ليصلى عليهم أجمعين ،

وانتهى إلى عائشة فقال لها :

— أى أمه يغفر الله لنا ولكم .

— غفر الله لنا ولكم .

٢١

انطلق محمد بن أبى بكر بعائشة أخته فى سكون الليل إلى البصرة ، فأنزلها دار عبد الله بن خلف ، وتسلى الجرحى فى جوف الليل إلى البصرة ، ولاذ بعضهم بعائشة ، ونعى لها الزبير ، فاشتد حزنها عليه ، فقد خرجت وطلحة والزبير لناواة أمير المؤمنين ، فقتل طلحة وانسحب الزبير من المعركة فقتل غدراً ، وها هى فى دار ابن خلف بعد أن حاقت الهزيمة بجيوشها ، وانتصر ابن أبى طالب نصرًا مؤزرًا .

والتف الناس بمحمد بن الحنفية وجعلوا يحدثونه فقد كان يزحف نحو الجمل زحف الأسود ، وقال له أحدهم :

— لم يغرر بك أبوك في الحرب ، ولا يغرر بالحسن والحسين ؟

— إنهما عيناها وأنا يمينه ، فهو يدفع عن عينيه يمينه .

ومر يومان ولم يدخل على البصرة ، وشاء أنصار الإمام أن يوزع عليهم أموال أنصار طلحة والزبير ، فمشوا إليه وسألوه أن يقسم فيهم أموال المهزومين ، فأبى عليهم ، فانصرفوا ولم ترض نفوس أصحاب ابن سبأ ، وجعلوا يهمسون ويطعنون في عليّ في الخفاء ، وبلغ عليّاً أن أنصاره يقولون :

— كيف يحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم ؟.

فجمع القوم وقال لهم :

-- أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه ؟

فسكت القوم وطأطأوا رءوسهم فقد صفعهم ابن أبي طالب فلم تتحرك شفاههم ، ووئدت في نفوسهم فكرة تقسيم أموال المهزومين فيهم .

ونادى الإمام عبد الله بن عباس ، وبعثه إلى عائشة يأمرها بالخروج إلى المدينة ، فانطلق ابن عباس إلى دار ابن خلف ، ولم يستأذن بل دخل إلى عائشة بغير إذنها ، ولم يستأذن في الجلوس إليها ، بل جذب وسادة فجلس عليها ، فنظرت إليه عائشة في غضب فقالت :

— يا ابن عباس ، أخطأت السنة المأمور بها ، دخلت علينا بغير إذنا ، وجلست على رحلنا بغير أمرنا .

فقال ابن عباس في هدوء :

— لو كنت في البيت الذي خلقت فيه رسول الله ﷺ ما دخلنا إلا بإذن ، وما جلسنا على رحلك إلا بإذنك . إن أمير المؤمنين يأمرك بسرعة العودة ، والتأهب للخروج إلى المدينة .

— أبيت ما قلت ، وخالفت ما وصفت .

وأعرضت عنه ، فقام إلى أمير المؤمنين وأخبره بامتناعها ، فردّه إليها فدخل إليها فقال :

— إن أمير المؤمنين يعزم عليك أن ترحلى .

فوافقت وأجابت إلى الخروج .

وفى صبيحة اليوم الثالث لانتهاء المعركة دخل الإمام البصرة ، واتجه إلى عائشة ، ومعه الحسن والحسين وباقي أولاده وأولاد إخوته ، وفتيان أهله من بنى هاشم ، وانطلق على بغلته فلما انتهى إلى دار عبد الله بن خلف ألفى صفية بنت الحارث تبكى على عبد الله وعثمان بن خلف ، فلما رآته رفعت رأسها إليه وقالت : — يا علىّ ، يا قاتل الأحبة ، يا مفرق الجمع ، أيتم الله بنيك منك ، كما أيتمت ولد عبد الله منه .

فلم يرد عليها شيئا ، ولم يزل علىّ حتى دخل على عائشة ، فسلم وقعد عندها وقال لها :

— جبهتنا صفية . أما إني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم .

وتحدث علىّ وعائشة ، ورأت أم المؤمنين صفاء نفسه فشاءت أن تطمئن على ابن الزبير ابن أختها ، فسألته أن يؤمن عبد الله فأمنه ، وتكلم الحسن والحسين في مروان فأمنه . ولكن بنى أمية لم يذكروا لهما ذلك ولم يحفظوه ، وما ضر الحسن والحسين فقد عبرا عن سجيتهما الخيرة الطيبة . وكشنت بنو أمية لما جد الجد عن الحقد الدفين الذى توارثه الأبناء عن الآباء .

وخرج الإمام من عندها بعد أن أمن الناس جميعا . وقابلته صفية بمثل ما استقبلته به فقال رجل من أنصار علىّ :

— والله لا تفلتنا هذه المرأة .

فغضب علىّ والتفت إليه وقال :

— صه ، لا تهتكن سترا ، ولا تدخلن دارا ، ولا تهيجن امرأة بأذى . وإن شتمن أعراضكم ، وسفهن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف ، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات . إن الرجل ليكافئ المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده ، فلا يبلغنى عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس .

ومضى علىّ فلحق به رجل فقال :

— يا أمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمضى لك شتيمة من صفية .

— ويحك لعلها عائشة .

— نعم . قام رجلان منهم على باب الدار فقال أحدهما : جزيت عنا أمنا عقوقا .

وقال الآخر : يا أمنا توبى فقد خطئت .

فظهر الغضب في وجه علىّ ، وأمر القعقاع أن ينطلق ويقبل بمن كان على الباب ، فلما مثلوا بين يدي علىّ ، وعلموا غضبه أحالوا على رجلين ، فقال للقعقاع :

— اضرب أعناقهما .

فظهر الفزع في وجه الرجلين ، وسأله من حوله الرأفة فيهما ، فقال : — لأنهنهما عقوبة .

فضربهما مائة مائة ، وأخرجهما من ثيابهما ، وانصرف علىّ بعد أن نال ممن نال من أم المؤمنين .

وتجهزت عائشة للخروج إلى المدينة ، وأمدّها الإمام بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع ، وأمر لها باثني عشر ألفاً من المال ، وحانت ساعة الرحيل فأقبل الناس لوداعها . وأقبل الإمام والحسن والحسين ، وقبل أن تنطلق من البصرة التفتت إلى الناس وقالت :

— يا بني تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدين أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك ، إنه والله ما كان بيني وبين علىّ في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندي على معتبتي من الأخيار .

فقال علىّ :

— صدقت والله وبرت ، ما كان بيني وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ

(أهل البيت)

في الدنيا والآخرة .

وتحرك الركب ، وخرج على ليشيع عائشة أميالا ، وسرح بنيه معها يوما .
واستعمل الإمام عبد الله بن عباس على البصرة وقال له :
— أوصيك بتقوى الله عز وجل ، والعدل على من ولاك الله أمره ، اتسع للناس
بوجهك وعلمك وحكمك ، وإياك والإحسان فإنها تميم القلب والحق . واعلم أن
ما قربك من الله بعدك من النار ، وما قربك من النار بعدك من الله ، اذكر الله كثيرا
ولا تكن من الغافلين .

واستمر ركب عائشة في سيره ، وكان كل من فيه مشغولا بفكره ، فراحت
عائشة تفكر في خروجها ، فتمنت أنها لم تخرج ، وتمنت أنها ماتت قبل هذا اليوم
بعشرين سنة ، وجعل الرجال الذين بعثهم أمير المؤمنين معها يخدمونها في الطريق
فكانت تحس ضيقا وحرجا كلما خدموها أو حملوها . وبلغ الركب مكة في أوان
الحج ، فحج القوم ، ثم انطلقوا إلى المدينة ، فلما بلغت أم المؤمنين خف الناس
لاستقبالها ، وقيل لها :

— كيف رأيت مسيرك ؟

— كنت بخير الله ، لقد أعطى علي بن أبي طالب فأكثر ، ولكنه بعث معي
رجالا .

واقترب منها الرجال الذين بعثهم معها ، وخلعوا عمايمهم ، فهدل الشعر
الطويل فقد كن نسوة من ذوات الدين من عبد قيس وهمدان وغيرهما ، ألبسن
العمايم وتقلدن السيوف ، فلما انكشف لعائشة أمرهن قالت :

— ما ازددت يا بن أبي طالب إلا كرما ، وددت أني لم أخرج ، إنما قيل لي :
تخرجين فتصلحين بين الناس .

خرج الإمام من البصرة قاصداً الكوفة ، فقدمها ومعه أشراف الناس وأهل البصرة ، فاستقبله أهل الكوفة وقالوا له :
— أى القصرين تنزل .

فلم يشأ أن ينزل القصر الذى نزل فيه أمراء الجور وعمال أهل النفاق والشقاق فقال :

— قصر الخبال لا تنزلونه .

فنزل على جعدة بن هبيرة المخزومي ، فقد كان جعدة ابن أخت أم هانى بنت أبى طالب . دخل عليه سليمان بن صرد الخزاعي ، فقال له الإمام :
— ارتبت وتربصت وراوغت ؛ وقد كنت من أوثق الناس فى نفسى وأسرعهم — فيما أظن — إلى نصرتي ، فما قعد بك عن أهل بيت نبيك ، وما زهدك فى نصرهم ؟

— يا أمير المؤمنين ، لا تردن الأمور على أعقابها ، ولا تؤنبنى بما مضى منها ، واستبق مودتى تخلص لك نصيحتى . وقد بقيت أمور تعرف فيها وليك من عدوك .

فسكت عنه ، وجلس سليمان قليلا ، ثم نهض وخرج وقد أثر فيه عتاب الإمام وعزله . وانطلق إلى المسجد . فألقى الحسن بن على جالساً ، فاتجه إليه وقال له :
— ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التبكيت والتوبيخ ؟
— إنما يعاتب من تُرجى مودته ونصيحته .

— إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا ، وينتضى فيها السيوف ، ويحتاج فيها إلى

أشباهي ، فلا تستغشوا عتبي ، ولا تتهموا نصيحتي .

— رحمك الله . ما أنت عندنا بالظنين .

وقدم عقيل بن أبي طالب ، وكان قد كف بصره على أمير المؤمنين فوجده جالساً في صحن المسجد فقال :

— السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

— والسلام عليك يا أبا يزيد .

ثم التفت إلى ابنه الحسن وقال :

— قم فأنزل عمك .

فقام فأنزله إليه ثم عاد فقال : — اذهب فاشتر لعمك قميصاً جديداً ورداء جديداً ، وإزاراً جديداً ، ونعلاً جديداً .

فذهب واشترى له ، فغدا عقيل على عليّ في الثياب الجديدة فقال :

— يا أمير المؤمنين ما أراك أصبت من الدنيا شيئاً ، وإني لا ترضى نفسي من خلافتك بما رضيت به لنفسك .

— يا أبا يزيد يخرج عطائي فأدفعه إليك .

— إنما أريد من بيت المال .

— تقيم إلى يوم الجمعة .

وجاء يوم الجمعة فصعد الإمام المنبر فخطب :

— إن الحمد لله ، أحمدوه وأستعينه وأستهديه ، وأعوذ بالله من الضلالة ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . انتجبه لأمره . واختصه بالنبوة . أكرم خلقه وأحبهم إليه ، فبلغ رسالة ربه . ونصح لأمته ، وأدى الذي عليه ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله ، وأقربه لرضوان الله ، وخيره في عواقب الأمور عند الله . وبتقوى الله أمرتم . وللإحسان والطاعة خلقتكم ، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه ، فإنه حذر بأساً شديداً . واخلشوا

الله خشية ليست بتعذير . واعملوا في غير رياء ولا سمعة ، فإن من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل له ، ومن عمل لله مخلصا تولى الله أجره ، وأشفقوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثا ، ولم يترك شيئا من آثاركم سدى . قد سمى آثاركم ، وعلم أعمالكم ، وكتب آجالكم ، فلا تغروا بالدنيا فإنها غرارة بأهلها ، مغرور من اغتر بها ، وإلى فناء ما هي ، وإن الآخرة هي دار الحيوان لو كانوا يعلمون . أسأل الله منازل الشهداء ، ومرافقة الأنبياء ، ومعيشة السعداء . فإنما نحن له وبه .

وصلى بالناس ثم أقبل على أخيه فقال له :

— ما تقول فيمن خان هؤلاء أجمعين ؟

— بش الرجل .

— فإنك أمرتني أن أخونهم وأعطيك .

فأطرق عقيل ولكن دينه كان يهمه ، فعزم على أن يشخص إلى معاوية . وأخذ الإمام يبعث الأمراء إلى الأمصار ، ويكتب إلى العمال في الآفاق . فبعث الأشر على الموصل ، وسعد بن قيس بن عبادة على مصر ، وكتب إلى جرير بن عبد الله البجلي ، وكان جرير عاملا لعثمان على همدان ، فكتب إليه :

« أما بعد ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال . وإنى أخبرك عن نبأ من سرنا إليه من جموع طلحة والزبير ، عند نكثهم بيعتهم ، وما صنعوا بعاملي عثمان بن حنيف . إنى هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار ، حتى إذا كنت بالعذيب بعثت إلى الكوفة بالحسن بن علي وعبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد بن عبادة ، فاستنفروهم فأجابوا ، فسرت بهم حتى نزلت بظهر بصرة فأعذرت في الدعاء ، وأقلت العثرة ، وناشدتهم عقد بيعتهم ، فأبوا إلا قتالي ، فاستعنت بالله عليهم ، فقتل من قتل وولوا مدبرين إلى مصرهم ، فسألوني ما كنت دعوتهم إليه قبل اللقاء ، فقبلت العافية ، ورفعت السيف واستعملت عليهم عبد الله بن عباس ، وسرت إلى الكوفة ، وقد بعثت إليكم زمر بن قيس فاسأله عنا وعنهم » . فانطلق

الرسول حتى إذا ما بلغ همدان دفع بالكتاب إلى جرير فلما قرأه قام فقال :
— أيها الناس ؟ هذا كتاب من أمير المؤمنين ، عليّ بن أبي طالب ، وهو المأمون
على الدين والدنيا ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما نحمد الله عليه ، وقد بايعه
الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، ولو جعل هذا الأمر
شورى بين المسلمين كان أحقهم بها ، ألا وإن البقاء في الجماعة والفناء في الفرقة .
فقال الناس :

— رضينا رضيينا .

فأجاب جرير وكتب جواب كتابه بالطاعة ، ثم أقبل جرير سائراً من ثغر همدان
حتى ورد على عليّ ، فبايعه ودخل فيما دخل فيه الناس ، من طاعة عليّ وال لزوم
لأمره .

انطلق عقيل إلى الشام ثم دخل على معاوية فرحب به ، وسرّ بوروده ، لاختياره
إياه على أخيه ، فقد كان في وروده دعاية لمعاوية ، فسيقول معاوية لأهل الشام إنه
عرف الذي فيه أخوه من الغواية والضلال فأناب إلى أهل الدعاء إلى الحق ، وأقبل
معاوية على عقيل فقال له :

— يا أبا يزيد ، كيف تركت عليّاً ؟

— تركته على ما يحب الله ورسوله ، وألفيتك على ما يكره الله ورسوله .

فقال معاوية متصنعا الحلم :

— لولا أنك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك أبا يزيد جواباً تألم منه .

وخشى معاوية أن يمتد الجدل بينهما فيأقّي عقيل بشيء يخفضه ، فوثب معاوية
عن مجلسه ، وأمر له أن ينزل ، وحمل إليه مالا عظيماً .

ولما كان من غد جلس وأرسل إليه فقد حسب معاوية أن ما أعطاه كفيلاً بأن

يطلق لسانه بالحمد والثناء ، فأتاه فقال له :

— يا أبا يزيد ، كيف تركت عليّاً أخاك ؟

— تركته خيرا لنفسه منك ، وأنت خير لى منه .

— أنت والله كما قال الشاعر :

وإذا عددت فخار آل محرق فالمجد منهم فى بنى عتاب
فمحل المجد من بنى هاشم منوط فيك يا أبا يزيد ما تغيرك الأيام والليالى .
اصبر لحرب أنت جانيتها لا بد أن تصلى بحاميتها
وأنت والله يابن أبى سفيان كما قال الآخر :

وإذا هوازن أقبلت بفخارها يوما فخرتهم بآل مجاشع
بالحاملين على الموالى عزمهم والضارين الهام يوم القارع
ولكن أنت يا معاوية إذا افتخرت بنو أمية فمن تفخر ؟

— عزمت عليك أبا يزيد لما أمسكت ، فإنى لم أجلس لهذا ، وإنما أردت أن
أسألك عن أصحاب على ، وابدأ بآل صوحان ، فإنهم مخاريق الكلام .
— أما صعصعة فعظيم الشأن ، غضب اللسان ، قائد فرسان ، قاتل أقران ،
يرتق ما فتق ، ويفتق ما رتق ، قليل النظر . وأما زيد وعبد الله فإنهما نهران
جاريان ، يصب فيهما الخلجان ، ويغاث بهما البلدان ، رجلا جد لا لعب معه ،
وأما بنو صوحان فكما قال الشاعر :

إذا نزل العدو فإن عندى أسودا يجلس الأسد النفوسا

٢٣

جاء جرير بن عبد الله حتى نزل الكوفة ، فأراد الإمام أن يبعث إلى معاوية
رسولا فقال له جرير :

— ابعثنى إلى معاوية ، فإنه لم يزل لى مستنصحا ودودا ، آتية فأدعوه على أن
يسلم لك هذا الأمر ، وبجامعك على الحق ، على أن يكون أميرا من أمرائك ،
وعاملا من عمالك ، ما عمل بطاعة الله ، واتبع ما فى كتاب الله ، وأدعو أهل

الشام إلى طاعتك وولايتك ، وجلهم قومي وأهل بلادى ، وقد رجوت ألا يعصونى .

فقال له الأشر :

— لا تبعثه ودعه ، ولا تصدقه ، فوالله إني لأظن هواه هواهم ، ونيته نيتهم .

فقال له على :

— دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا .

وقال الإمام لجرير :

— إن حولى من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الدين والرأى من قد رأيت ، وقد اخترتك عليهم ، لقول رسول الله ﷺ فيك : « إنك من خير ذى يمن » . إيت معاوية بكتابى ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فانبذ إليه وأعلمه أنى لا أرضى به أميراً وأن العامة لا ترضى به خليفة .

فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية ، فدخل عليه فحمد الله وأثنى عليه

وقال :

— أما بعد يا معاوية ، فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصرين ، وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل مصر ، وأهل العررض وعمان وأهل البحرين واليمامة ، فلم يبق إلا أهل هذه الحصون التى أنت فيها ، لو سال عليها سيل من أوديته أغرقها ، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل . ودفع إليه كتاب على بن أبى طالب ، ففضه وقرأ :

— « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« فإن بيعتى بالمدينة لزمته وأنت بالشام ؛ لأنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً ، كان ذلك لله رضا ، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المسلمين . وولاه الله ما تولى

ويصليه جهنم، وساءت مصيرا، وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي . وكان نقضهما كردهما . فجاهدتها على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلى فيك العافية ، إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك . وقد أكرت في قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله ، فأما تلك التي تريد ها فخدعت الصبي عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان . واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة . ولا تعرض فيهم الشورى . وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله . وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع ولا قوة إلا بالله » . فلما انتهى معاوية من قراءة الكتاب ، قام جرير فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

— أيها الناس ، إن أمر عثمان قد أعيا من شهبه ، فما ظنكم بمن غاب عنه ، وإن الناس بايعوا علياً غير واثق ولا موتور ، وكان طلحة والزبير مما بايعه ثم نكثا بيعته على غير حدث . ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن ، ألا وإن العرب لا تحتمل السيف . وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس ، وقد بايعت العامة علياً ، ولو ملكنا الله أمورنا لم نختر لها غيره ، ومن خالف هذا استعتب ، فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس ، فإن قلت : استعملني عثمان ثم لم يعزلني ، فإن هذا أمر لو جاز لم يقيم لله دين ، وكان لكل امرئ ما في يديه ، ولكن الله لم يجعل للآخرة من الولاة حق الأول .

فقال معاوية :

— انظر ونظر ونستطلع رأى أهل الشام .

ومرت أيام ولم يبايع معاوية فاستحثه جرير بالبيعة ، فقال :

— يا جرير ، إنها ليست بخلسة ، وإنه أمر له ما بعده فأبلغني ريقى حتى أنظر .

ودعا معاوية ثقاته ، فقال له عتبة بن أبي سفيان :

— اجتمعن على هذا الأمر بعمر بن العاص ، وأئمن له بدينه فإنه من قد عرفت ، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته وهو لأمرك أشد اعتزالا إن ير فرصة . فكتب معاوية إلى عمرو :

« أما بعد ، فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك ، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة ، وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي ، وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني . أقبل أذاكرك أمرا » . فلما بلغ الكتاب عمرا جمع ابنه عبد الله ومحمدا ، فقال :

— ابني ما تريان ؟

فقال عبد الله :

— أرى أن نبي الله ﷺ قبض وهو عنك راض ، والخليفتان من بعده ، وقتل عثمان وأنت عنه غائب ، فقر في منزلك فليست مجعولا خليفة ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة ، أو شك أن تهلك فتشقى فيها . وقال محمد :

— أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها ، وإن تصرم هذا الأمر وأنت فيه حامل تصاهر أمرك ، فالحق بجماعة أهل الشام فكز يدا من أياديها . واطلب بدم عثمان ، فإنك قد استنمت فيه إلى بني أمية .

— أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لي في ديني ، وأما أنت يا محمد فأمرتنى بما هو خير لي في دنياي ، وأنا ناظر فيه .

وجنه الليل ، فسقط فريسة لأفكاره ، إن معاوية يطلبه ويعرض عليه الدنيا ، وإنه ليخشى الخروج ، ففي الخروج مناوأة للحق ، وإيغال في النفاق والخداع ، وظل يفكر طول الليل حتى إذا ما أصبح الصباح دعا غلامه وردان فقال :

— ارحل يا وردان .

وتأهب وردان للخروج فعاد عمرو وقال له :

— حط يا وردان .

وسقط فريسة لأفكاره مرة أخرى ثم قال :

— ارحل يا وردان ، احطط يا وردان .

فقال له وردان :

— خلط أبا عبد الله ، أما إنك إن شئت أنبأتك بما في نفسك .

— هات ويحك .

— اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : عليّ معه الآخرة في غير دنيا ،

وفي الآخرة عوض الدنيا ، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة ، وليس في الدنيا عوض من الآخرة ، فأنت واقف بينهما .

— فإنك والله ما أخطأت ، فما ترى يا وردان ؟

— أرى أن تقيم في بيتك . فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم ، وإن ظهر

أهل الدنيا لم يستغنوا عنك .

— الآن لما شهدت العرب مسيرى إلى معاوية ؟

فسار حتى قدم إلى معاوية فقال معاوية :

— يا أبا عبد الله ، إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذى عصى ربه وقتل

الخليفة ، وأظهر الفتنة ، وفرق الجماعة وقطع الرحم .

فقال عمرو متغايا :

— إلى من ؟

— إلى جهاد عليّ .

— والله يا معاوية ما أنت وعلى بعكمى بعير . مالك هجرته ولا سابقته ، ولا

صحبته ولا جهاده ولا فقهه وعلمه . والله إن له مع ذلك حدًا وجدا ، وحظًا

وحظوة ، وبلاء من الله حسنًا ، فما بحقك إن شايعتك على حربيه ، وأنت تعلم ما

فيه من الغدر والخطر ؟

— حكمتك .

— مصر طعمة .

— يا أبا عبد الله ، إني أكره أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا .

— دعني عنك .

— إني لو شئت أن أمتيك وأخذتك لفعلت .

— لا لعمر و الله ، ما مثلي يخدع ، لأننا أكيس من ذلك .

— ادن مني برأسك أسارك .

فدنا منه عمرو يساره ، فعض معاوية أذنه وقال :

— هذه خدعة . هل ترى في بيتك أحداً غيري وغيرك ؟

ولم يوافق معاوية على أن يعطى عمراً مصر طعمة . فدخل عليه عتبة بن أبي سفيان فقال :

— أما ترضى أن نشترى عمراً بمصر إن هي صفت لك ! فليتك لا تغلب على الشام .

وبات عمرو عند معاوية وأصبح فأعطاه مصر طعمة له . وكتب له بها كتاباً وقال :

— ما ترى في عليّ ؟

— أرى فيه خيراً ، أتاك في هذه البيعة خير أهل العراق ، ومن عند خير الناس في أنفس الناس ، ودعواك أهل الشام في رد هذه البيعة خطر شديد ، ورأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي ، وهو عدو لجريير المرسل إليك . فأرسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس أن علياً قتل عثمان ، وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب ، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبداً .

وبعث معاوية إلى شرحبيل فلما دخل عليه قال :

— يا شرحبيل ، إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة عليّ ، وعليّ خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان ، وقد حبست نفسي عليك ، وإنما أنا رجل من أهل

الشام ، أرضى بما رضوا وأكره ما كرهوا .
— أخرج فأنظر .

فخرج شرحبيل ، فقابل الرجال الذين دسهم له معاوية ، فكلهم يخبر أن علياً
قتل عثمان بن عفان فغضب وثارَت نفسه ، وتيقن أن الإمام قتل عثمان ، فرجع إلى
معاوية وقد ضاق صدره حنقاً ، فقال في انفعال :

— يا معاوية ، أبى الناس إلا أن علياً قتل عثمان . والله لئن بايعت له لنخرجنك
من الشام أو لنقتلنك .

— ما كنت لأخالف عليكم ، وما أنا إلا رجل من أهل الشام ، فرد هذا الرجل
إلى صاحبه إذا .

وهدأت نفس معاوية فقد نال أربه . وعرف أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في
حرب أهل العراق .

وراح شرحبيل يسير في مدائن الشام وينادى فيهم بأن علياً قتل عثمان وأنه يجب
على المسلمين أن يطلبوا بدمه ، وكان يقوم خطيباً فيقول :

— يا أيها الناس ، إن علياً قتل عثمان بن عفان ، وقد غضب له قوم فقتلهم ،
وهزم الجميع وغلب على الأرض فلم يبق إلا الشام ، وهو واضع سيفه على عاتقه ثم
خائض به غمار الموت حتى يأتىكم ، أو يحدث الله أمراً ، ولا نجد أحداً أقوى على
قتاله من معاوية ، فجدوا وانهضوا .

كان هم معاوية أن يثبت ملكه في الشام ، وكان يرى أن علياً سيقوض أركانه
فلو أنه ضمن أن يدعه الإمام في شامه لما خرج لحربه ولما قلب عليه الناس .
وأتى جريراً في منزله فقال :

— يا جرير ، إني قد رأيت رأياً .

— هاته .

— اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جباية ، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل
لأحد بعده بيعة في عنقى ، وأسلم له هذا الأمر ، وأكتب إليه بالخلافة .

— اكتب بما أردت ، وأكتب معك .

فكتب معاوية بذلك إلى عليّ ، وترقب ما يكتبه الإمام في قلق فقد كان يعلم أن عليّاً رجل المبادئ لا يحيد عن هدفه ، ولا يدهن في دينه ، وجاء كتاب عليّ إلى جرير .

« أما بعد فإنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب ، وأراد أن يرثيك حتى يذوق أهل الشام ، وإن المغيرة بن شعبة قد كان أشار على أن أستعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة ، فأبيت ذلك عليه ، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلين عضداً . فإن بايعك الرجل ، وإلا فأقبل .

٢٤

أراد الحسن أن يتزوج في الكوفة ، فقال الإمام :

— لا تزوجه فإنه مطلق .

— والله يا أمير المؤمنين لو خطب إلينا كل يوم لزوجهنا منا ابتغاء في صهر رسول الله ﷺ .

وأبطأ جرير عند معاوية حتى اتهمه الناس ، وقال عليّ :

— وقت لرسولي وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً .

وطالت غيبة جرير حتى أيس أمير المؤمنين ، ثم رجع إلى الإمام فكثر قول الناس في التهمة لجرير في أمر معاوية ، فاجتمع جرير والأشتر عند عليّ فقال الأشتر .

— أما والله يا أمير المؤمنين لو كنت أرسلتني إلى معاوية لكنت خيراً لك من هذا الذي أرخى من خناقه وأقام عنده ، حتى لم يدع باباً يرجو روحه إلا فتحه ، أو يخاف غمه إلا سده .

— والله لو أتيتهم لقتلوك ، وقد زعموا أنك من قتلة عثمان .

— لو أتيت يا جرير لم يعينى جوابها ، ولم يثقل عليّ حملها ، ولحملت معاوية

على خطة أعجله فيها عن الفكر .

— فائتهم إذا .

— الآن وقد أفسدتهم ووقع بينهم الشر !

فلما سمع جرير ذلك لحق بقرقيسيا . ولحق به أناس من قومه ، وأراد الإمام
المسير مع أهل الشام فدعا إليه من كان معه من المهاجرين والأنصار ، فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد ، فإنكم ميامين الرأي ، مراجيح الحلم ، مقاويل بالحق ، مباركوا
الفعل والأمر ، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأى .

فقام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وقال :

— أما بعد يا أمير المؤمنين ، فأنا بالقوم جد خبير ، هم لك ولأشياعك أعداء ،
وهم لمن يطلب حرث الدنيا أولياء ، وهم مقاتلوك ومجاهدوك ، لا ييقون جهداً ،
مشاحة على الدنيا ، وضناً بما في أيديهم منها ، وليس لهم إربة غيرها إلا ما يخدعون به
الجهال من الطلب بدم عثمان بن عفان ، كذبوا ليسوا بدمه يثأرون ، ولكن الدنيا
يطلبون . فسر بنا إليهم . فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال . وإن أبوا
إلا الشقاق فذلك الظن بهم . والله ما أراهم يبايعون وفيهم أحد ممن يطاع إذا نهى
ولا يسمع إذا أمر .

وقام عمار بن ياسر فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل . اشخص بنا قبل
استعار نار الفجرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادعهم إلى رشدهم
وحظهم ، فإن قبلوا سعدوا ، وإن أبوا إلا حربنا فوالله إن سفك دمائهم والجد في
جهادهم هو القربة عند الله ، وهو كرامة منه .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة فقال :

— يا أمير المؤمنين ، انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرد (تفر) ، فوالله لجهادهم
أحب إليّ من جهاد الترك والروم ، لإدهانهم في دين الله ، واستدلالهم أولياء الله من

أصحاب محمد ﷺ وآله ، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيروه وفيئنا لهم في أنفسهم حلال ، ونحن لهم فيما يزعمون قطين .

فقال شيخ الأنصار :

— لم تقدمت أشياخ قومك ، وبدأتهم يا قيس بالكلام ؟ .

— أما إني عارف بفضلكم ، معظم لشأنكم ، ولكنني وجدت في نفسي الضغن الذي جاش في صدوركم حين ذكرت الأحزاب .

فقال بعضهم لبعض :

— ليقم رجل منكم فليجب أمير المؤمنين عن جماعتكم ، قم يا سهل بن حنيف .

فقام سهل فقال :

— يا أمير المؤمنين ، نحن سلم لمن سلمت ، وحررت لمن حاربت ، ورأينا رأيك ونحن كفء يمينك . وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة ، فتأمرهم بالشخص ، وتخبرهم بما صنع الله لهم في ذلك من الفضل ، فإنهم هم أهل البلد وهم الناس ، فإن استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب ، وأما نحن فليس عليك منا خلاف . متى دعوتنا أجبتك ، ومتى أمرتنا أطعناك .

واجتمع أهل الكوفة في المسجد ، فقام الإمام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء السنن والقرآن ، سيروا إلى بقية الأحزاب ، قتلة المهاجرين والأنصار .

فقام رجل فقال :

— أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل البصرة فنقتلهم . كلا ، هاالله إذا لا

نفعل ذلك .

فقال الأشر :

— من لهذا أيها الناس ؟

وهرب الرجل واشتد الناس على أثره ، فلاحق بمكان من السوق فوطئوه بأرجلهم وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قتل . وقال الأشر :
— يا أمير المؤمنين ، لا يهذئك ما رأيت ، ولا يؤيسنك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقي الحائر ، إن جميع من ترى من الناس شيعتك ، وليسوا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ، ولا يحبون بقاء بعدك ، فإن شئت فسر بنا إلى عدوك ، والله ما ينجو من الموت من خافه ، ولا يعطى البقاء من أحبه ، وما يعيش بالآمال إلا شقي ، وإنا لعل بينة من ربنا أن نفسا لن تموت حتى يأتي أجلها ، فكيف لا نقاتل قوما هم كما وصف أمير المؤمنين ، وقد وثبت عصاة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس فأسخطوا الله ، وأظلمت بأعمالهم الأرض وباعوا خلاقهم بعرض من الدنيا يسير .

فقال الإمام :

— الطريق مشترك ، والناس في الحق سواك ، ومن اجتهد رأيه في نصيحة العامة فله ما نوى وقد قضى ما عليه .
ثم نزل ودخل منزله فدخل عليه ناس كثير ، فقام حنظلة بن الربيع التميمي فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منا ، ورأينا لك رأيا فلا ترده علينا ، فإننا نظرنا لك ولمن معك . أقم وكاتب هذا الرجل ، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام ، فإنني والله ما أدرى ولا تدري لمن تكون إذا التقيتم الغلبة ، وعلى من تكون الدبرة .

وقال ابن المعتم العبيسي :

— أما بعد ، فإن الله وارث العباد والبلاد ، ورب السموات السبع والأرضين السبع ، وإليه ترجعون ، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، أما الدبرة فإنها على الضالين العاصين ظفروا أو ظفريهم . وأيم الله إنى لأسمع كلام قوم ما أراهم يريدون أن يعرفوا معروفا ، ولا ينكروا منكرا .

(أهل البيت)

فقال رجال :

— يا أمير المؤمنين ، إن هؤلاء والله ما أتوك بنصح ولا دخلوا عليك إلا بغش ،
فاحذرهم فإنهم أدنى العدو .

واستمر القوم في جذب وشد فقام رجل فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن القوم لو كانوا الله يريدون أو الله يعملون ، ما خالفونا
ولكن القوم إنما يقاتلون فرارًا من الأسوة ، وحبا للأثرة ، وضنا بسلطانهم ،
وكرها لفراق دنياهم التي في أيديهم ، وعلى إحن في أنفسهم ، وعداوة يجدونها في
صدورهم ، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة ، قتلت فيها آباءهم
وإخوانهم .

ثم التفت إلى الناس فقال :

— فكيف يبايع معاوية عليًا وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجده عتبة
في موقف واحد . والله ما أظن أن يفعلوا ، ولن يستقيموا لكم دون أن نقصد
(نكسر) فيهم المران (الرماح اللينة الصلبة) ونقطع على هامهم السيوف ، وننثر
حواجبهم بعمد الحديد ، وتكون أمور جمعة بين الفريقين .

وخرج حجر بن عدى وعمرو بن الحمق يظهران البراءة واللعن من أهل
الشام ، فأرسل إليهما عليّ : أن كفا عما يبلغني عنكما ، فأتياه فقالا :

— يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقين ؟

— بلى .

— أوليسوا مبطلين ؟

— بلى .

— فلم منعنا من شتمهم ؟

— كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين تشتمون وتبزعون . ولكن لو
وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم : من سيرتهم كذا وكذا ، كان أصوب في القول ،
وأبلغ في العذر ، لو قلتم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءنا

ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهداهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق منهم من جهله ، ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به ، كان هذا أحب إليّ وخيراً لكم .

— يا أمير المؤمنين ، نقبل عظمتك ، ونتأدب بأدبك .

ساء الإمام الرجل السمع الكريم أن يكون رجاله لعانين شتامين فنصحهم أن يترفعوا عن سب أهل الشام في الأسواق . ولكن معاوية أوغل في العداوة فجعل يسب الإمام حياً وميتاً من فوق منابر المسلمين .

وقال عمرو بن الحمق :

— إني والله يا أمير المؤمنين ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك ، ولا إرادة مال تؤتينه ، ولا التماس سلطان يرفع ذكرى به ، ولكن أحببتك لخصال خمس : أنك ابن عم رسول الله ﷺ وآله ، وأول من آمن به ، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد ﷺ وآله ، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله ﷺ وآله ، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد ، فلو أني كلفت نقل الجبال الرواسي ، ونزح البحور الطوامي حتى يأتي على يومي في أمر أقوى به وليك وأوهم به عدوك ، ما رأيت أني قد أدبت فيه كل الذي يحق علي من حقلك .

فقال أمير المؤمنين :

— اللهم نور قلبه بالتقى ، واهده إلى صراط مستقيم ، ليت أن في جندي مائة مثلك !.

فقال حجر :

— إذا والله يا أمير المؤمنين صح خبرك وقل فيهم من يغشك .

وتبادلت الكتب بين الإمام ومعاوية وعمرو بن العاص ، وأطلت الحرب بوجهها ، فصعد الإمام المنبر فخطب الناس ودعاهم إلى الجهاد فقال :

— « إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته ، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه ، وتنجزوا موعوده ، واعلموا أن الله جعل أمراس الإسلام متينة ، وعراه

وثيقة ، ثم جعل الطاعة حظ الأنفس برضا الرب ، وغنيمة الأكياس عند تفريط الفجرة . وقد حملت أمر أسودها وأحمرها ، ولا قوة إلا بالله ، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه ، وتناول ما ليس له وما لا يدركه معاوية وجنده ، الفئة الباغية الطاغية ، يقودهم إبليس ، ويرق لهم ببارق تسويفه ، ويدليهم بغروره ، وأنتم أعلم الناس بحلاله وحرامه ، فاستغنوا بما علمتم ، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما أنالكم من الأجر والكرامة ، واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته ، والمغرور من أثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرفن أحدا منكم قال : في غيرى كفاية ، فإن الذود إلى الذود إبل ، ومن لا يزد عن حوضه يهدم ، ثم إني آمركم بالشدة في الأمر ، والجهاد في سبيل الله ، وألا تغتابوا مسلما ، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله .

ثم قام الحسن بن علي خطيبا فقال :

— « إن مما عظم الله عليكم من حقه . وأسبغ عليكم من نعمه ، ما لا يحصى ذكره ولا يؤدي شكره ، ولا يبلغه صفة ولا قول ، ونحن إنما غضبنا الله ولكم ، فإنه من علينا بما هو أهله أن نشكر فيه آلاءه وبلاءه ونعماءه قولا يصعد إلى الله فيه الرضا ، وتنتشر فيه عارفة الصدق ، يصدق الله قولنا ، ونستوجب فيه المزيد من ربنا ، قولا يزيد ولا يبید ، فإنه لم يجمع قوم قط على أسر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدتهم ، فاحتشدوا في قتال عدوكم ؛ معاوية وجنوده ، فإنه قد حضر ، ولا تخاذلوا ، فإن الخذلان يقطع نياط القلوب ، وإن الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة ، لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة .

ثم قام الحسين خطيبا فقال :

— يا أهل الكوفة ، أنتم الأحبة الكرماء ، والشعاردون الدثار ، جدوا في إحياء ما دثر بينكم ، وإسهال ما توعر عليكم ، وألفة ما ذاع منكم ؛ ألا إن الحرب شرها ذريع ، وطعمها فظيع ، وهى جرع متحساة ، فمن أخذ لها أهبتها واستعد لها

عدتها ، ولم يَألم كلومها عند حلولها ؛ فذاك صاحبها . ومن عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها ، فذاك قمن ألا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه . نسأل الله بعونه أن يدعمكم بألفته .

وخرج أهل الكوفة إلى النخيلة ، وجاء ابن عباس في وجوه أهل البصرة ، وانطلق الجيش إلى صفين لقتال أهل الشام .

٢٥

جاءت الأنباء إلى معاوية أن علياً نزل بالنخيلة وعسكر بها ، فدلف إلى المسجد وكان قد ألبسه قميص عثمان وهو مخضب بالدم ، فألقى حول المنبر الشيوخ ليكون لا تحجب دموعهم على عثمان ، فصعد المنبر فقال :

— يا أهل الشام ، قد كنتم تكذبوني في عليّ ، وقد استبان لكم أمره ، والله ما قتل خليفtekم غيره ، وهو أمر بقتله ، وألب الناس عليه ، وآوى قتلته ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه . وقد خرج بهم قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم . يا أهل الشام ، الله الله في عثمان . فأنا ولي عثمان وأحق من طلب بدمه ، وقد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً ، فانصروا خليفtekم المظلوم ، فقد صنع به القوم ما تعلمون ، قتلوه ظلماً وبغيًا ، وقد أمر الله بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله .

وقام عمرو بن العاص في الناس فقال :

— إن صناديد أهل الكوفة والبصرة تفانوا يوم الجمل ، ولم يبق مع عليّ إلا شرذمة قليلة من الناس ، وقد قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فالله الله في حقكم أن تضيعوه ، وفي دمكم أن تطلوه .

وكتب معاوية إلى أجناد الشام ، وتأهب ليخرج بنفسه كما خرج الإمام بنفسه ، يقود جيشه لحربهم .

انطلقت جيوش الإمام حتى بلغت الفرات . وأراد الإمام أن يعبر النهر فقال

لأهل الرقة :

— أجسروا لى جسراً لكى أعبر من هذا المكان إلى الشام .
فأبوا وقد كانوا ضموا السفن عندهم ، فنهض من عندهم ليعبر على جسر
منبج ، وخلف عليه الأشر ، فناداهم فقال :
— يا أهل هذا الحصن ، إني أقسم بالله لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند
مدينتكم حتى يعبر منها لأجردن فيكم السيف ، ولأقتلن مقاتلتكم ولأخربن
أرضكم ، ولأخذن أموالكم .
فلقى بعضهم بعضاً فقالوا :
— إن الأشر يفى بما يقول ، وإن علينا خلفه علينا ليأتينا منه الشر .
فبعثوا إليه :

— إنا ناصبون لكم جسراً فأقبلوا .
فأرسل الأشر إلى عليّ فجاء ونصبوا له الجسر ، فعب عليه بالأثقال والرحال ثم
أمر الأشر فوقف في ثلاثة آلاف فارس حتى لم يبق أحد من الناس إلا عبر ، ثم إنه
عبر آخر الناس راجلاً .

عبر الإمام الفرات ، واستعمل على مقدمته الأشر ، وسار الإمام في خمسين
ومائة ألف من أهل العراق ، وسار معاوية في نحو من ذلك من أهل الشام ، وسبق
معاوية علياً إلى صفين ، فنزل أهل الشام منزلاً اختاروه ، مستوياً بساطاً واسعاً ،
وأخذوا الشريعة فهي في أيديهم ، وقد أجمعوا أن يمتدوا أهل العراق الماء ، وبلغ
الإمام صفين ونزل بالقرب من جيوش الشام ، وأراد رجاله أن يشربوا فمنعهم أهل
الشام ، ففزعوا إلى أمير المؤمنين وأخبروه بذلك فدعا مبعصة بن صوحان فقال :
— إيت معاوية فقل : إنا سرنا مسيرنا هذا ، وأنا أكره قتالكم قبل الإغذار
إليكم ، وإنك قد قدمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، وبدأتنا بالقتال ، ونحن
من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه أخرى قد فعلتموها حتى حلتم
بين الناس وبين الماء فخل بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ، وفيما قدمنا له

وقدتم . وإن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له وتدع الناس يقتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا .

فجمع معاوية أصحابه وقال لهم :

— ما ترون ؟

قال الوليد بن عقبة :

— امنعهم الماء كما منعه ابن عفان ، حصروه أربعين يوما يمنعون به بر الماء ولين الطعام . اقتلهم عطشا قتلهم الله .

وقال عمرو :

— خل بين القوم وبين الماء ، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم .

فأعاد الوليد مقالته ، وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح :

— امنعهم الماء إلى الليل ، فإنهم إن لم يقدرُوا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم . امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة .

فقال صعصعة بن صوحان :

— إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شرية الخمر ، ضربك وضرب هذا الفاسق .

وأشار إلى الوليد بن عقبة ، فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهددونه . فقال معاوية :

— كفوا عن الرجل ، فإنه رسول .

فالتفت صعصعة إليه وقال :

— ما ترد على ؟

— سيأتيكم رأيي .

وقام معاوية في جيشه فقال :

— يا أهل الشام ، هذا والله أول الظفر ، لا سقاني الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا منه أبداً حتى يقتلوا بأجمعهم عليه .

وتباشر أهل الشام ، ولم يرق قول معاوية لرجل كان صديقا لعمر فقام فقال :
— يا معاوية ، سبحان الله ، الآن سبقتهم القوم إلى الفرات فغلبتموهم عليه
تمنعوهم عنه ! أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه ، أليس أعظم ما تنالون من القوم أن
تمنعوهم الفرات فينزلوا على فريضة أخرى فيجازوكم بما صنعتم ؟ أما تعلمون أن فيهم
العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ هذا والله أول الجور . لقد
شجعت الجبان ، وبصرت المرتاب ، وحملت من لا يريد قتالك على كتفك .
فأغلظ له معاوية . وما راع رجال الإمام إلا تسوية الرجال والخيل والصفوف
فقد أرسل معاوية إلى قائد مقدمته : — امنعهم الماء .
وأنى الأشعث عليا فقال له :

— يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت ، فينا ومعنا السيوف ؟ خل
عنا وعن القوم ، فوالله لا ترجع حتى نرده أو نموت . ومرارا فليعل بخيله فيقف
حيث تأمره .
— ذاك إليكم .

فرجع الأشعث فنادى في الناس :
— من كان يريد الماء أو الموت فمياعده الصبح ، فإني ناهض إلى الماء .
فأتاه اثنا عشر ألف رجل ، واضعى سيوفهم على عواتقهم ، فلما أصبح دب في
الناس وسيوفهم على عواتقهم ، وجعل يلقي رمحهم ويقول :
— بأبى أنتم وأمى ، تقدموا قاب رمحي هذا .
فلم يزل ذلك دأبه حتى خالط القوم ، وحسر عن رأسه ونادى :
— أنا الأشعث بن قيس ، خلوا عن الماء .

فنادى قائد مقدمة جيش معاوية :
— أما والله لا ، حتى تأخذنا وإياكم السيوف .
— ويحك يا ابن العاص ، خل بيننا وبين الماء .
والله لا نخلى عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم ، فيعلم ربنا أينما اليوم أصبر .

— ويحك يا عمرو ، والله إن كنت لأظن لك رأيا فإذا أنت لا عقل لك ، أترانا نخليك والماء ، تربت يداك وفمك ، أما علمت أنا معشر عرب ، ثكلتك أمك وهبلتك ، لقد رمت أمرا عظيما .

وترجل الأشعث والأشتر وذوو البصائر من أصحاب عليّ ، وترجل معهما اثنا عشر ألفا ، فحملوا على عمرو ومن معه من أهل الشام ، فأزالوهم عن الماء حتى غمست خيل عليّ سنايكها في الماء .

فانطلق عمرو بن العاص إلى معاوية وقال له :

— يا معاوية ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء كما منعتم بالأمس ، أترك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه . وما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءة .

— ظني أنه لا يستحل منك ما استحلت منه ، وأن الذي جاء له غير الماء . أصبح الماء في أيدي أهل العراق فقالوا :

— والله لا نسقيهم .

وبلغ ذلك الإمام فأرسل إلى رجاله :

— خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى عسكريكم ، واخلوا بينهم وبين الماء ، فإن الله قد نصركم بغيرهم وظلمهم .

كان ابن أبي طالب كريما على عادته فقد خلى بين أعدائه وبين الماء ، ولكن الأمويين لم يتصفوا بذلك النبل الفياض ، ولم ينفع فيهم ذلك الدرس الذي لقنهم إياه الإمام ، فما انقضت سنوات حتى منعوا الماء عن ابنه الحبيب شهيد كربلاء .

ومكث عليّ يومين لا يرسل إلى معاوية ولا يأتيه من قبل معاوية أحد ، وجاء عبيد الله بن عمر فدخل على الإمام في عسكريه فقال له :

— أنت قاتل الهرمزان ، وقد كان أبوك فرض له في الديوان وأدخله في

الإسلام ؟

— الحمد لله الذي جعلك تطلبني بدم الهرمزان ، وأطلبك بدم عثمان بن عفان .

— لا عليك سيجمعني وإياك الحرب غدا .

ودعا عليّ بشير بن عمرو بن محصن الأنصارى ، وسعيد بن قيس الهمداني ،
وشبث بن ربعي التميمي فقال :

— ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عز وجل وإلى الطاعة والجماعة ، وإلى اتباع
أمر الله تعالى .

فقال شبث :

— ألا نطمعه في سلطان توليه إياه ومنزلة تكون به له أثره عندك إن هو بايعك ؟
— ائتوه الآن ، فالقوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه .

فأتوه فدخلوا عليه ، فقال بشير :

— يا معاوية ، إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك لراجع إلى الآخرة ، وإن الله عز
وجل مجازيك بعملك ، ومحاسبك بما قدمت يداك ، وإني أنشدك بالله أن تفرق
جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها .

فقال معاوية :

— هلا أوصيت صاحبك ؟

— سبحان الله ، إن صاحبى ليس مثلك . إن صاحبى أحق البرية في هذا الأمر
في الفضل والدين والسابقة والإسلام . والقراة من رسول الله ﷺ .
— فتقول ماذا ؟

— أدعوك إلى تقوى ربك وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه
أسلم لك في دينك ، وخير لك في عاقبة أمرك .
— وبطل دم عثمان ؟ لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً .

فقال شبث :

— يا معاوية ، قد فهمت ما رددت على ابن محصن ، إنه لا يخفى علينا ما تقرب
وما تطلب ، إنك لا تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص
به طاعتهم إلا أن قلت لهم قتل إمامكم مظلوماً فهلما نطلب بدمه ، فاستجاب لك
سفهاء طغام رذال ، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل بهذه

المنزلة التي تطلب . ورب مبتغ أمراً وطالبه يحول الله دونه . وربما أوتى المتمنى أمنيته ، وربما لم يؤتها . والله مالك في واحدة منها خير . والله لئن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالا ، ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق صلي النار ، فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله .

فقال معاوية في غضب :

— أما بعد ؛ فإن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قوم منطقته ، ثم عتبت بعد فيما لا علم لك به ، ولقد كذبت ولويت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما وصفت وذكرت . انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلا السيف .

فخرج القوم وشبث يقول :

— أفعلىنا تهول بالسيوف ، أما والله لنعجلنه إليك .

٢٦

أشفق الجميع من الحرب ، وخرج قراء أهل العراق وقراء أهل الشام فعسكروا ناحية صفين في ثلاثين ألفاً ، وعسكر على الماء وعسكر معاوية فوق ذلك ، ومشى القراء فيما بين معاوية وعلى واستمرت السفارات ثلاثة أشهر فكان قراء معاوية يتهمون علياً ، والإمام يدحض التهمة بعد التهمة . دخل القراء على معاوية فقالوا :

— يا معاوية ما الذى تطلب ؟

— أطلب بدم عثمان .

— ممن تطلب بدم عثمان ؟

— من على .

— وعلى عليه السلام قتله ؟

— نعم هو قتله وآوى قاتليه .
فانصرفوا من عنده فدخلوا على عليّ فقالوا :
— إن معاوية يزعم أنك قتلت عثمان .
— اللهم كذب فيما قال . لم أقتله .
فرجعوا إلى معاوية فأخبروه فقال لهم معاوية :
— إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالاً .
فرجعوا إلى عليّ عليه السلام فقالوا :
— إن معاوية يزعم أنك إن لم تكن قتلت بيدك فتند أمرت ومالأت على قتل
عثمان .

— اللهم كذب فيما قال .
فرجعوا إلى معاوية فقالوا له :
— إن عليّاً عليه السلام يزعم أنه لم يفعل .
— إن كان صادقاً فليمكننا من قتلة عثمان ، فإنهم في عسكره وجنده وأصحابه
وعضده .

فرجعوا إلى عليّ عليه السلام فقالوا :
— إن معاوية يقول لك : إن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلة عثمان أو مكنا منهم .
— تأول القوم عليه القرآن ووقعت الفرقة ، وقتلوه في سلطانه وليس على
ضربهم قود .

فقال معاوية :
— إن كان الأمر كما يزعمون فما له ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ولا ممن
ها هنا معنا ؟

فقال عليّ عليه السلام :
— إنما الناس تبع المهاجرين والأنصار ، وهم شهود المسلمين في البلاد على
ولايتهم وأمر دينهم ، فرضوا بي وبايعوني ، ولست أستحل أن أدع ضرب معاوية

يحكم على الأمة ويركبهم ويشق عصاهم .

فقال معاوية :

— ليس كما يقول ، فما بال من ها هنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر فيؤامروه ؟

فقال الإمام للقراء :

— ويحكم ، هذا للبدرين دون الصحابة ، ليس في الأرض بدرى إلا قد بايعنى وهو معى ، أو قد أقام ورضى .

واستمرت السفارات ثلاثة أشهر ، ربيع الآخر وجماديين ، فكان رجال الحرب يضيقون بهذه الحالة ذرعاً ، فيفزعون الفرعة فيزحف بعضهم إلى بعض ويحجز القراء بينهم .

وأراد معاوية أن يزيل أهل العراق عن مكانهم فكتب في سهم : « من عبد الله الناصح ، فإني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات فيغرقكم ، فخذوا حذركم » ثم رمى معاوية بالسهم في معسكر الإمام ، فوقع السهم في يد رجل من أهل الكوفة ، فقرأه ثم أقرأه ، فلما أقرأه وأقرأه الناس قالوا :

— هذا أخ ناصح كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية .

فلم يزل السهم يقرأ ويرتفع حتى رفع إلى أمير المؤمنين ، وقد بعث معاوية مائتى رجل من الفعلة إلى منحنى النهر ، بأيديهم المرور والزبل يحفرون فيها بحيال عسكر على بن أبى طالب ، فقال على :

— ويحكم ، إن الذى يعالج معاوية لا يستقيم له ولا يقوم عليه ، وإنما يريد أن

يزيلكم عن مكانكم ، فاهلوا عن ذلك ودعوه .

— لا ندعهم والله يحفرون الساعة .

— يا أهل العراق لا تكونوا خلفى ، ويحكم لا تغلبونى على رأى .

— والله لنرحلن ، فإن شئت فارتحل ، وإن شئت فأقم .

وغضب الإمام لمخالفة الجيش له ، وجعل يرقب جيشه وهو يصعد بعسكره

بعيدًا وقد بان في وجهه الكدر ، وارتحل في أخريات الناس وهو يقول :
ولو أنى أطعت عصيت قومي إلى ركن اليمامة أو شمام
ولكنى إذا أبرمت أمرًا منيت بخلف آراء الطغام
وما إن زال أهل الكوفة عن مكانهم حتى ارتحل معاوية حتى نزل على معسكر
على الذى كان فيه ، وبانت الخدعة ، وندم أهل العراق لعصيانهم الإمام المجرب ،
ولكنهم لم يتعظوا فسرعان ما عصوه المرة تلو المرة ، فكانوا يتبرمون بعد فوات
الفرص التى كان يهتلها أهل المكر والدهاء .

ودعا على الأشتر والأشعث فقال :

— ألم تغلبنى على رأى أنت والأشعث ؟ فدونكما .

فقال الأشعث :

— أنا أكفيك يا أمير المؤمنين ، سأداوى ما أفسدت اليوم من ذلك .

وخرج الأشعث وهو يحس فداحة ما فعل ، فعزم على أن يقاتل أهل الشام
ليزيلهم عن مكانهم ، فجمع بنى كندة وقال :

— يا معشر كندة ، لا تفضحونى اليوم ولا تخزوني ، إنما أقارع بكم أهل

الشام .

فخرجوا معه رجالا يمشون ، ويبد الأشعث رمح له يلقيه على الأرض ويقول :

— امشوا قيس رمحى هذا .

وجمع الأشتر نخيل أهل العراق وخرج للقتال ، وظل الأشعث يقيس لقومه
الأرض برمح ذلك ، ويمشون معه رجالا قد كسروا جفون سيوفهم حتى لقوا
معاوية وسط بنى سليم واقفاً على الماء . وقد جاءه أدانى عسكره ، فاقتلوا قتالا
شديداً على الماء وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا ، وأقبل الأشتر وحمل على أهل
الشام حملة ، واستمر القتال حتى انسحب أهل الشام وعاد عسكر الإمام إلى منزله
وجعل الأشعث يهدد ويقول :

— أَرْضِيَتْ يا أمير المؤمنين ؟

وغلب عليّ على الماء فطرد عنه أهل الشام فبعث إلى معاوية :
— إنا لا نكافيك بصنعك ، هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء .
واقتل الجيشان ذا الحجة كله ، فلما مضى ذو الحجة تداعى الناس أن يكف بعضهم عن بعض إلى أن ينقضى المحرم ، لعل الله أن يجزى صلحاً واجتماعاً ، فكف الناس بعضهم عن بعض ، وتوابع عليّ عليه السلام ومعاوية ، فاختلفت الرسل فيما بينهما رجاء الصلح ، فأرسل عليّ إلى معاوية عدى بن حاتم ، وشيث بن ربعي ، ويزيد بن قيس ، وزباد بن حصفة ، فدخلوا على معاوية ، فحمد الله عدى ابن حاتم وأثنى عليه ثم قال :

.. أما بعد ، فإننا أتيناك لندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ، ويحقن الله به دماء المسلمين ، ويأمن به السبل ويصلح به البين ، وندعو إلى أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام آثاراً ، وقد اجتمع له الناس ، وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فأتوا ، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فانت يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل .

فالتفت إليه معاوية وقال :

— كأنما إنما جئت متهدداً ولم تأت مصلحاً . هيهات يا عدى . كلا والله إني لأبن حرب ، ما يقعق لي بالشنان . أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان ، وإنك لمن قتلته ، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله . هيهات يا عدى قد حلبت بالساعد الأشد .

وقال له شيث :

— أتيناك فيما يصلحنا وإياك .. فأقبلت تضرب الأمثال لنا ، دع ما لا ينفع من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمننا وإياك نفعه .

وتكلم يزيد فقال :

— إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ، ولنؤدى عنك ما سمعنا منك ، لن ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا به عليك حجة أو أنه راجع بك إلى

الألفة والجماعة . إن صاحبنا لمن قد عرفت وعرف المسلمون فضله ، ولا أظنه يخفى عليك . وإن أهل الفضل والدين لن يعدلوك بعلّ عليه السلام ، ولن يميلوا بينك وبينه . فاتق الله يا معاوية ، ولا تخالف علياً ، فإننا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى ، ولا أزهد في الدنيا ، ولا أجمع لحصال الخير كلها منه .
فقال معاوية :

— أما بعد ، فإنكم دعوتكم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التي دعوتكم إليها فنعمنا هي . وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها . إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك عليه ، أرأيتم قتلة صاحبنا ؟ ألسن تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم ؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .
فقال له شبت :

— أيسرك الله يا معاوية أن أمكنت من عمار بن ياسر فقتلته ؟
— وما يمنعني من ذلك ؟ والله لو أمكنتني صاحبكم من ابن سمية ما قتلته بعثان ، ولكن كنت أقتله بنائل مولى عثمان بن عفان .
— وإله السماء ما عدلت معدلاً ، لا والله الذي لا إله إلا هو لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تنحدر الهام عن كواهل الرجال . وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها .

— إنه لو كان ذلك كانت عليك أضيق .
ورجع القوم عن معاوية ، فلما رجعوا من عنده بعث إلى زياد بن حفصة التيمي ، فدخل عليه وكان عمرو بن العاص عنده ، فقال معاوية :
— يا أخا ربيعة ، فإن علياً قطع أرحامنا وقتل إمامنا وآوى قتلة صاحبنا ، وإنني أسألك النصره عليه بأسرتك وعشيرتك : ولك على عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليك أي المصريين أحببت .
— إني لعل بينة من ربي ، وبما أنعم على فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

وقام زياد ، فقال معاوية لعمره :

— ليس يكلم رجل منا رجلا منهم بكلمة فيجيب بخير ، ما لهم غضبهم الله ، ما قلوبهم إلا قلب رجل واحد .

ووفد رسل معاوية على الإمام ، فدخل عليه حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ، ومعن بن يزيد ، فقال حبيب :

— إن عثمان بن عفان كان خليفة مهديًا ، يعمل بكتاب الله ، وينيب إلى أمر الله ، فاستبقيت حياته ، واستبطأت وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه ، فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به ، فإن قلت إنك لم تقتله فاعتزل أمر الناس ، فيكون أمرهم هذا شوري بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم .

فقال له عليّ عليه السلام :

— وما أنت لا أم لك والولاية والعزل والدخول في هذا الأمر . اسكت فإنك لست هناك ، ولا بأهل لذاك .

— أما والله لترينى حيث تكره .

— وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك ؟! اذهب فصب وصعد ما بدا لك فلا أبقي الله عليك من أبقيت .

رأى شرحبيل رد الإمام الشديد فقال في تحاذل :

— إن كلمتك فلعمري ما كلامى إياك إلا كنحو من كلام صاحبي قبلى ، فهل لى عندك جواب غير الجواب الذى أجبت به ؟

— عندى جواب غير الذى أجبت به ، لك ولصاحبك .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد ، فإن الله بعث النبي ﷺ فأنقذ به من الضلالة ، ونعش به من الهلكة ، وجمع به بعد الفرقة ، ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه ، ثم استخلف الناس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، وأحسننا السيرة ، وعدلا في الأمة ، وقد وجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحق بالأمر ، فغفرنا (أهل البيت)

ذلك لهما ، ثم ولى أمر الناس عثمان فعمل بأشياء عابها الناس عليه فسار إليه ناس فقتلوه ، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمرهم فقالوا لي : بايع . فأبيت عليهم ! فقالوا لي : بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك . وأنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس ، فبايعتهم ، فلم يرعنى إلا شقاق رجلين قد بايعاني ، وخلاف معاوية إياي ، الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ، ولا سلف صدق في الإسلام ، طليق بن طليق ، وحزب من الأحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدوًا هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين مكرهين ، فعجبنا لكم ولإجلابكم معه وانقيادكم له ، وتدعون أهل بيت نبيكم ﷺ ، الذي لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا تعدلوا بهم أحدًا من الناس . إني أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيكم ﷺ ، وإمارة الباطل وإحياء معالم الدين ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لنا ولكل مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة .

فقال له شرحبيل :

— أتشهد أن عثمان قتل مظلومًا ؟

— إني لا أقول ذلك .

— فمن لم يشهد أن عثمان قتل مظلومًا فنحن برآء منه .

وانصرف رسل معاوية فقال علي :

— ﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت

بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .

وفشلت السفارات ، وصمت رسل الصلح لترتفع صيحات الحرب وقعقة

السيوف .

تأهب الجيشان ، وقعد الإمام على دابته وقال :

— الحمد لله رب العالمين على نعمه علينا وفضله العظيم . ﴿ سبحان الذى
سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ .
ثم وجه دابته إلى القبلة ، ثم رفع يديه إلى السماء ثم قال :
— اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورفعت الأيدي ،
وشخصت الأبصار . نشكو إليك غيبة نبينا ، وكثرة عدونا ، وتشتت أهوائنا .
﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ .

وزحف على الناس إلى الشام ، ورفع معاوية قبة له عظيمة ، قد ألقى عليها
الكراميس وجلس تحتها ، وقام عبد الله بن بديل فى أصحابه فقال :

— إن معاوية ادعى ما ليس له ، ونازع الأمر أهله ومن ليس مثله ، وجادل
بالباطل ليدحض به الحق ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، وزين لهم
الضلالة ، وزرع فى قلوبهم حب الفتنة ، ولبس عليهم الأمر ، وزادهم رجسا إلى
رجسهم ، وأنتم والله على نور من ربكم وبرهان مبين . قاتلوا الطغام الجفاة ولا
تخشوهم . وكيف تخشونهم وفى أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبرور ؟!
﴿ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم
ويغزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ وقد قاتلتهم مع النبى
ﷺ ، والله ما هم فى هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبر . قوموا إلى عدو الله وعدوكم .
وتقدم عبد الله بن بديل ، فجعل يضرب الناس بسيفه قدما ، فلم يزل يحمل
كليث فى أجمة كشر عن نابه ، وانطلق يهدف إلى معاوية فقد عزم على أن يقتله أو
يموت دونه ، وتساقط أصحابه حوله كما تتساقط الأوراق عن الشجر فى الخريف

فلم يثنه ذلك عما وطن العزم عليه ، وانتهى إلى معاوية والذين بايعوه على الموت ، فذب الذعر في نفس معاوية فأمر رجاله أن يصمدوا لذلك الليث الذي يتقدم بجنان ثابت وقد أطل من سيفه المنون ، وبعث إلى حبيب بن مسلمة وهو في الميسرة أن يحمل عليه بجميع من معه ، واختلط الناس واضطرم ميمنة أهل العراق وميسرة أهل الشام ، وظل ابن بديل يشق الجموع قدما فزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، واستولى الفرع على معاوية ، فتراجع عن مكانه وأشفق على نفسه ، وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية وثالثة يستنجد به ويستصرخه ، وحمل حبيب حملة شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق فكشفها ، حتى لم يبق مع ابن بديل إلا نحو مائة إنسان من القراء ، فاستند بعضهم إلى بعض يحمون أنفسهم ، ولجج ابن بديل في الناس وصمم على قتل معاوية ، وجعل يطلب موقفه ويصمد نحوه حتى انتهى إليه فنأدى معاوية بالناس :

— ويلكم ؟ الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح .

فأقبل أصحاب معاوية على عبد الله بن بديل يرضخونه بالصخر حتى أثخنوه وقتل الرجل ، وأقبل إليه معاوية وعبد الله بن عامر حتى وقفا عليه . فأما عبد الله بن عامر فألقى عمامته على وجهه وترحم عليه ، وكان له من قبل أخا وصديقاً ، فقال معاوية :

— اكشف عن وجهه .

— لا والله ، لا يمثل به وفيّ روح .

— اكشف عن وجهه ، فإننا لا نمثل به ، فقد وهبته لك .

فكشف ابن عامر عن وجهه فقال معاوية :

— هذا كبش القوم ورب الكعبة ، اللهم أظفرني بالأشتر النخعي والأشعث

الكندي .

رأى الإمام ما حل بابن بديل فأمر سهل بن حنيف أن يتقدم فيمن كان مع الإمام من أهل المدينة ، فاستقبلهم جموع أهل الشام في خيل عظيمة ، فحملوا عليهم

وأحقوهم بالميمنة ، وكانت الميمنة متصلة إلى موقف عليّ في القلب في أهل اليمن ، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى عليّ ، فانصرف عليّ يمشي نحو الميسرة ومعه بنوه ، والنبل يتطاير بين عاتقيه ومنكبيه ، وما من بنيه أحد إلا يتقيه بنفسه ، فكره عليّ ذلك ، وخشى أن يصاب الحسن والحسين بمكرهه ، فقال لمن حوله :

— املكوا عنى هذين الفتيين أخاف أن ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ .

وتقدم أحمر مولى أبي سفيان وخالط عليّاً ليضربه بالسيف ، فانتهره عليّ ، فجذبه ثم حمله على عاتقه ثم ضرب به الأرض فكسر منكبه وعضده ، وشد الحسين ومحمد بن الحنفية فضرباه بأسنانهما حتى إذا أتيا عليه أقبلًا إلى أبيهما والحسن معه قائم ، فالتفت إليه فقال :

— يا بني ، ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك ؟

— كفياني يا أمير المؤمنين .

ودنا أهله منه فقال له الحسن :

— ما ضرك لو سعت حتى تنتهي إلى هؤلاء الذين صبروا لعدوك من أصحابك ؟

— يا بني ، إن لأبيك يوماً لن يعدوه ، ولا يبطئ به عن السعى ، ولا يعجل به إليه المشي . إن أباك والله ما يبالي وقع على الموت أو وقع الموت عليه .

وظلت رحي الحرب دائرة تطحن الفريقين ، وكان فارس معاوية الذي يعده لكل مبارزة ولكل عظيم حريث مولاه وكان يلبس سلاح معاوية متشبهًا به فإذا قاتل قال الناس : ذاك معاوية ، وإن معاوية دعاه فقال :

— يا حريث ، اتق عليّاً وضع رمحك حيث شئت .

فأتاه عمرو بن العاص فقال :

— يا حريث ، إنك والله لو كنت قرشياً لأحب معاوية أن تقتل عليّاً لكن كره أن يكون لك حظها ، فإن رأيت فرصة فاقحم .

وامتلاً العبد غرورا ، وصدق ما قاله له ابن العاص ، وحسب أنه كفى للإمام

فخرج وقال :

— يا عليّ هل لك في المبارزة ؟ فأقدم أبا حسن إذا شئت .

فأقبل عليه وهو يقول :

أنا عليّ وابن عبد المطلب نحن لعمرى الله أولى بالكتب

منا النبي المصطفى غير كذب أهل الموء والمقام والحجب

نحن نصرناه على كل العرب يأبىها الدبد الغرير المتدب

اثبت لنا يأبى الكلب الكلب

ثم خالطه فما أمهله أن ضربه ضربة واحدة فقصعه نصفين ، ورأى معاوية ما
حل بفارسه فجزع جزعا شديدا ، وخرج رجل إلى عليّ فجذله الإمام ، ثم قام
عليّ بين الصنفين ثم نادى :

— يا معاوية ! يا معاوية !

فقال معاوية :

— اسألوه ، ما شأنه ؟

— أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة .

فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص ، فلما قاربه لم يلتفت إلى عمرو ، وقال
لمعاوية :

— ويحك ، علام يقتل الناس بينى وبينك ، ويضرب بعضهم بعضا ؟! ابرز
إلىّ فأينا قتل صاحبه فالأمر له .

فالتفت معاوية إلى عمرو فقال في صوت خفيض :

— ما ترى يا أبا عبد الله فيما ها هنا ، أبارزه ؟

فقال عمرو في خبث :

— لقد أنصفك الرجل ، واعلم أنه إن نكلت لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما

بقى عرنى .

— يا عمرو بن العاص ، ليس مثلى يخدع عن نفسه ، والله ما بارز ابن أبى طالب

رجلا قط إلا سقى الأرض من دمه .
وانصرف معاوية راجعا دون أن ينبس بكلمة ، ولما اقترب من صفوف جيشه
التفت إلى عمرو وقال :
— ما أحملك ، أترانى أبرز إليه ودونى عك والأشعرون وجذام ؟!
وحققها معاوية على عمرو فى نفسه ، وقال له متوددا :
— ما أظنك قلت ما قلته يا عمرو إلا مازحا .
وظل معاوية يخترق جيشه حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه ، فلما
رأى على عليه السلام ذلك ضحك وعاد إلى موقفه .
ونادى منادى أهل الشام :
— ألا إن معنا الطيب بن الطيب ، عبيد الله بن عمر .
فقال عمار بن ياسر :
— بل هو الخبيث ابن الطيب .
ونادى منادى أهل العراق :
— ألا إن معنا الطيب ابن الطيب ، محمد بن أبى بكر .
فنادى منادى أهل الشام :
— بل هو الخبيث ابن الطيب .
وسالت الدماء أنهارا ، وعظم القتال ، وبعث عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن
على فقال :
— إن لى إليك حاجة فالتنى .
فلقيه الحسن فقال له عبيد الله :
— إن أباك قد وتر قريشا أولا وآخرا ، وقد شئتوه ، فهل لك أن تخلفه ونوليك
هذا الأمر ؟
— كلا والله لا يكون ذلك .
وحدجة قليلا ثم قال :

— لكأني أنظر إليك مقتولا في يومك أو غدك . أما إن الشيطان قد زين لك
وخدعك حتى خرجك مخلقا بالخلق ترى نساء أهل الشام موقفك ،
وسيصرك الله ويطحرك قتيلا .

٢٨

كان القتال رهيبا حتى إن الناس كانوا يصلون تكبيرا ، وكان اليوم شديدا فقد
دفع الإمام بالراية إلى عمار بن ياسر ، فمضى ومضى معه أصحابه ، فلما دنا من
عمرو بن العاص قال :

— يا عمرو ، بعث دينك بمصر ؟ تبا لك ، ولطالما بغيت الإسلام عوجا .
ثم حمل عمار حملة منكرة ، ثم نادى عبيد الله بن عمر فقال :
— يا ابن عمر ، صرعتك الله ؟ بعث دينك بالدنيا من حده الله وعدو الإسلام .
— كلا ، ولكن أطلب بدم عثمان الشهيد المظنوم .

— كلا ، أشهد على علمي فيك أنك أصبحت لا تطلب بشيء من فعلك وجه
الله ، وأنت إن لم تقتل اليوم فستموت غدا ، فانظر إذا أعطى الله العباد على نياتهم ما
نيتك ؟ اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر
لفعلت . اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك أن أضنع ظبة سيفي في بطني ثم أنحنى
عليها حتى يخرج من ظهري لفعلت . اللهم وإني أعلم مما أعلمتني أني لا أعمل اليوم
عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم اليوم عملا أرضى لك
منه لفعلته .

وارتفعت الشمس ، واستظل عمار ومن حوله ببرد أحمر ، وأقبل رجل
يستقرى الصف فقال :

— أيكم عمار بن ياسر ؟

— هذا عمار .

— أبو اليقظان ؟

— نعم .

— إن لى حاجة إليك فأنطق بها علانية أو سرا ؟

— اختر لنفسك أى ذلك شئت .

— لا ، بل علانية .

— فأنطق .

— إني خرجت من أهلى مستبصرا فى الحق الذى نحن عليه لا أشك فى ضلالة هؤلاء القوم وأنهم على الباطل ، فلم أزل على ذلك مستبصرا حتى كان ليلتى هذه صباح يومنا هذا ، فتقدم منادينا فشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ونادى بالصلاة . فنادى مناديهم بمثل ذلك ، ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة ، ودعونا دعوة واحدة ، وتلونا كتابا واحدا ، ورسولنا واحد فأدركنى الشك فى ليلتى هذه ، فبت بليلة لا يعلمها إلا الله حتى أصبحت ، فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له فقال : هل لقيت عمار بن ياسر ؟ قلت : لا . قال : فאלقه فانظر ما يقول لك فاتبعه . فجئت لك لذلك .

فقال له عمار :

— هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلتى ؟ فإنها راية عمرو بن العاص قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، وهذه الرابعة ما هى بخيرهن ولا أبرهن ، بل هى شرهن وأفجرهن . أشهدت بدرا وأحدًا وحنينا أو شهدها لك أب فيخبرك عنها ؟ — لا .

— فإن مراكننا على مراكز رايات الرسول ﷺ يوم بدر ، ويوم حنين ، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب ، هل ترى هذا العسكر ومن فيه ؟ فوالله لو ددت أن جميع من أقبل مع معاوية ممن يريد قتالنا مفارقا للذى نحن عليه كانوا خلقا واحدا فقطعته وذبحته . والله لدماءؤهم جميعا أحل من دم عصفور . أفترى دم عصفور حراما ؟

— لا . بل حلال .

— فإنهم كذلك حلال دماؤهم . أترانى بينت لك ؟

— قد بينت لى .

— فاختر أى ذلك أحببت .

فانصرف الرجل ثم دعاه عمار بن ياسر فقال :

— أما إنهم سيضربوننا بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولون : لو لم

يكونوا على حق ما ظهروا علينا ، والله ما هم من الحق على ما يقذى عين ذباب .

والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر لعرفت أنا على حق وهم على

باطل . وأيم الله لا يكون سلما سلما أبداً حتى ييؤء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم

كانوا كافرين ، وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق ، وأن قتلاهم فى

الجنة وموتاهم ، ولا تنصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم فى الجنة

وأن موتى أعدائهم وقتلاهم فى النار ، وكان أحيائهم على الباطل .

وبعث عمرو بن العاص إلى عمار بن ياسر ، فقال عمار لأصحابه :

— اركبوا .

فركبوا وساروا ، وبعثوا إلى عمرو رجلا من عبد القيس ، فذهب حتى كان

قرية من القوم ، ثم نادى :

— أين عمرو بن العاص ؟

— ها هنا .

فدخل الرجل على عمرو وأخبره بما كان من عمار ، فقال له عمرو :

— قل له فليسر إلينا .

— إنه يخاف غدراك .

— ما جرأك على وأنت على هذه الحال ؟

— جرأنى عليك بصيرتى فىك وفى أصحابك . فإن شئت نابذتك الآن على

سواء .

وسار عمرو في عشرة ، وسار عمار في اثني عشر فارسا حتى اختلفت أعناق خيل عمرو وخيل عمار ، ونزل عمار والذين معه فاحتبوا بحمائل سيوفهم ، فتشهد عمرو بن العاص ، فقال له عمار :

— اسكت فقد تركتها في حياة محمد ﷺ وبعد موته ، ونحن أحق بها منك ، فإن شئت كانت خصومة ، فيدفع حقها باطلك ، وإن شئت كانت خطبة فنحن أعلم بفصل الخطاب منك ، وإن شئت أخبرتك بكلمة تفصل بيني وبينك وتكفرك قبل القيام ، وتشهد بها على نفسك ، ولا تستطيع أن تكذبني فيها .
— يا أبا اليقظان ، ليس لهذا جئت ، إنما جئت لأني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم : أذكرك الله إلا كفت سلاحهم وحقنت دماءهم ، وحرضت على ذلك فعلام تقاتلنا ؟ أو لسنا نعبد إلها واحدا ، ونصلي إلى قبلتكم ، وندعو دعوتكم ، ونقرأ كتابكم ، ونؤمن برسولكم ؟

— الحمد لله الذي أخرجها من فيك ، إنها لي ولأصحابي : القبلة ، والدين ، وعبادة الرحمن ، والنبي ﷺ ، والكتاب من دونك ودون أصحابك . الحمد لله الذي قدرك لنا بذلك ، دونك ودون أصحابك ، وجعلك ضالا مضلا ، لا تعلم هاد أنت أم ضال ، وجعلك أعمى . وسأخبرك علام قاتلتك عليه أنت وأصحابك . أمرني رسول الله ﷺ أن أقاتل الناكثين ، وقد فعلت ، وأمرني أن أقاتل القاسطين ، فأنتم هم ، وأما المارقون فما أدرى أدر كههم أم لا . أيها الأبر ، أأست تعلم أن رسول الله ﷺ قال لعلي : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » . وأنا مولى لله ورسوله وعلي بعده ، وليس لك مولى .

— لم تشتمني يا أبا اليقظان ولست أشتمك ؟

— وبم تشتمني ؟ أتستطيع أن تقول : إني عصيت الله ورسوله يوما قط ؟

— إنك فيك لمسات سوى ذلك .

— إن الكريم من أكرمه الله ، كنت وضيعا فرغني الله ، ومملوكا فأعتقني الله ،

وضعيًّا فقواني الله ، وفقيرا فأغناني الله .

وخرج الناس إلى القتال ، وصفت الخيول بعضها لبعض ، واقتتل الناس قتالا شديداً لم يسمع الناس بمثله ، وكثرت القتل حتى إن الرجل ليشد طنب فسطاطه بيد الرجل أو برجله ، وفي الليل اجتمع معاوية وعمرو وقد أقلق معاوية كثرة ما قتل من أصحابه ، فبات يخشى أن تدور به الدوائر ، فجعل يفكر في أن يفرق أصحاب عليّ عنه ، وخطر له أن يستميل ابن عباس ، فقال لعمر : —

— إن رأس الناس بعد عليّ هو عبد الله بن عباس ، فلو ألقيت إليك كتاباً لعلك ترتقه به ، فإنه إن قال شيئاً لم يخرج عليّ منه ، وقد أكلتنا الحرب ، ولا أرانا نصل إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام .

— إن ابن عباس لا يخدع ولو طمعت فيه لطمعت في عليّ .

— على ذلك ، فاكتب إليه .

فكتب إليه عمرو : « أما بعد فإن الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وساقته العافية ، وأنت رأس هذا الجمع بعد عليّ ، فانظر فيما بقى ودع ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبر . واعلموا أن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق وأن العراق لا تملك إلا بهلاك الشام ، وما خيرنا بعد هلاك أعدائنا منكم ، وما خيركم بعد هلاك أعدائكم منا ، ولسنا نقول ليت الحرب غارت ولكننا نقول ليتها لم تكن ، وإن فينا من يكره القتال كما أن فيكم من يكرهه ، وإنما هو أمير مطاع . أو مأمور مطيع ، أو مؤتمن مشاور فهو أنت ، وأما الأشتر الغليظ الطبع ، القاسي القلب ، فليس بأهل أن يدعى في الشورى . ولا في خواص أهل النجوى ، وكتب في أسفل الكتاب :

طال البلاء وما يرجى له آس	بعد الإله سوى رفق ابن عباس
قولا له قول من يرضى بحظوته	لا تنس حظك إن الخاسر الناسي
يا ابن الذي زمزم عقيا الحجيج له	أعظم بذلك من فخر على الناس
كل لصاحبـه قرن يساوره	أسد العرين أسود بين أخياس
لو قيس بينهم في العرب لا اعتدلوا	العجز بالعجز ثم الرأس بالراس

انظر فدى لك نفسى قبل قاصمة للظهر ليس لها راق ولا آسى
فلما قرأ ابن عباس الكتاب أتى به علياً فأقرأه شعره فضحك وقال :
— قاتل الله ابن العاص ، ما أغراه بك يا ابن عباس ، أجبته وليرد عليه شعره
الفضل بن عباس فإنه شاعر .

فكتب ابن عباس إلى عمرو : « أما بعد فإني لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياء
منك . إنه مال بك معاوية إلى الهوى ، وبعته دينك بالثمن اليسير ، ثم خبطت
الناس في عشوة طمعا في الملك ، فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل
الذنوب ، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع ، فإن كنت ترضى الله بذلك فذع مصر
وارجع إلى بيتك . وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعلّى . ابتدأها علّى بالحق ،
وانتهى فيها إلى الغدر ، وبدأها معاوية بالبغى وانتهى فيها إلى السرف . وليس أهل
العراق فيها كأهل الشام ، بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم ، وبايع معاوية أهل
الشام وهم خيز منه . ولست أنا وأنت فيها بسواء ، أردت الله وأردت أنت مصر .
وقد عرفت السبب الذى باعدك منى . ولا أرى الشئ الذى قربك من معاوية .
فإن ترد شراً لا نسبك به ، وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه والسلام » .

ثم دعا الفضل بن العباس فقال له :

— يا ابن أم ، أجب عمرا .

فقال الفضل :

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس فاذهب فليس لداء الجهل من آسى
إلا تواتر طعن في نحر كم يشجى النفوس ويشفى نخوة الراسى
هذا الدواء الذى يشفى جماعتكم حتى تطيعوا علياً وابن عباس
أما علّى فإن الله فضله بفضل ذى شرف عال على الناس

ثم عرض الشعر والكتاب على علّى فقال :

— لا أراه يجيبك بشئ بعدها إن كان يفعل ، ولعله يعود فتعود عليه .

فلما انتهى الكتاب إلى عمرو أتى به معاوية فقال :

— أنت دعوتنى إلى هذا ، ما كان أغنانى وإياك عن بنى عبد المطلب .
— إن قلب ابن عباس وقلب علىّ قلب واحد وكلاهما ولد عبد المطلب ، وإن
كان قد خشن فلقد لان ، وإن كان قد تعظم أو عظم صاحبه فلقد قارب وجنح إلى
السلم .

وفكر معاوية فى أن يكتب إلى ابن عباس بنفسه ، فقد كان يكتب ابن عباس
وكان يجيبه بقول لين ، فقال معاوية :

— إن ابن عباس رجل من قريش وأنا كاتب إليه فى عداوة بنى هاشم لنا ،
وأخوفه عواقب هذه الحرب لعله يكف عنها .

فكتب إليه : « أما بعد فإنكم يا معشر بنى هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة
منكم إلى أنصار عثمان بن عفان ، حتى إنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما دمه
واستعظامهما ما نيل منه . فإن يكن ذلك لسلطان بنى أمية فقد وليها عدى وتيم ،
فلم تنافسوهم وأظهرتهم لهم الطاعة . وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، أكلت هذه
الحرب بعضها من بعض حتى استويننا فيها ، فما أطعكم فبنا أطمعنا فيكم ، وما
آيسكم منا آيسنا منكم . وقد رجونا غير الذى كان ، وخشيننا دون ما وقع ،
ولستم بملاقينا اليوم بأحد من حد أمس ولا غداً بأحد من حد اليوم ، وقد قنعنا بما
كان فى أيدينا من ملك الشام ، فاقنعوا بما فى أيديكم من ملك العراق ، وأبقوا على
قريش . فإنما بقى من رجالها ستة ، رجلا بالشام ، ورجلان بالعراق ، ورجلان
بالحجاز ، فأما اللذان بالشام فأنا وعمرو ، وأما اللذان بالعراق فأنت وعلىّ ، وأما
اللذان بالحجاز فسعد وابن عمر ، واثنان من الستة ناصبان لك ، واثنان واقفان
فيك ، وأنت رأس هذا الجمع اليوم ، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع
منا إلى علىّ » .

وبعث معاوية بالكتاب إلى ابن عباس وكان يأمل أن يفرق به بين ابن عباس
وعلىّ فقد مناه الخلافة ، ولكن ما انتهى الكتاب إلى ابن عباس حتى أسخطه ثم
قال :

— حتى متى يخطب ابن هند إلى غفلى . وحتى متى أجمع على ما فى نفسى ؟ !
فكتب إليه : « أما بعد ، فقد أتانى كتابك وقرأته . وأما ما ذكرت من سرعتنا
إليك بالمساءة فى أنصار ابن عفان ، وكراهيتنا لسلطان بنى أمية ، فلعمري لقد
أدركت فى عثمان حاجتك حين استنصرك فلم تنصره ، حتى صرت إلى ما صرت إليه
وبينى وبينك فى ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليد بن عقبة ، وأما طلحة والزبير
فإنهما أجلبا عليه ، وضيقا خناقه ، ثم خرجا ينقضان البيعة ويطلبان الملك فقاتلناهما
على النكث ، وقاتلناك على البغى ، وأما قولك إنه لم يبق من قریش غير ستة ، فما
أكثر رجالها وأحسن بقيتها ، وقد قاتلك من خيارها من قاتلك ، ولم يخذلنا إلا من
خذلك .

وأما إغراؤك إيانا بعدى وتيم فأبو بكر وعمر خير من عثمان ، كما أن عثمان خير
منك ، وقد بقى لك منا يوم ينسبك ما قبله ويخاف ما بعده . أما قولك إنه لو بايع
الناس لى لاستقامت لى ، فقد بايع الناس علياً وهو خير منى فلم يستقيموا له . وإنما
الخلافة لمن كانت له فى الشورى وما أنت يا معاوية والخلافة وأنت طليق وابن
طليق ، والخلافة للمهاجرين الأولين . وليس الطلقاء منها فى شىء والسلام .
فلما انتهى الكتاب إلى معاوية قال :
— هذا عملى بنفسى . لا والله لا أكتب إليه كتاباً سنة كاملة .

٢٩

اصطف الناس ، ونادى عمار بن ياسر :
— أين من يبغي رضوان ربه ولا يؤوب إلى مال ولا ولد ؟
فأنته عصابة من الناس فقال :
— أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين ييغون دم عثمان ويزعمون أنه
قُتل مظلوماً .

- ورفع على الراية إلى هاشم بن عتبة بن أوى وقاص ذلك الفارس الذى هد الروم
وزلزل الفرس زلزالا شديدا وفقد إحدى عينيه فى سبيل الله ، وقال له :
- يا هاشم حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ؟
- لأجهدن على ألا أرجع إليك أبدا .
- إن بإزائك ذا الكلاع ، وعنده الموت الأحمر . أياهاشم ، أما تخشى من
نفسك أن تكون أعور جبانا ؟
- ستعلم يا أمير المؤمنين . والله لألفن بين جماجم القوم لف رجل ينوى
الآخرة .
- فأخذ رمح فبهزه فانكسر ، ثم آخر فوجده جاسيا فألقاه ، ثم دعا برمح لين فشد
به لواءه ، والتفت إلى الناس وقال :
- أيها الناس ، إني رجل ضخم ، فلا يهولنكم مسقطى إن أنا سقطت ، فإنه لا
يفرغ منى أقل من نحر جزور حتى يفرغ الجزار من جزرها .
- وتقدم عمار حتى دنا من هاشم فقال له :
- احمل فداك أبى وأمى .
- رحمك الله يا عمار ، إنك رجل تأخذك خنة فى الحرب وإنى إنما أزحف
باللواء زحفا وأرجو أن أنال بذلك حاجتى .
- وصاح رجل :
- أقدم هاشم . أقدم هاشم . مالك يا هاشم قد انتفخ سحرك ، أعورا
وجبنا ؟
- فالتفت هاشم إلى أصحابه وقال :
- شدوا شسوع نعالكم ، وشدوا أزركم ، فإذا رأيتمونى قد هزرت الراية ثلاثا
فاعلموا أن أحدا منكم لا يسبقنى إلى الحملة .
- ثم نظر هاشم إلى عسكر معاوية فرأى جمعا عظيما ، فقال :
- من أولئك ؟

- أصحاب ذى الكلاع .
ثم نظر فرأى جندا فقال :
— من أولئك ؟
— جند أهل المدينة وقريش .
— قومي ، لا حاجة لي في قتالهم .
— من عند هذه القبة البيضاء ؟
— معاوية وجنده .
— فإني أرى دونهم أسوده .
— ذاك عمرو بن العاص وابناه ومواليه .
وأخذ الراية فهزها ، فقال له رجل من أصحابه :
— امكث قليلا ولا تعجل .
قد أكثروا لومي وما أقلنا إني شريت النفس ، لن أعتلا
أعور يبغي نفسه محلا لا بد أن يفيل أو يفلا
وجعل عمار بن ياسر يتناوله بالرمح ويقول :
— أقدم يا أعور .
واشتد القتال وهاشم يتقدم تحت لواء عمار ، ونظر عمرو بن العاص فقال في
جزع :
— إني لأرى لصاحب الراية السوداء عملا ، لئن دام على هذا لتفنين العرب
اليوم ، فقال معاوية :
— ويحك ، إن اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة وقد كان من قبل يرقل به إرقالا ،
وإنه زحف به اليوم زحفا إنه لليوم الأطول لأهل الشام ، وإن زحف في عنق من
أصحابه إني لأطمع أن تقتطع .
وبعث معاوية عبيد الله بن عمر في أربعة آلاف وثلثمائة ، وهي كتيبته الخضرية
الرقطاء ، وحاول ابن عمر أن يأتي عليا من ورائه ، ففطن علي إلى ذلك فبعث إليهم
(أهل البيت)

أعدادهم ليس منهم إلا تميمي .
واقتل الناس من أول اعتدال النهار إلى المغرب ، وزحف هاشم حتى اقترب من
جمع فيه عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال عمرو في فزع :
— يا لله ، يا رحمن ابني ابني .

فقال له معاوية :

— صبرا صبرا فإنه لا بأس عليه .

— لو كان يزيد بن معاوية إذا لصبرت .

وزحف عمار يبغي راية عمرو فلما بصرها قال :

— والله إن هذه الراية قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشد من .

وأمسى المساء ، فصاح هاشم :

— ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فليقبل .

وحمل هاشم وصبر أهل الشام فقال لأصحابه :

— لا يهولنكم ما ترون من صبرهم ، فوالله ما ترون منهم إلا حمية العرب

وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها ، وإنهم لعلى الضلال ، وإنكم لعلى الحق .

يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا ، وامشوا بنا إلى عدونا على تودة رويدا . ثم تأسوا

وتصابروا واذكروا الله ولا يسلم رجل أخاه ، ولا تكثروا الالتفات ، واصمدوا

صمدهم ، وجالدوهم محتسين ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

واشتد القتل ، وسالت الدماء أنهارا ، وسقط صناديد الرجال صرعى ،

وصاح عمار :

— الجنة تحت الأسنة .

وجعل يزحف حتى طعن ، فسقط بجود بنفسه ويغمغم :

اليوم ألقى الأحبة محمدًا وحزبه

ووقفت الزرقاء بنت عدى بين الصفين وكانت راكبة جملا أحمر تحض على

القتال ، وتوقد نار الحرب ، فكانت كلماتها تصك آذان معاوية وقومه ، فكانها

شواظ من نار ، وراح سيف هاشم يحصد الرعوس ، ووقف هاشم قليلا فبعث إليه الإمام ؟ أن قدم لواءك ، فقتال للرسول :

— انظر إلى بطنى .

فإذا هو قد انشق ، وسقط هاشم ثم رفع رأسه فإذا هو بعبيد الله بن عمر قتيلا إلى جانبه ، فحبا حتى دنا منه ، فعض على ثديه حتى نبت فيه أنيابه ، ثم مات هاشم وهو على صدر عبيد الله .

ورأى عبيد الله بن هاشم مصرع أبيه ، فهرع إلى الراية فأخذها ثم قال :
— إن هاشمًا كان عبداً من عباد الله الذين قدر أرزاقهم ، وكتب آثارهم .
وأحصى أعمالهم ، وقضى آجالهم ، فدعاه ربه الذى لا يُعصى فأجابه ، وسلم الأمر لله وجاهد فى طاعة ابن عم رسول الله ، وأول من آمن به ، وأفقههم فى دين الله ، المخالف لأعداء الله المستحلين ما حرم الله ، الذين يحكمون فى البلاد بال جور والفساد ، واستحوذ عليهم الشيطان فزين لهم الإثم والعدوان ؟ فحق عليهم جهاد من خالف سنة رسول الله وعطل حدود الله ، وخالف أولياء الله ، فجودوا بمهج أنفسهم فى طاعة الله فى هذه الدنيا ، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى والملك الذى لا يبلى . فلو لم يكن ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ، لكان القتال مع على أفضل من القتال مع معاوية ابن آكلة الأكباد . فكيف وأنتم ترجون ما ترجون ؟
وأقبلت الكتائب بعضها إلى بعض ، فاقتلت قياما فى الركب ، لا يسمع السامع إلا وقع السيوف على البيض والدرق ، واختلط أمر الناس حتى ترك أهل الرايات مراكزهم ، وأتى الإمام ربيعة ليلا فكان فيهم ، وأقبل عدى بن حاتم يطلب علياً فى موضعه الذى تركه فيه فلم يجده فطاف يطلبه وهو منزعج ، فأصابه فى مصاف ربيعة فقال :

— يا أمير المؤمنين أما إذا كنت حيا فالأمر أمم ، ما مشيت إليك إلا على قتيل وما أبقت هذه الوقعة لنا ولهم عميدا ، فقاتل حتى يفتح الله عليك فإن فى القوم بقية بعد .

وأقبل الأشعث يلهث جزعا ، فلما رأى علياً هللاً وكبير وقال :
— يا أمير المؤمنين خيل كخيل ، ورجال كرجال ولنا الفضل عليهم إلى ساعتنا
هذه ، فعد إلى مقامك الذي كنت فيه ، فإن الناس إنما يظنونك حيث تركوك .
وأرسل سعيد بن قيس الهمداني إلى علي عليه السلام .
— إنا مشغولون بأمرنا مع القوم وفيما فضل ، فإن أردت أن نمد أحداً أمددناه .
وأقبل عليّ على ربيعة فقال :
— أنتم درعى ورمعى .
فقال عدى بن حاتم :
— يا أمير المؤمنين، إن قوماً أنست بهم وكنت فيهم في هذه الجولة لعظيم حقهم
علينا . والله إنهم لصبر عند الموت ، أشداء عند القتال .
وركب الإمام فرسه الذي كان لرسول الله ثم تقدم أمام الصفوف ، ثم قال :
— بل البغلة ، بل البغلة .
فقدمت له بغلة رسول الله ، فركبها ثم تعصب بعمامة رسول الله السوداء ثم
نادى :
— أيها الناس ، من يشر نفسه لله يربح . هذا يوم له ما بعده . إن عدوكم قد مسه
القرح كما مسكم .
فانتدب له خلق كثير ، وتقدمهم عليّ منقطعاً على بغلة رسول الله ، وتقوضت
صفوف أهل الشام فقال عمرو بن العاص :
— على من هذا الرهج الساطع ؟
— على ابنك عبد الله ومحمد .
فجزع عمرو وقال لمولاه :
— يا وردان قدم لواءك .
وتقدم عمرو فبعث إليه معاوية :
— إنه ليس على ابنك بأس فلا تنقض الصفوف، والزم موقعك .

— هيهات هيهات !

الليث يحمي شبليه ما خيره بعد ابنه

فتقدم باللواء فلقى الناس وهو يحمل ، فأدركه رسول معاوية فقال له :
— إنه ليس على ابنك بأس فلا تحملن .

— قل له : إنك لم تلدهما ، وإني أنا ولدتهما .

وبلغ مقدم الصفوف فقال له الناس :

— مكانك ، إنه ليس على ابنك بأس ، إنهما في مكان حرير .

— أسمعوني أصواتهما حتى أعلم أحيان هما أم قتيلان ؟

واطمأن عمرو على ابنه فعاد إلى معاوية ، وأهل العراق يزحفون يشقون
الصفوف حتى أفضى الأمر إلى مضرب معاوية ، وعلى يضرب بسيفه ويقول :
أضربهم ولا أرى معاوية — الأحرز العين العظيم الحاوية
هوت به في النار أم هاوية

فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه . فلما أخذ معرفة فرسه ووضع رجله في
الركاب تذكر كلمات عمرو بن الإطنابة .

أبت لي عفتي وأني بلائي	وأخذى الحمد بالثمن الريح
وإجشامي على المكروه نفسي	وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات	وأحمي بعد عن عرض صحيح
بذي شطب كلون الملح صاف	ونفس ما تقر على القبيح
والتفت إلى عمرو وقال :	

— يا ابن العاص ، اليوم صبر وغدا فخر .

— صدقت .

فثنى معاوية رجله من الركاب فنزل واستصرخ بقومه فوقفوا دونه وجالدوا
عنه ، ونال الإعياء من الفريقين فتحاجز الناس :

وجلس معاوية وعمرو وأصحابهما ، وجاء رجلان يختصمان في قتل عمار ،
فالتفت عبد الله بن عمرو إلى أبيه وإلى معاوية وقال :
— ليطلب كل واحد منكما نفسا لصاحبه بقتل عمار ، فإنني سمعت رسول الله
ﷺ يقول : « تقتله الفئة الباغية » .
فقال معاوية لعمر :
— ألا تنهى عنا مجنونك هذا ؟
ثم أقبل معاوية على عبد الله فقال له :
— فلم تقاتل معنا ؟
— إن رسول الله ﷺ أمرني بطاعة والدي ما كان حيًا وأنا معكم ولست
أقاتل .
وخشى معاوية أن يذاع ذلك الحديث بين الناس فينفضوا من حوله فقال
ليخدع أهل الشام :
— إنما قتله من أخرجه .
وإنه لقول متهافت ، لا يثبت لحجة ولكن صدقه أهل الشام .

٣٠

طحننت الحرب العسكرين ، وأهم معاوية كثرة القتل في أصحابه ، ففكر في أن
يكتب إلى عليّ يطلب الشام منه ، فقال لعمر :
— قد رأيت أن أكتب إلى عليّ كتابا أسأله الشام ، وهو الشيء الأول الذي
ردني عنه ، وألقى في نفسه الشك والركة .
فضحك عمرو بن العاص ثم قال :
— أين أنت يا معاوية من خدعة عليّ ؟!
كان عمرو يعلم مقدار دهاء الإمام وأنه لولا التقى والدين لكان أدهى العرب ،

ولكن معاوية أراد أن يطمئن نفسه ، فقال :

— ألسنا بنى عبد مناف ؟

— بلى ، ولكن لهم النبوة دونك ، وإن شئت أن تكتب فاكذب .

فكتب معاوية إلى عليّ :

« أما بعد ، فإنى أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا ، لم يجنّها بعضنا على بعض . وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نندم به على ما مضى ، ونصلح به ما بقى . وقد كنت سألتك الشام على ألا تلزمنى لك طاعة ولا بيع ، فأبيت ذلك عليّ ، فأعطاني الله ما منعت ، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوت إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو ، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف . وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستذل به عزيز ، ولا يسترق حربته والسلام » .

فلما انتهى كتاب معاوية إلى عليّ قرأه ثم قال :

— العجب لمعاوية وكتابه .

ثم دعا كاتبه فقال :

— اكتب إلى معاوية : « أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنّها بعضنا على بعض . فأنا وإياك منها في غاية لم تبلغها . وإنى لو قتلت في ذات الله وحييت ثم قتلت وحييت سبعين مرة لم أرجع عن الشدة في ذات الله ، والجهاد لأعداء الله . وأما قولك إنه قد بقى من عقولنا ما نندم به على ما مضى فإنى ما نقضت عقلى ، ولا ندمت على فعلى . فأما طلبك الشام فإنى لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك منها أمس . وأما استواؤنا في الخوف والرجاء فإنك لست أمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل ، فلعمري إنا بنو أب واحد ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا

حرب كعبد المطلب . ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا المحق كالمبطل ، وفي أيدينا فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز ، وأعززنا بها الذليل . والسلام .

وغلس على الناس صلاة الغداة ، ثم زحف إلى أهل الشام بعسكر العراق والناس على راياتهم ، وزحف إليهم أهل الشام ، فخرج رجل من أهل العراق على فرس كميت ذنوب ، عليه السلاح ، لا يرى منه إلا عيناه ويده الرمح ، فجعل يضرب رعوس أصحاب علي بالقناة ويقول :

— سووا صفوفكم رحمكم الله .

حتى إذا عدل الصفوف والرايات استقبلهم بوجهه وولى أهل الشام ظهره ، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— الحمد لله الذي جعل فينا ابن عم نبيه ، أقدمهم هجرة ، وأولهم إسلاما ، سيف من سيوف الله صبه على أعدائه ، فانظروا إذا حمى الوطيس وثار القتام وتكسر المران ، وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع إلا غمغمة أو ههمة فاتبعوني وكونوا في أثرى .

ثم حمل على أهل الشام وكسر فيهم رمحه ثم رجع فإذا هو الأشتر . وخرج رجل من أهل الشام ينادى بين الصفيين :

— يا أبا الحسن ، يا علي ، ابرز إلي .

فخرج إليه علي حتى إذا اختلف أعناق دابتيهما بين الصفيين فقال :

— يا علي إن لك قدما في الإسلام وهجرة ، فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء ، وتأخير هذه الحروب حتى ترى من رأيك ؟

— وما ذاك ؟

— ترجع إلى عراقك فنخلي بينك وبين العراق ، ونرجع إلى شامنا فتخلي بيننا وبين شامنا .

— لقد عرفت ، إنما عرضت هذا نصيحة وشفقة ، ولقد أهمني هذا الأمر

وأسهرنى ، وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ . إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يعصى فى الأرض وهم سكوت مدعنون ، لا يأمرّون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فوجدت القتال أهون على من معالجة الأغلال فى جهنم .

وزحف الناس بعضهم إلى بعض فارتموا بالنبل والحجارة حتى فنى ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت ، ثم مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيف وعمد الحديد ، فلم يسمع السامع إلا وقع الحديد بعضه على بعض ، لهو أشد هولا فى صدور الرجال من الصواعق ، وانكشفت الشمس بالنقع ، وثار القتام وضلت الألوية والرايات وأخذ الأشر يسير فيما بين الميمنة والميسرة فى أمر كل قبيلة أو كتيبة . الإقدام على التى تليها ، فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى منتصف الليل ، لم يصلوا لله صلاة . وكان الأشر فى ميمنة الناس وابن عباس فى الميسرة ، وعلى فى القلب والناس يقتتلون ، واستمر القتال من نصف الليل الثانى إلى ارتفاع الضحى ، والأشر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام : — ازحفوا قيد رمحى هذا .

وإذا فعلوا قال :

— ازحفوا قاب هذا القوس .

فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك حتى مل أكثر الناس الإقدام ، فلما رأى ذلك قال : — أعيذك بالله أن ترضعوا الغنم سائر اليوم .

ثم دعا بفرسه وركز رايته وخرج يسير فى القبائل ويقول :

— ألا من يشرى نفسه لله ويقاتل مع الأشر حتى يظهر أو يلحق بالله .

واجتمع إليه الناس فقال :

— شدوا ، فدأ لكم عمى وخالى ، شدة ترضون بها الله وتعزون بها الدين ،

فإذا شددت فشدوا .

ثم نزل وضرب وجه دابته ثم قال لصاحب رايته :

— أقدم .

فأقدم بها ثم شد على القوم ، وشد معه أصحابه يضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم .

وقاتلوا عند العسكر قتالا شديدا ، فقتل صاحب رايته ، وأخذ عليّ ، لما رأى الظفر قد جاء من قبله ، يمدّه بالرجال ، وقام عليّ خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا ، وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عز وجل . فبلغ ذلك معاوية فدعا عمرو بن العاص فقال :

— يا عمرو ، إنما هي الليلة حتى يغدو عليّ علينا بالفيصل ، فما ترى ؟
— إن رجالك لا يقومون لرجاله ، ولست مثله . هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره . أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون عليّا إن ظفر بهم ، ولكن ألق إليهم أمرا إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا ، ادعهم إلى كتاب الله حكما فيما بينك وبينهم فإنك بالغ حاجتك في القوم ، فإنني لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه . فأشرق وجه معاوية وقال :

— صدقت .

وجعل الإمام يغوص في الصفوف ، ويضرب بسيفه ثم يخرج به منحنيا فيقول :

— معذرة إلى الله عز وجل وإليكم من هذا . لقد هممت أن أصقله ولكن حجزني عنه أني سمعت رسول الله ﷺ يقول كثيرا : لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ . وأنا أقاتل به دونه .

فكان الناس تأخذه فتقومه ثم يتناوله من أيديهم فيقتحم به في عرض الصف ،

فلا والله ما ليث بأشد نكاية في عدوه منه .

وقام الأشعث في رجاله فقال :

— قد رأيتم يا معشر المسلمين ما كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فنى فيه من العرب ، فوالله بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيتم مثل هذا اليوم قط ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، إنا إن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب وضیعة الحرمات . أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحتف ، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى غدا إذا فنيما . اللهم إنك تعلم أنى قد نظرت لقومى ولأهل دينى فلم آل . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ورأى يخطئ ويصيب ، وإذا قضى الله أمرا أمضاه على ما أحب العباد أو كرهوا . أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم :

وانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث فقال :

— أصاب ورب الكعبة ، لئن نحن التقينا غدا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ، وتميلن أهل فارس على نساء أهل العراق وذراريهم ، وإنما يصير هذا ذوو الأحلام والنهى . اربطوا المصاحف على أطراف القنا .

فتار أهل الشام فتادوا فى سواد الليل .

— يا أهل العراق ، من لذراريننا إن قتلتمونا ، ومن لذراريكم إن قتلناكم ؟ الله الله فى البقية .

وانقضت ليلة الهرير ، فلما أصبح أهل العراق نظروا فإذا أشباه الرايات أمام صف أهل الشام وسط الفيلق من حيال موقف معاوية ، فلما أسفروا إذا هى المصاحف قد رُبطت على أطراف الرماح ، وهى عظام مصاحف العسكر ، وقد شدوا ثلاثة أرماع جميعا ، وقد ربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم بمسكه عشرة رهط .

استقبل أهل الشام عليا بمائة مصحف ووضعوا فى كل مجنبه مائتى مصحف ، ثم قام رجال من أهل الشام ونادوا :

— يا معشر العرب ، الله الله في نسائكم وبناتكم فمن للروم والأتراك وأهل فارس غدا إذا فنيتم . الله الله في دينكم ، هذا كتاب الله بيننا وبينكم .
فقال عليّ :

— اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا وبينهم ، إنك أنت الحكم الحق المبين .

وأقبل عدي بن حاتم فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق فإنه لم يصب عصابة منا إلا وقد أصيب مثلها منهم ، وكل مقروح ، ولكننا أمثل بقية منهم ، وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحب ، فناجز القوم .
فقام الأشتر فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن معاوية لا خلف له من رجال ، ولك بحمد الله الخلف ، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك ، فاقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله الحميد .

فقام الأشعث بن قيس فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إنا لك إليهم على ما كنا عليه أمس ، وليس آخر أمرنا كأوله ، وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام مني ، فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم . وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال .

فقال عليّ عليه السلام :

— إن هذا الأمر ينظر فيه .

وزحف الأشتر إلى الشام وثار بعض محبذى التحكيم ، فقال الإمام :

— عباد الله ، إني أحق من أجاب إلى كتاب الله ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص ، وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة ، وابن أبي سرح ، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني أعرف بهم منكم ، صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا

شر أطفال وشر رجال . إنها كلمة حق يُراد بها باطل . إنهم والله ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها ، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة ، أعيروني سواعدكم وجماعكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا .

فجاءه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي السلاح سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود ، فنادوه :
— يا علىّ أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه ، وإلا قتلنا كما قتلنا ابن عفان ، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم .

— ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه ، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ، إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ، ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه . ولكني قد أعلمتكم أنهم كادوكم ، وأنهم ليسوا بالعمل بالقرآن يريدون .
— فابعث إلى الأشر ليأتينك .

فبعث إلى الأشر أن يأتيه ، وقد كان الأشر أشرف على معسكر معاوية ليدخله فلما أتاه الرسول بلغه ، فقال الأشر :
— ائته فقل له : ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي ، إني قد رجوت الله أن يفتح لي فلا تعجلني .

فرجع الرسول إلى علىّ فأخبره ، فما هو إلى أن انتهى إليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشر ، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام ، فقال له القوم :
— والله ما نراك إلا أمرته بقتال القوم .

— أرأيتموني ساررت رسولي إليه ؟ أليس إنما كلمته على رءوسكم علانية وأنتم تسمعون ؟

فابعث إليه فليأتك ، وإلا فوالله اعتزلناك .

— ويحك يا يزيد ، قل له أقبل إليّ ، فإن الفتنة قد وقعت .

فأتاه فأخبره فقال له الأشر :

— ويحك ألا ترى إلى الفتح ، ألا ترى إلى ما يقولون ، ألا ترى إلى الذى يصنع

الله لنا ، أينبغى أن ندع هذا ونصرف عنه ؟

— أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذى هو به يفرج عنه

ويسلم إلى عدوه ؟

— سبحان الله ، لا والله ما أحب ذلك .

— فإنهم قالوا : لترسلن إلى الأشر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيا فنا كما قتلنا عثمان ،

أو لنسلمنك إلى عدوك .

فأقبل الأشر نائراً حتى انتهى إليهم فصاح فقال :

— يا أهل الذل والوهن ، أحين علوتم القوم فظنوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا

المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ؟ وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أنزلت

عليه ، فلا تجيبوهم . أمهلوني فواقاً ، فإنى قد أحسست بالفتح .

— لا .

— فأمهلوني عدوة الفرس ، فإنى قد طمعت فى النصر .

— إذن ندخل معك فى خطيئتك .

— فحدثوني عنكم ، وقد قتل أمثالكم وبقي أراذلكم ، متى كنتم محقين ،

أحين كنتم تقتلون أهل الشام ، فأنتم الآن حين أمسكنم عن القتال مبطلون أم أنتم

الآن فى إمساكنكم عن القتال محقون ؟ فقتلناكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا

خييراً منكم ، فى النار !

— دعنا منك يا أشر ، قتلناهم فى الله ، وندع قتالهم فى الله ، إنا لسنا نطيعك

فاجتنبنا .

— خدعتم والله فأنخدعتم ، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ، يا أصحاب الجباه

السود ، كنا نظن أن صلاتكم زهادة فى الدنيا وشوق إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم

إلا إلى الدنيا من الموت . ألا قبحا يا أصحاب النيب الجلالة ، ما أنتم برائين بعدها
عزًا أبدًا ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون .

فسبوه وسبهم ، وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم ،
فصاح بهم على فكفوا ، وقال الأشر :
— يا أمير المؤمنين ، احمل الصف على الصف يصرع القوم .

فتصايحوا :

— إن عليًا أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضى بحكم القرآن ولم يسعه إلا
ذلك .

— إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضى بحكم القرآن قد رضيت بما رضى أمير
المؤمنين .

وهو ساكت لا يبيض بكلمة ، فأقبل الناس يقولون :

— قد رضى أمير المؤمنين ، قد قبل أمير المؤمنين .

ثم قام الإمام فسكت الناس كلهم ، فقال :

— أيها الناس ، إن أمرى لم يزل معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب
وقد والله أخذت منكم وتركت ، وأخذت من عدوكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنكى
وأنتك ، إلا أنى كنت أمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأمورًا ، وكنت ناهيًا
فأصبحت منهيًا ، وقد أحببت البقاء وليس لى أن أحملك على ما تكرهون .

٣١

جاء الأشعث بن قيس إلى على فقال :

— يا أمير المؤمنين ، ما أرى الناس إلا وقد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما
دعوههم إليه من حكم القرآن ، فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ، ونظرت ما
الذى يسأل .

— ائته إن شئت .

فأتاه فسأله فقال :

— يا معاوية ، لأى شىء رفعتم هذه المصاحف ؟

— لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه ، فابعثوا منكم رجلا ترضون به ،

ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملأ بما فى كتاب الله لا يعدونه ، ثم نتبع ما

اتفق عليه .

— هذا هو الحق .

وقال الناس :

— قد رضينا بحكم القرآن .

فقال أهل الشام .

— فإننا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص .

وقال الأشعث وبعض القراء :

— فإننا قد رضينا واخترنا أبا موسى الأشعرى .

فقال لهم على :

— إنى لا أرضى بأبى موسى ، ولا أرى أن أوليه .

فقال الأشعث :

— إنا لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه .

— فإنه ليس لى برضا ، وقد فارقتى وخذل الناس عنى ثم هرب حتى أمنتته بعد

أشهر ، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك .

— والله لا نبألى ، أكنت أنت أو ابن عباس ، ولا نريد إلا رجلا هو منك ومن

معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر .

— فإنى أجعل الأشر .

— وهل سعر الأرض علينا غير الأشر ، وهل نحن إلا فى حكم الأشر ؟

— وما حكمه ؟

- حكمه أن يضرب بعضنا بعضًا بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد .
- إن معاوية لم يكن ليضع هذا الأمر أحدًا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح للقرشي إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به ، فإن عمرًا لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ولا يحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمرًا إلا نقضه ، ولا ينقض أمرًا إلا أبرمه .
- لا والله لا يحكم فيها مضر يان حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعله رجلا من أهل اليمن إذ جعلوا رجلا من مضر .
- إني أخاف أن يُخدع يمينكم ، فإن عمرًا ليس من الله في شيء ، إذا كان له في أمر هوى .
- والله لأن يحكما ببعض ما نكره ، وأحدهما من أهل اليمن ، أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضر يان .
- قد أبيتم إلا أبا موسى ؟
- نعم .
- فاصنعوا ما أردتم .
- وذهب رجال الإمام إلى معاوية لكتابة وثيقة الصلح ، فكتبوا :
- « هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين » .
- فقال معاوية :
- بش الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته .
- وقال عمرو :
- اكتب اسمه واسم أبيه ، إنما هو أميركم ، وأما أميرنا فلا .
- فخرج رجال الإمام فلما أعيد الكتاب أمر بمحوه ، فقال الأحنف :
- لا تمح اسم إمرة المؤمنين عنك ، فإني أتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبدا . لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضا .
- فأبى مليا من النهار أن يمحوها ثم إن الأشعث بن قيس جاء فقال : امح هذا الاسم .
- (أهل البيت)

فقال الإمام في حسرة :

— لا إله إلا الله والله أكبر ، سنة بسنة ، أما والله لعلى يدي دار هذا الأمر يوم الحديبية ، حتى كتبت الكتاب عن رسول الله ﷺ : « هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو » فقال سهيل : لا أجيبك إلى كتاب تسمى فيه رسول الله ﷺ ، ولو أعلم أنك رسول الله لم أقاتلك ، إني إذا ظلمتك أن منعتك أن تطوف بيت الله وأنت رسول الله ، ولكن اكتب : « محمد بن عبد الله » أجبك . فقال محمد ﷺ : « يا على إني لرسول الله ، وإني لمحمد بن عبد الله ، ولن يمحو عنى الرسالة كتابي إليهم من محمد بن عبد الله ، فاكتب : « محمد بن عبد الله » . فراجعنى المشركون فى هذا مدة ، فاليوم أكتبها إلى آبائهم كما كتبها رسول الله ﷺ إلى آبائهم سنة ومثلا .

وكتبت وثيقة الصلح ، ودعى لها الأشر فقال :

— لا صحبتنى يمينى ولا نفعتنى بعدها الشمال إن كتب لى فى هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادة . أولست على بينة من ربي ، ويقين من ضلالة عدوى ؟ أولستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الجور .

فقال الأشعث :

— إنك والله ما رأيت ظفراً ولا خوراً ، هلم فاشهد على نفسك ، وأقرر بما كُتب فى هذه الصحيفة ، فإنه لا رغبة بك عن الناس .

— بلى والله ، إن لى لرغبة عنك فى الدنيا للدنيا ، وفى الآخرة للآخرة . ولقد سفك الله بسيفى هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندى ولا ألوم دما ، ولكن قد رضيت بما صنع على أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه ، وخرجت مما خرج منه ، فإنه لا يدخل إلا فى هدى وصواب .

وأتى سليمان بن صرد علياً أمير المؤمنين . ووجهه مضروب بالسيف فلما نظر إليه على قال :

— ﴿ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ . فأنت ممن

ينتظر وممن لم يبدل .

— يا أمير المؤمنين ، أما لو وجدت أعوانا ما كتبت هذه الصحيفة أبداً . أما والله لقد مشيت في الناس ليعودوا إلى أمرهم الأول فما وجدت أحدا عنده خير إلا قليلا :

وقام رجل إلى أمير المؤمنين وقال :

— يا أمير المؤمنين ، ما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ فوالله إني لأخاف أن يورث ذلا .

— أبعد أن كتبناه ننقضه ، إن هذا لا يحل .

وندم أناس من أصحاب عليّ على قبول التحكيم بعد فوات الأوان كما هي عادتهم ، فنادوا من كل جهة وفي كل ناحية :

— لا حكم إلا لله ، الحكم لله يا عليّ لالك ، لا نرضى أن يحكم الرجال في دين الله ، إن الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه ، أن يقتلوا أو يدخلوا في حكمنا عليهم . وقد كانت منزلة حين رضىنا الحكمين ، فرجعنا وتبنا ، فارجع أنت يا عليّ كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تبنا ، وإلا برئنا منك .

وما كان عليّ ممن ينقض عقداً ، وإن كان ذلك العقد ينزل به الحيف والجور فقال :

— ويحكم أبعد الرضا والميثاق نرجع ، أوليس الله تعالى قال : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ وقال : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ .

وأبى عليّ أن يرجع وأبى الخوارج إلا تضليل التحكيم والطعن فيه . وعاد الإمام إلى الكوفة ، وفارقه الخوارج وتم التحكيم فخدع عمرو أبا موسى فخلع علياً وثبت معاوية وهرب أبو موسى إلى مكة ، وقام الإمام في الكوفة فخطب الناس فقال :

— الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل ، وأشهد أن لا إله

إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة ، وتعقب الندم ، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين أمرى ، ونحلتكم رأى لو كان لقصير أمر ، ولكن أبيتم إلا ما أردتم ، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشيد إلا ضحى الغد
ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء
ظهورهما ، وأحيا ما أمات القرآن واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله
فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية ، واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد ،
فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام .
ثم نزل وكتب إلى الخوارج : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير
المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس ، أما بعد فإن
هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمهما قد خالفا كتاب الله واتبعوا أهواءهما بغير
هدى من الله فلم يعملوا بالسنة ولم ينفذا للقرآن حكما ، فبرئ الله ورسوله منهما
والمؤمنون . فإذا بلغكم كتابى هذا فأقبلوا ، فإننا سائرون إلى عدونا وعدوكم ونحن
على الأمر الأول الذى كنا عليه والسلام » .

فلما بلغ الكتاب الخوارج كتبوا إلى على : « أما بعد ، فإنك لم تغضب لربك
إنما غضبت لنفسك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة ، نظرنا
فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء . إن الله لا يحب الخائنين » .
وخرج الإمام بجيشه إلى النخيلة وقد أيس من الخوارج ، وانتظر وفود أنصاره
من البصرة لينطلق إلى أهل الشام .

وأقبلت خارقة البصرة حتى دنت من أخواتها بالنهر ، فخرجت عصاة منهم
فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار ، فعبروا عليه فتهددوه وأفزعوه ، وقالوا له :
— من أنت ؟

— أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ .

ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض وكان سقط . عنه لما أفزعوه ، فقالوا له :

— أفزعناك ؟

— نعم .

— لا روع عليك ، فحدثنا عن أيك بحديث سمعه من النبي ﷺ لعل الله ينفعنا به .

— حدثني أئى عن رسول الله ﷺ أن فتنة تكون يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه ، يمسى فيها مؤمنا ويصبح فيها كافرا ، ويصبح فيها كافرا ويمسى فيها مؤمنا .

— لهذا الحديث سألتك ، فما تقول فى أئى بكر وعمر ؟
فأثنى عليهما خيرا ، قالوا :

— ما تقول فى عثمان فى أول خلافته وفى آخرها ؟
— إنه كان محقا فى أولها وفى آخرها .

— وما تقول فى على قبل التحكيم وبعده ؟

— إنه أعلم بالله منكم وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة .

— إنك تتبع الهوى وتوالى الرجال على أسمائها لا على أفعالها ، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا .

وجاءوا به فأضجعوه فذبحوه ، فبلغ ذلك عليا ومن معه من المسلمين ، فبعث إليهم رسولا ليأتهم فينظر فيما بلغه عنهم ويكتب به إليه على وجهه ولا يكتمه ، فخرج حتى انتهى إلى النهر ليسألهم ، فخرج إليه القوم فقتلوه ، وأقى الخبر أمير المؤمنين والناس ، فثارت ثائرتهم ، فقام إليه الناس فقالوا :

— يا أمير المؤمنين ! علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى أموالنا وعمالنا ؛ سر بنا إلى القوم ، فإذا فرغنا ما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام .

وكان أمير المؤمنين يرى أن يخرج لأهل الشام ، ولكن أنصاره خالفوه كما هى عادتهم ، وطالبوا بالخروج إلى الخوارج ، فانطلق الإمام حتى نزل المدائن فبعث إلى أهل النهر :

— ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام ، فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم . فبعثوا إليه فقالوا :

— كلنا قتلتم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم .

فقال قيس بن سعد بن عبادة :

— عباد الله ! اخرجوا إلينا طلبتنا منكم وادخلوا في هذا الأمر الذى منه خرجتم ، وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم ، فإنكم ركبتم عظيما من الأمر . تشهدون علينا بالشرك ، والشرك ظلم عظيم ، وتسفكون دماء المسلمين وتعدونهم مشركين .

— إن الحق قد أضاء لنا ، فلسنا نتابعكم أو تأتوننا بمثل عمر .

— ما نعلمه فينا غير صاحبنا ، فهل تعلمونه فيكم ؟

وظل الخوارج على رأيهم ، ورأى الإمام أن يناظرهم فخرج إليهم فقال :

— أيتها العصابة التى أخرجها عداوة المرء والجاجة ، وصدها عن الحق الهوى ، وطمع بها النزق وأصبحت فى اللبس والخطب العظيم ، إني نذير لكم أن تصبحوا تلقىكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا النهر ، وبأهضام هذا الغائط بغير بينة من ربكم ولا برهان بين ، ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دهن ومكيدة لكم ، ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنى أعرف بهم منكم ؛ عرفتهم أطفالا ورجالا ، فهم أهل المكر والغدر ، وأنكم إن فارقتم رأى جانبتهم الحزم ، فعصيتموني حتى إذا أقررت حكمت فلما فعلت شرطت واستوثقت فأخذت على الحكمين أن يمينا ما أحيا القرآن ؛ وأن يمينا ما أمات القرآن ، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة ، فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأول ؛ فما الذى جاء بكم ؟ ومن أين أتيم ؟

— إنا حكمنا ، فلما حكمنا أثما ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تبنا ، فإن تبنا كما تبنا فنحن معك ، وإن أبيت فاعتزلنا ، فإننا منابذك على سواء ، إن الله لا يحب

الخائنين .

— أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم دابر ، أبعد إيماني برسول الله ﷺ ،
وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر ؟ لقد ضللت إذن وما
أنا من المهتدين !
فتنادى الخوارج :

— لا تخاطبوهم ولا تكلموهم : وتهيئوا للقاء الرب .. الرواح الرواح إلى
الجنة .

فخرج على فعباً الناس ، وقاتل القوم حتى فرغ منهم .

٣٢

بلغ علياً وثوب أهل مصر على محمد بن أبي بكر ، فأطرق يفكر فيمن يصلح
لمصر فلم يجد إلا قيس بن سعد والأشتر ، ولكن الإمام كان قد عزل قيساً عنها وولى
ابن أبي بكر ، فكتب إلى الأشتر :

« أما بعد ، فإنك ممن استظهرته على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأئيم ، وأشد
به الشغل المخوف ، وقد كنت وليت محمد بن أبي بكر مصر ، فخرجت عليه بها
خوارج وهو غلام حدث ليس بذى تجربة للحرب ولا بمجرب للأشياء ، فأقدم على
لننظر في ذلك فيما ينبغي ، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من
أصحابك والسلام » .

وقدم الأشتر على الإمام فقال الإمام له :

— ليس لها غيرك ، اخرج رحمك الله ، فإنى إن لم أوصك كفيت برأيك ،
واستعن بالله على ما أمرك ، فاخلط الشدة باللين ، وارفق ما كان الرفق أبلغ ،
واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة .

فخرج الأشتر فأتى رحله متهيئاً للخروج إلى مصر ، وأتت معاوية عيونه

فأخبروه بولاية عليّ الأشر ، فعظم ذلك عليه ، فإن الأشر إن قدم مصر كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر ، وأطرق يفكر في وسيلة يتخلص بها من ذلك الفارس الذي لا يشق له غبار ، فهداه تفكيره إلى أن يستل سلاح الغدر ، فهو سلاحه البتار ، فبعث إلى رجل من أهل الخراج : « إن الأشر قد ولى مصر فإن أنت كفتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت ، فاحتل له بما قدرت عليه » . فخرج الرجل يعترض طريق الأشر ، فلما انتهى إليه استقبله الرجل وقال في حفاوة :

— هذا منزل وهذا طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج .

فنزل به الأشر ، فأتاه الرجل بعلف وطعام حتى إذا طعم أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سما ، فسقاه إياه ، فلما شربها مات ، وهكذا قضى سيف من سيوف الله غدرا ، وهرع الرجل إلى معاوية فأخبره بمقتله . فبان البشر في وجه معاوية ، فقد قتل عمار بن ياسر في صفين وها هو الأشر يستلط على أبواب مصر صريعاً ، ولم يستطع معاوية أن يكبت سروره ، فقام في الناس خطيباً فقال :

— أما بعد ، فإنه كانت لعليّ بن أبي طالب يدان ، يمينان ، قطعت إحداها يوم صفين وقطعت الأخرى اليوم .

وعزم معاوية على غزو مصر فخرج عمرو بن العاص يسير حتى نزل أداني مصر فاجتمعت العثمانية إليه ، فأقام بهم وكتب إلى محمد بن أبي بكر : « أما بعد فتتح عني بدمك يابن أبي بكر فإنني لا أحب أن يصيبك مني ظفر ، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإنني لك من الناصحين والسلام » .

فكتب ابن أبي بكر إلى ابن العاص : « أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت في كتابك يابن العاص ، زعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر وأشهد أنك من المبطلين ، وتزعم أنك لي نصيح ، وأقسم أنك عندى ظنين ، وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيي وأمرى ، وندموا على اتباعي ، فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء ، فحسبنا الله رب العالمين » .

وبعث محمد بن أبي بكر رسولا إلى الإمام ينبئه نبأ عمرو بن العاص ، فانطلق الرسول إلى أمير المؤمنين ، فلما فرغ عليّ من قراءة كتاب ابن أبي بكر ، خرج إلى الجامع وأمر فتوى الصلاة جامعة ، فتوافد الناس ، وقام عليّ فقال :
— أما بعد ، فإن هذا صريخ محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابن النابغة عدو الله ، وولى من عادى الله ، فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت أشد اجتماعاً منكم على حقكم هذا ، فإنهم قد بدأوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر . عباد الله إن مصر أعظم من الشام ، أكثر خيراً وخيراً أهلاً ، فلا تغلبوا على مصر ، فإن بقاء مصر في أيديكم عز لكم ، وكبت لعدوكم ، اخرجوا إلى الجرعة بين الحيرة والكوفة ، فوافوني بها هناك غداً إن شاء الله .

وانصرف عليّ ، وانقضى الليل وهو يفكر في انتداب الناس إلى الخروج إلى مصر لشدة أزر ابن الصديق ، فلما لاح نور الصباح خرج يمشي إلى الجرعة فنزلها بكرة ، وأقام بها وانتظر الناس الذين سيوافونه هناك . ومرت ساعات ولم يوافه منهم رجل واحد فحز ذلك في نفسه ، وضاق صدره ، ولكنه تواصل بالصبر وانتظر فأخذت الساعات في المرور ، ولم يقدم أحد فحزن واكتأب فما بال القوم لا يجيئون دعوته ؟ وانتصف النهار واعتلت الشمس كبد السماء ، فقام عائداً والأسى يهصر قلبه ، والحنق يملأ صدره ، وساءه معاوية يدعوقومه فيتبعونه ، وهو يدعو من حوله فيقومون عنه ويعصونه ، إنه ليتمنى فراق القوم الذين ابتلاه الله .

٣٣٠

وراح يفكر في صريخ محمد بن أبي بكر ، فازداد حزناً على حزن ، ودخل الدار مطأطئ البصر ، كسير الفؤاد ، يحس للحزن وخزا ، وانقضى النهار ولم تهدأ نفسه ، بل كان كلما تذكر ما أصابه من أنصاره زاد غماً ، فلما كان من العشي بعث إلى أشراف الناس ، فدخلوا عليه وهو حزين كئيب ، فالتفت إليهم وقال لهم :
— الحمد لله على ما قضى من أمرى ، وقدر من فعلى ، وابتلاني بكم أيتها الفرقة

ممن لا يطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت ، لا أبا لغيركم ما تنتظرون بصبركم والجهاد على حقكم ، الموت والذل لكم في هذه الدنيا على غير الحق ، فوالله لئن جاء الموت وليأتين ليفرقن بيني وبينكم ، وأنا لصحبكم قال ، ولكم غير ضنين ، لله أنتم لا دين لكم بجمعكم ، ولا حمية تحسيكم إذا أنتم سمعتم بعدوكم يرد بلادكم ، ويشن الغارة عليكم ، أوليس عجباً أن معارية يدعو الجفافة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ، ويجبيونه في السنة المرتين والثلاث إلى أى وجه شاء ، وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على المعونة ، وطائفة منكم على العطاء ، فتقومون عني وتعصونني وتختلفون عليّ .

وصمت الإمام وقد بلغ التأثير به متناه ، ورأى مالك بن كعب الهمداني تأثر الإمام العميق وحزنه الشديد فقام إليه فقال :

— يا أمير المؤمنين اندب الناس ، فإنه لا عطر بعد عروس ، لمثل هذا اليوم كنت أؤخر نفسي ، والأجر لا يأتي إلا بالكراهة . اتقوا الله وأجيبوا إمامكم وانصروا دعوته وقاتلوا عدوه ، أنا أسير إليها يا أمير المؤمنين .

وراح عليّ ينادى في الناس : « ألا انتدبوا إلى مصر مع مالك بن كعب » . فلم يسارع الناس إلى الانتداب ، وانقضت أيام ، وتأهب الخارجون للخروج ، وخرج مالك وخرج الإمام معه فنظر فإذا جميع من خرج نحو ألفى رجل ، فظهر الأسى في وجهه ، وتيقن أن مصر قد خرجت من يده ، فقال لمالك :

— سر فوالله ما إخالك تدرك القوم حتى ينقضى أمرهم .

قاتل محمد بن أبي بكر عمرو بن العاص وجيوش الشام ولكنه هُزم ، وقبض عليه وقتل وأدخل في جوف حمار ثم أحرق عليه بالنار ، وكان الحجاج بن عزية الأنصاري مع محمد بن أبي بكر في مصر فلما رأى مقتله المروع خرج إلى عليّ ليحدثه بما رأى وعاین .

وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية : « أما بعد ، فإننا لقينا محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في جموع جمة من أهل مصر ، فدعوناهم إلى الهدى والسنة وحكم

الكتاب ، فرفضوا الحق وتوركوا في الضلال ، فجاهدناهم ، واستنصرنا الله عليهم ، فضرب الله وجوههم وأدبارهم ، ومنحونا أكتافهم ، فقتل الله محمد بن أبي بكر ، وكنانة بن بشر وأماثل القوم . الحمد لله رب العالمين والسلام عليك .
ودفع بالكتاب إلى رسول فخرج الرسول إلى الشام يحمل إليهم نبأ فتح مصر وقتل ابن الصديق ، وبلغ الكتاب معاوية فظهر الرضا في وجهه ، وأذن على المنبر بقتل محمد فأظهر الناس سرورهم ، وسمع عبد الرحمن بن شيب الفزارى بقتل محمد فحزن وساءه النبأ ، فقد كان عين عليّ بالشام ، ولما استوثق من هلاك محمد ؛ خرج ليأتي علياً بالنبأ الفادح .

ودخل الأنصارى الكوفة ، وأقبل بعده الفزارى ، وقدم على عليّ ، فراح الأنصارى يقص ما رأى ، فرؤى الحزن في وجه الإمام وتبين فيه ، وقال الفزارى :
— إنى لم أخرج من الشام حتى قدمت البشراء من قبل عمرو بن العاص ترى يتبع بعضها بعضاً بفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر ، وحتى أذن بقتله على المنبر .
وساد الحزن المكان وقال الفزارى :

— يا أمير المؤمنين ، قلما رأيت قوماً قط أسر ، ولا سرورا قط أظهر من سرور رأيت به بالشام حين أتاهم هلاك محمد بن أبي بكر .
فقال الإمام في أسى :

— أما إن حزننا عليه على قدر سرورهم به ، لا بل يزيد أضعافاً .
وبعث الإمام إلى القوم المنطلقين إلى مصر للانضمام إلى محمد ليردهم من الطريق ، فقد انتهى الأمر ، وقتل محمد ، وما ساروا إلا خمسا ، وقام عليّ في الناس خطيباً وقد تملكه الحزن والغضب ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ وقال :

— ألا إن مصر قد فتحها الفجرة أولو الجور والظلم الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الإسلام عوجاً . ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمه الله فعند الله نحسبه ، وأما والله إن كان ما علمت لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ، ويغض

شكل الفاجر ، ويحب هدى المؤمن ، إني والله لا ألوم نفسي على التقصير ، وإني لمقاساة الحرب لجد خبير ، وإني لأقدم على الأمر ، وأعرف وجه الحزم ، وأقوم فيكم بالرأى المصيب ، فأستصرحكم معلنا ، وأناديكم نداء المستغيث معربا ، فلا تسمعون لي قولا ، ولا تطيعون لي أمرا ، حتى تصير بي الأمور إلى عواقب المساءة ، فأنتم القوم لا يدرك بكم ثأر ، ولا ينقضي بكم الأوتار ، دعوتكم إلى غياث إخوانكم من بضع وخمسين ليلة ، فتجرجرتم جرجرة الجمل الأشدق ، وتثاقلتم إلى الأرض ثاقل من ليس له نية في جهاد العدو ، ولا اكتساب الأجر ، ثم خرج إلى منكم جنيد متذانب كثيرة يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، فأف لكم .

وكتب إلى عبد الله بن عباس وهو بالبصرة : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس . سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن مصر قد افتتحت ، ومحمد بن أبي بكر قد استشهد فعند الله نحتسبه وندخره . وقد كنت قمت في الناس في بدئه وأمرتهم بغياثه قبل الواقعة ، ودعوتهم سرا وجهرا وعودا وبدءا فمنهم من أتى كارها ومنهم من اعتل كاذبا ومنهم القاعد حالا . أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجا ومخرجا وأن يريحني منهم عاجلا ، والله لولا طمعي عند لقاء عدوى في الشهادة لأحببت أن لا أبقى مع هؤلاء يوما واحدا ، عزم الله لنا ولك على الرشد وعلى تقواه وهداه ، إنه على كل شيء قدير والسلام » .

أرسل معاوية بن أبي سفيان بسر بن أبي أرطاة في جيش ، فساروا من الشام حتى قدموا المدينة ، فلم ير عامل عليّ بدءا من الفرار ، فصعد بسر منبر المدينة فقال : — يا أهل المدينة ، والله لولا ما عهد إليّ معاوية ما تركت بها محتلمًا إلا قتله . وهدم بسر دورًا بالمدينة ثم مضى حتى أتى مكة ، فخافه أبو موسى الأشعري أن يقتله ، فقال له بسر :

— ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله ﷺ ذلك .

فخلى عنه ، ورأى أبو موسى بطش بسر ، فأشفق على قومه فكتب إلى أهل اليمن : « إن خيلا مبعوثه من عند معاوية تقتل من أبي أن يقر بالحكومة » . وكان بمكة ابنا عبيد الله بن عباس . فلما دخلها بسر خرجا وأمهما حورية ابنة خالد بن فارط الكنانية ، وبلغوا كنانة ، فلما انصرف بسر من الطائف ، مر ببني كنانة وفيهم ابنا عبيد الله بن عباس وأمهما ، فلما انتهى بسر إليهم طلبهما ، فدخل رجل من بني كنانة بيته وخرج ، فقال له بسر :

— ثكلتك أمك ، والله ما كنا أردنا قتلك ، فلم عرضت نفسك للقتل ؟

— أقتل دون جاري أعذر لي عند الله والناس .

ثم شد على أصحاب بسر بالسيف حاسرًا ، فضارب بسيفه حتى قتل ، ثم قدم الغلامان فقتلا ، فثارت نسوة من بني كنانة ، فخرجن ساخطات فقالت امرأة منهن :

— هذه الرجال تقتلها ، فما بال الولدان ؟ والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ولا

إسلام ، والله إن سلطانًا لا يستد إلا بقتل الزرع الضعيف والشيخ الكبير ، ورفع الرحمة ، وقطع الأرحام لسلطان سوء .

— والله لهمت أن أضع فيكن السيف .

— والله إنه لأحب إليّ إن فعلت .

وانطلق بسر إلى اليمن يقتل في مسيره شيعة عليّ ، فلما بلغ عبيد الله بن عباس قدوم بسر إلى الكوفة ، واستخلف رجلا على اليمن ، فلما دخلها بسر قتله .
وبلغ عليّا خبر بسر ، فوجه جارية بن قدامة بن ألفين ، فانطلق يطلب سرا وأصحابه ، ووافى أوان الحج ، فحج ناس من الخوارج . وقد اختلف عامل عليّ وعامل معاوية ، فاصطلح الناس على شبيب بن عثمان ، فلما انقضى الموسم أقام النفر من الخوارج مجاورين بمكة ، فقالوا :

— كان هذا البيت معظمًا في الجاهلية ، جليل الشأن في الإسلام ، وقد أنكه هؤلاء حرمة ، فلو أن قومًا شروا أنفسهم فقتلوا هذين الرجلين اللذين أفسدا في الأرض واستحلا حرمة هذا البلد ، واستراحت الأمة واختار الناس لهم إماما .
فقال عبد الرحمن بن ملجم :

— أنا أكفيكم أمر عليّ .

وقال الحجاج بن عبد الله الصرمي :

— أنا أقتل معاوية .

وقال زاذويه :

— والله ما عمرو بن العاص بدونهما فأنا به .

واتفقوا على يوم واحد يكون فيه القتل ؛ ثم انطلق كل منهم إلى صاحبه الذي توجه إليه .

* * *

كانت قطام ابنة الشحنة فائقة الحسن ، رائعة الجمال ، لكن قلبها كان ينطوى على المقت لابن أبي طالب ، فقد قتل أباه وأخاها يوم النهر ، فكانت لا تفكر إلا في قتل عليّ والثأر لأهلها .

أخذت تعجم رجال قومها تيم الرباب فلم تجد فيهم من ينهض بأمرها ،

فانتظرت ترقب السوانح لعلها تجد فرصة تشفى غليل نفسها . وفي يوم جاء ابن ملجم أصحاباً من تيم الرباب فوجد قطاعاً عندهم ، فأسره جماها فخفق لها قلبه ، وشغلته حتى كادت تنسيه حاجته .

وتمكن حب قطام من قلب ابن ملجم فتقدم بخطبها ، فقالت له :
— لا أتزوجك حتى تشفى لى .

— وما يشفيك ؟

— ثلاثة آلاف وعبد وقينة ، وقتل على بن أبى طالب .

— هو مهر لك ، فأما قتل على فلا أراك ذكرته لى وأنت تريديننى .

— بل التمس غرته ، فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ، ويهتك الغيش معى ،

وإن قُلت ، فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها .

— فوالله ما جاء بى إلى هذا المصر إلا قتل على فلك ما سألت .

— إنى أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك .

وأقام بن ملجم عند قطام ومرت الأيام ولم ينفذ ما عزم عليه ، فاستولت عليها

الوساوس وخشيت أن يحجم عما عزم ؟ فالتفت إليه وقالت :

— لطالما أحبيت المكث عند أهلك ، وأضربت عن الأمر الذى جئت بسببه .

— إن لى وقتاً واعدت فيه أصحابى ولن أجاوزة .

وخرج ابن ملجم ، فلقية رجل من أشجع من الخوارج فقال له :

— هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟

— وما ذاك ؟

— أتساعدنى على قتل على ؟

— ثكلتك أمك ، لقد جئت شيئاً إدا ، قد عرفت غناؤه فى الإسلام ، وسابقته

مع النبى ﷺ .

— ويحك ، أما تعلم أنه قد حكم الرجال فى كتاب الله ، وقتل إخواننا

المصلين ؟ فنقتله ببعض إخواننا .

- وكيف تقدر ويحك على قتل ابن أُمى طالب ؟
- نكمن له فى المسجد الأعظم فإذا خرج لصلاة الفجر فتكنا به وقتلناه وشفينا أنفسنا منه ، وأدركنا ثأرنا .
- فلم يزل به حتى أجابه ، وذهب ابن ملجم وشبيب بن بجرة إلى قطام وهى فى المسجد الأعظم معتكفة فقالا لها :
- قد أجمع رأينا على قتل على .
- فإذا أردتم ذلك فأتوني .
- ووافى اليوم الذى تواعد فيه الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو ، فدخل ابن ملجم على قطام فقال لها :
- هذه الليلة التى واعدت فيها صاحبى أن يقتل كل واحد منا صاحبه .
- وجاء شبيب فأعلمتهما أن مجاشع بن وردان قد انتدب لقتله معهما . ودعت لهم بالحرير فعصبتهم به ، وأخذوا أسياфهم وانطلقوا إلى المسجد لاغتيال أمير المؤمنين .
- الناس يصلون قريبا من السدة ، ما هم إلا قيام وركوع وسجود ، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره ، وخرج على لصلاة الغداة ، فجعل ينادى :
- أيها الناس الصلاة الصلاة .
- وتألق بريق ، وصاح صائح :
- الحكم لله يا على لا لك ولا لأصحابك .
- ثم تألق بريق سيف آخر ، وقال أمير المؤمنين :
- لا يفوتنكم الرجل .
- وشد الناس على ابن ملجم من كل جانب حتى أخذوه ، وطرح رجل شبيباً فصرعه وجلس على صدره ، وأخذ السيف من يده ليقتله ، فرأى الناس يقصدون نحوه ، فخشى أن يعجلوا عليه فوثب عن صدره ، وخلاه ، وطرح السيف من يده ، ومضى شبيب ففاته فخرج هاربا ، وفر مجاشع قبل أن يقع فى أيدي الناس .

وحمل الإمام حتى إذا ما استقر في داره قال :
— على بالرجل .

فأدخل عليه ، فالتفت إليه وقال :
— أى عدو الله ، ألم أحسن إليك ؟
— بلى .

— فما حملك على هذا ؟

— شحذته أربعين صباحا ، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه .
— لا أراك إلا مقتولا به ، ولا أراك إلا من شر خلقه .

ونظر الإمام إلى الحسن وقال :

— أطيبوا طعامه ، وألبنوا فراشه ، فإن أعش فأنا ولي دمي ، إما عفوت وإما
اقتصصت ، وإن أمت فألحقوه بي ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .
وخرج الحسن بابن ملجم وهو مكتوف ، فخرجت أم كلثوم تبكى وتنتحب
وتقول :

— يا عدو الله قتلت أمير المؤمنين .

— ما قتلت أمير المؤمنين ، ولكن قتلت أباك .

— والله إنى لأرجو أن لا يكون عليه بأس .

— ولم تبكين إذا ؟ والله لقد أرهفت السيف ونفيت الخوف ، أوجبت
الأجل وقطعت الأمل ، وضربت ضربة لو كانت بأهل الشرق لأنت عليهم .

ودخل الناس على الإمام يسألونه ، فقالوا :

— يا أمير المؤمنين ، رأيت إن فقدناك — ولا نفقدك — أنبايع الحسن ؟

— لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر .

فقال رجل من القوم :

— ألا تعهد يا أمير المؤمنين ؟

— لا ولكن أتركهم كما تركهم رسول الله ﷺ .

(أهل البيت)

— فماذا تقول لربك إذا أتيتَه ؟

— أقول : اللهم إنك أبقيتني فيهم ما شئت أن تبقيني ، ثم قبضتني وتركتك فيهم ، فإن شئت أفسدتهم ، وإن شئت أصلحتهم .

ثم دعا الحسن والحسين فقال :

— أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم ، وأغثا الملهوف واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا ، واعملا بما في الكتاب ولا تأخذكما في الله لومة لائم .

ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال :

— هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟

— نعم .

— فإني أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ولا تقطع أمرا دونهما .

والتفت إلى الحسن والحسين وقال :

— أوصيكما به ، فإنه شقيقكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أباكما كان يحبه .

ووهن أمير المؤمنين ، وراح الرجل العظيم يجود بأنفاسه ، فخشي أن يطيش

الغضب بعقول بنيهِ ، فقال لهم :

— يا بني عبد المطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير

المؤمنين قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن إلا قاتلي .

خرج عبد الله بن عباس إلى الناس ، وقد بان في وجهه الحزن العميق ، فشخص
الناس إليه فقال في صوت متهدج :

— إن أمير المؤمنين عليه السلام توفي ، وقد ترك خلفاً إن أحببتم خرج إليكم ،
وإن كرهتم فلا أحد على أحد .

فبكى الناس وقالوا :

— بل يخرج إلينا .

فخرج الحسن وعليه ثياب سود ، فقال وهو يغالب دموعه :

— قد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون ، ولا يدركه الآخرون ، لقد
كان يجاهد مع رسول الله ﷺ وآله فيسبقه بنفسه ، وقد كان يوجهه برايته فلا يرجع
حتى يفتح الله عليه ، ولقد توفي في الليلة التي عُرج فيها بعيسى بن مريم ، والتي توفي
فيها يوشع بن نون ، ولا خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه أراد
أن يتاع بها خادماً لأهله .

ثم خنقته عبراته ، فبكى وبكى الناس معه ، ثم قال :

— أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد
رسول الله ﷺ وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه
والسراج المنير .

فقال قيس بن سعد :

— ابسط يدك أبايك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المحلين .

فقال الحسن :

— تباعون لى على السمع والطاعة ، وتحاربون من حاربت وتسالمون من
سالت .

فلما سمعوا ذلك ارتابوا وأمسكوا أيديهم ، فإنهم يحسون نفور الحسن من
القتال ، فمن يدرهم أنهم لو بايعوه على ذلك لا يسالم معاوية من غده ؟ وانطلق
الناس إلى الحسين ، فلما أتوه قالوا :

— ابسط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك ، وعلى حرب المحلين الضالين أهل
الشام .

— معاذ الله أن أبايكم ما كان الحسن حيًا .

فانصرفوا إلى الحسن فلم يجدوا بدا من بيعته على ما شرط عليهم .

وبعث الحسن إلى ابن ملجم ، فقال للحسن :

— هل لك فى خصلة ، إني والله ما أعطيت عهدًا إلا وفيت به ، إني كنت قد
أعطيت الله عهدًا عند الحطيم أن أقتل عليًا ومعاوية أو أموت دونهما ، فإن شئت
نخلت بينى وبينه ، ولك الله على إن لم أقتله ، أو قتاته ثم بقيت ، أن آتيك حتى
أضع يدي فى يدك .

— أما والله حتى تعانين النار فلا .

وقدمه ليقتل ، فقال عبد الله بن جعفر :

— دعونى حتى أشفى نفسى منه .

فقطع يديه ورجليه ثم قتله ، فأخذته الناس فأدرجوه فى بوارى ثم أحرقوه
بالنار .

وكتب الحسن إلى معاوية :

— « من عبد الله بن الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، أما بعد فإن
الله بعث محمدًا ﷺ وآله رحمة للعالمين فأظهر به الحق ، وقمع به الشرك ، وأعز به
العرب عامة ، وشرف به قريشًا خاصة ، فقال : وإنه لذكر لك ولقومك ، فلما

توفاه الله تنازعت العرب في الأمر بعده ، فقالت قريش نحن عشيرته وأولياؤه فلا تنازعونا سلطانه ، وعرفت العرب لقريش ذلك ، وجاحدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيات ما أنصفتنا قريش ، وقد كانوا ذوى فضيلة في الدين ، وسابقة في الإسلام ولا غرو إلا منازعتك إيانا الأمر بغير حق في الدنيا معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، فالله الموعود ، نسأل الله معروفه أن لا يؤتينا في هذه الدنيا شيئاً ينقصنا عنده في الآخرة .

إن علياً لما توفاه الله ولانى المسلمون الأمر بعده ، فاتق الله يا معاوية ، وانظر لأمة محمد ﷺ وآله ما تحقن به دماءها ، وتصلح به أمرها والسلام .

وبعث بذلك الكتاب الذى يستشف منه نفسيته المسالمة مع رسولين ، فقدما على معاوية ، فدعواه إلى بيعة الحسن ، فلم يجبهما ، وكتب جوابه :

« أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده ، فصرحت بتهمة أبى بكر الصديق وعمر وأبى عبيدة الأمين وصلاح المهاجرين فكرهت لك ذلك . إن الأمة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشاً أخلقها به ، فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله وأخشأها له ، وأقواها على الأمر فاختروا أبابكر ولم يألوا ، ولو علموا مكان رجل غير أبى بكر يقوم مقامه ، ويذب عن حرم الإسلام ذبه ما عدلوا بالأمر إلى أبى بكر ، والحال اليوم بينى وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة وأكيد للعدو وأقوى على جمع الفئ لسلمت لك الأمر بعد أبى بكر ، فإن أبابكر سعى على عثمان حتى قتل مظلوماً ، فطالب الله بدمه ، ومن يطلبه الله فلن يفوته ، ثم ابتز الأمة أمرها وفرق جماعتها . فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم في الإسلام ، وادعى أنهم نكثوا بيعته ، فقاتلهم فسفكت الدماء ، واستحلت الحرم . ثم أقبل إلينا لا يدعى علينا بيعة ، ولكنه يريد أن يملكنا اغتراراً ، فحاربناه وحاربنا ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلاً واختارنا رجلاً ليحكمما بما

تصلح عليه الأمة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقاً وعليه مثله على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكمان عليه الحكم بما علمت وخلعاه ، فوالله ما رضى بالحكم ولا صبر لأمر الله ، فكيف تدعوني إلى أمر إنما تطلبه بحق أبيك وقد خرج منه ، فانظر لنفسك ولدينك والسلام .

ودعا معاوية رسولى الحسن وقال لهما :

— ارجعا فليس بينى وبينكم إلا السيف .

وقفلا عائدين إلى العراق ، فلما دخلا على الحسن قال له :

— إن الرجل سائر إليك فابدأه بالمسير حتى تقاتله فى أرضه وبلاده وعمله ،

فإما أن تقدر أنه ينقاد لك فلا والله حتى يرى منا أعظم من صفين .

فقال الحسن :

— أفعل .

وتذكر الدماء التى سالت فى صفين ، فبغض أن يسوق الناس إلى الموت ، فقعد

عن الخروج .

وفكر معاوية فى أن يستميل الحسن فكتب إليه : « قد علمت أنى أطول منك

ولاية ، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة ، وأكثر منك سنًا ، فأنت أحق أن تجيبنى إلى

هذه المنزلة التى سألتنى ، فادخل فى طاعتى ولك الأمر من بعدى ، ولك ما فى بيت

مال العراق من المال بالغًا ما يبلغ تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج أى كور

العراق شئت معونة لك على نفقتك يجيبها أمينك ويحملها إليك فى كل سنة ، ولك

ألا يستولى عليك بالإساءة ولا تقضى دونك الأمور ، ولا تعصى فى أمر أردت به

طاعة الله ، أعاننا الله وإياك على طاعته ، إنه سميع مجيب الدعاء والسلام . »

فلم يكتب الحسن ردًا ، فقد راح معاوية يمينه الدنيا ، وما كان الحسن يطلب

الدنيا ، إنه كان يخشى إهراق دماء المسلمين وذلك ما جعله يحجم عن أن يقود

الجيوش لقتال معاوية وأهل الشام . وعاد معاوية يكتب إليه يمينه ويهدده ويخوفه

أصحابه : « أما بعد فإن الله يفعل فى عباده ما يشاء . لا معقب لحكمه ، وهو

سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيتك على أيدي رعاك من الناس ، وأيس من أن تجد فينا غميرة ، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت وأجرت لك ما شرطت ، وأكون في ذلك كما قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :
وإن أحدًا أسدى إليك أمانة فأوف بها تدعى إذا مت وافيًا
ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى ولا تجفه إن كان في المال فانيًا
ثم الخلافة لك من بعدى ، فأنت أولى الناس بها والسلام .

فأجاب الحسن : « أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك تذكر فيه ما ذكرت ، وتركت جوابك خشية البغى عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحق تعلم أنى من أهله ، وعلى إثم أن أقول فأكذب والسلام . »

قرأ معاوية الكتاب ، فرأى أن يجمع جنده فكتب إلى عماله : « السلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، فالحمد لله الذى كفاكم مؤونة عدوكم وقتله خليفتمكم ، إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلى بن أبى طالب رجلا من عباده فاغتاله فقتله ، فنزل أصحابه متفرقين مختلفين ، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائهم ، فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابى هذا ، بجهدكم وجندكم ، وحسن عدتكم . فقد أصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الأمل ، وأهلك الله أهل البغى والعدوان ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . »
اجتمعت العساكر إلى معاوية ، فسار بها قاصداً العراق ، وبلغ الحسن خبر مسيره فاستاء فإنه لا يريد أن يقود الناس إلى قتال ، واقترب معاوية من العراق ، فتحرك الحسن وبعث حجر بن عدى فأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير .

ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس ، فلما اجتمعوا خرج إليهم وقد تمثلت في ذهنه صورة خذلانهم لأبيه لما جاء صريح محمد بن أبى بكر من مصر ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد ، فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرها ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : اصبروا إن الله مع الصابرين ، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا

بالصبر على ما تكرهون ، بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك
لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون ، ونرى
وترون .

وظهر من قوله أنه يتخوف خذلان الناس ، فلما سكت اتضح أنهم خاذلوه ،
فسكتوا فما تكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم قام
وقال :

— أنا ابن حاتم ، سبحان الله ما أقبح هذا المقام لا تحييون إمامكم وابن بنت
نبيكم ، أين خطباء مضر الذين ألسنتهم كالخاريق في الدعة ، فإذا جد الجد
فرواغون كالثعالب ، أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارتها ؟!
ثم استقبل الحسن بوجهه وقال :

— أصاب الله بك المرشد ، وجنبك المكاره ، وفقك لما تحمد وروده
وصدوره ، قد سمعنا مقاتلك وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما
رأيت ، وهذا وجهى إلى معسكرى فمن أحب أن يوافينى فليواف .
ثم مضى لوجهه ، فخرج من المسجد ، ودابته بالباب ، فوضع رجله في
الركاب ، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه .

وقام قيس بن سعد ، ومعقل بن قيس ، وزباد بن صعصعة فأنبوا الناس
ولاموهم وحرصوهم وكلموا الحسن بمثل كلام عدى ، فقال لهم الحسن :
— صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة
الصحيحة ، فجزاكم الله خيرا .

ونشط الناس للخروج ، فانطلقوا إلى النخيلة ينتظرون وفود أمير المؤمنين .

دخل الحسن على رجل يجود بنفسه ، فعان ما يقاسيه من الكرب ، فأحس يدا
تهصر قلبه ، فغمغم :
— إن أمرا هذا آخره لجدير بأن يزهد في أوله ، وإن أمرا هذا أوله لجدير أن
يخاف آخره .

وخرج إلى العسكر ، فألقى ألوف الرجال ينتظرونه ، فخرج في عسكر عظيم
وعدة حسنة ، حتى نزل دير عبد الرحمن فأقام به ثلاثا حتى اجتمع الناس ، ثم دعا
عبيد الله بن العباس فقال له :

— يا بن عم ، إني باعث إليك اثني عشر ألفا من فرسان العرب وقراء مضر
الرجل منهم يريد الكتيبة ، فسر بهم وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك ، وافرش
لهم جناحك ، وأدnhem من مجلسك فإنهم بقية ثقات أمير المؤمنين وسر بهم على شط
الفرات حتى تقطع بهم الفرات حتى تصير بمسكن ، ثم امض حتى تستقبل بهم
معاوية ، فإن أنت لقيته فاحبسه حتى آتيك ، فإنني على أثرك وشيكا ، وليكن
خبرك عندي كل يوم ، وشاور هذين « قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس » ، وإذا
لقيت معاوية ، فلا تقاتله حتى يقاتلك ، فإن فعل فقاتله ، وإن أصبت فقيس بن سعد
على الناس ، وإن أصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على الناس .

وسار عبيد الله بن عباس بمن معه ، فجعل أصحاب الحسن الذين وجههم معه
يتسللون إلى معاوية ، الوجوه وأهل البيوتات ، فكتب عبيد الله إليه : « أما بعد
فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد علي عليه السلام ، فشمر للحرب وجاهد عدوك ،
وقارب أصحابك ، واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم لك دنياه ، ووال أهل
البيوتات والشرف تستصلح به عشائهم حتى يكون الناس جماعة ، فإن بعض ما

يكره الناس ما لم يتعد الحق وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل ، وعز الدين خير من كثير مما يحبه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وذل المؤمنين وعز الفاجرين ، واقتد بما جاء عن أئمة العدل فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا في حرب أو إصلاح بين الناس ، فإن الحرب خدعة ولك في ذلك سعة إذا كنت محاربا ما لم تبطل حقا واعلم أن علياً أباك إنما رغب الناس عنه إلى معاوية أنه آسى بينهم في الفئ ، وسوى بينهم في العطاء فثقل عليهم . واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام حتى ظهر أمر الله ، فلما وحد الرب وبحق الشرك وعز الدين أظهروا الإيمان وقرءوا القرآن مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وأدوا الفرائض وهم لها كارهون ، فلما رأوا أنه لا يعز في الدين إلا الاتقياء الأبرار توسموا بسيماء الصالحين لتنظن المسلمون بهم خيراً ، فما زالوا حتى أشركوهم في أمانتهم وقالوا حسابهم على الله ، فإن كانوا صادقين فإخواننا في الدين وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ، والله ما زادهم طول العمر إلا غيا ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مقتا . فجاهدتهم ولا ترض دنية ولا تقبل خسفاً ، فإن عيسا لم يجب إلى الحكومة حتى غلب على أمره فأجاب ، وإنهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام .

وسار الحسن بمن معه حتى نزل ساباط ، وجاء الليل فنظر إلى عسكره وأطرق وبان في وجهه هم ثقيل ، إنه يخشى إهراق دماء المسلمين ، وإنه يخشى أن يسأله الله فيم أهرق دماءهم ، وأمسى طول ليله ينظر في أمره ، فلما أصبح الصباح نادى في الناس :

— الصلاة جامعة .

فاجتمعوا ، فصعد المنبر فقال :

— الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ،

وأشهد أن محمداً رسول الله أرسله بالحق واثمنه على الوحي، صلى الله عليه وآله أما بعد ، فوالله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله منه وأنا أنصح خلقه لخلقه ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة ، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ، ألا وإني ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري ولا تردوا على رأيي ، غفر الله لي ولكم ، وأرشدني وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله .

ثم نزل ، فعلا وجوه الناس وجوم ، ونظر بعضهم إلى بعض وقالوا :
— ما ترونه يريد بما قال ؟

— نظنه يريد أن يصالح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل .
وثارت ثائرة الناس فشدوا على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، ثم شد عليه رجل فنزع مطرفه عن عاتقه ، فبقى جالساً متقلداً سيفاً بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحذق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراد ، ولا موه ، فقال :

— ادعوا لي ربيعة وهمدان .

فدعوا له فأطافوا به ، ودفعوا الناس عنه ، وانطلق ، فلما مر في مظلم ساباط قام إليه جراح بن سنان ويده معول ، فأخذ بلجام فرسه وقال :
— الله أكبر يا حسن ، أشرك أبوك ثم أشركت أنت .

وطعنه بالمعول ، فوقع في فخذه فشقته . وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده ، واعتنقه فخراً جميعاً إلى الأرض ، فوثب رجل ونزع المعول من يد جراح فخصخصه به ، وأكب آخر عليه ، فقطع أنفه ، ثم أخذاه لآجر فشدخا رأسه ووجهه حتى قتلاه .

وحمل الحسن على سرير إلى المدائن ، فقام بها يعالج نفسه ، وجاء الحسين وعبد الله بن جعفر فقال لهما الحسن :

— إني قد كتبت إلى معاوية في الصلح وطلب الأمان .

فثار الحسين وقال :

— نشدتك الله أن تصدق أحداثة معاوية وتكذب أحداثة عليّ ؟

— اسكت فأنا أعلم بالأمر منك .

وأقبل معاوية حتى نزل قرية يقال لها الحيوضة بمسكن ، وأقبل عبيد الله بن عباس حتى نزل بإزائه . فلما كان من غد ، وجه معاوية بخيل إلى عبيد الله فيمن معه فضر بهم حتى ردهم إلى معسكرهم . فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عبيد الله بن عباس أن الحسن قد راسلني في الصلح وهو مُسلم الأمر إليّ ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً ، وإلا دخلت وأنت تابع ، ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك في هذا الوقت نصفاً ، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر .

فأقبل عبيد الله إليه ليلاً ، فدخل عسكر معاوية ، فوفى له بما وعده ، وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج فيُصلّى بهم ، فلم يخرج حتى أصبحوا ، فطلبوه فلم يجدوه ، فصلى بهم قيس بن سعد ثم خطبهم فثبتهم ، وذكر عبيد الله فنال منه ، ثم أمرهم بالصبر والنهوض إلى العدو ، فأجابوه بالطاعة وقالوا له :

— انهض بنا إلى عدونا على اسم الله .

فنهض بهم وخرج إليه بسر بن أرطاة ، فصاح :

— ويحكم !! هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحسن قد صالح فعلام تقتلون

أنفسكم ؟

فقال قيس بن سعد لأهل العراق :

— اختاروا إحدى اثنتين : إما قتال مع غير إمام ، وإما أن تباعوا ببيعة ضلال ! .

— بل نقاتل بلا إمام .

فخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردوهم إلى مصافهم ، فكتب معاوية إلى قيس

ابن سعد يدعوهم ويمنيه ، فكتب إليه قيس :

— « لا والله لا تلقاني أبداً إلا وبينى وبينك الرمح » .

فكتب إليه معاوية جيتنذ لما يشئ منه : « أما بعد ، فإنك يهودى ابن يهودى تشقى نفسك وتقتلها فيما ليس لك ، فإن ظهر أحب الفريقين إليك نبذك وغدرك ، وإن ظهر أبغضهم إليك نكل بك وقتلك ، وقد كان أبوك أوتر غير قوسه ، ورمى غير غرضه ، فأكثر الجذ وأخطأ المفصل فخذله قومه ، وأدركه يومه فمات بحوران طريداً غريباً والسلام . » .

فكتب إليه قيس بن سعد بن عبادة : « أما بعد ، فإنما أنت وثن ابن وثن ، دخلت الإسلام كرها ، وأقمت فيه فرقا ، وخرجت منه طوعا ، ولم يجعل الله لك فيه نصيبا . لم يقدم إسلامك . ولم يحدث نفاقك . ولم تنزل حرباً لله ولرسوله . وحزبا من أحزاب المشركين ، وعدوا لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده . وذكرى ألى لعمرى فما أوتر إلا قوسه ، وما رمى إلا غرضه ، فشغب عليه من لا تشق غباره ، ولا تبلغ كعبه ، وزعمت أنى يهودى ابن يهودى . وقد علمت وعلم الناس أنى وأبى أعداء الدين الذى خرجت منه ، وأنصار الدين الذى دخلت فيه ، وصرت إليه . والسلام . » .

فلما قرأ معاوية كتاب قيس غاظه ، وأراد إجابته فقال له عمرو : — مهلا ، فإنك إن كاتبته أجابك بأشد من هذا ، وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس ، فأمسك عنه .

واعتزل قيس فى أربعة آلاف فارس ، وبعث معاوية عبد الله بن عامر ، وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح فدعوه ، فزهدها الأمر ، وما كان الحسين فى حاجة لمن يزهده ، وأعطياه ما شرط له معاوية ، وأن لا يتبع أحد بما مضى ، ولا ينال أحد من شيعة على بمكروه ، ولا يذكر على إلا بخير . وتم الصلح بين معاوية والحسن ، فانطلق الحسن إلى الكوفة وأكابر أصحابه يلومونه ويبيكون إليه جزعا مما فعل .

سار معاوية حتى نزل النخيلة ، وأقبل الحسن فبايعه ، ومال عمرو بن العاص على معاوية فقال له :

— مر الحسن بن عليّ أن يخطب ، فإنه حديث السن عيسى ، فلعله يتلعثم فيتضع في قلوب الناس .

فطلب معاوية من الحسن أن يخطب فامتنع ، فاشده أن يفعل ، فوضع له كرسي ، فجلس عليه فقال :

— أما بعد أيها الناس ، فإن الله هداكم بأولنا . وحقن دماءكم بآخرنا ، ألا إن أكيس الكيس التقى . وإن أعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر اختلفت أنا ومعاوية فيه ، إما أن يكون أحق به مني ، وإما أن يكون حقي تركته لله عز وجل لإصلاح أمة محمد ﷺ ، وحقن دمائكم .

ثم التفت إلى معاوية وقال :

— وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين .

فتغير وجه معاوية ، والتفت إلى عمرو وقال في غيظ :

— هذا من رأيك .

٣٦

أرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله ويقول :

— على طاعة من تقاتل وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك ؟!

فأبى قيس أن يلين له ، فبعث إليه معاوية سجلا قد ختم إليه في أسفله فقال :

— اكتب في هذا السجل ما شئت فهو لك .

فقال عمرو لمعاوية :

— لا تأته هذا فقاتله .

— على رسلك فإننا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعداءهم من أهل الشام ،

فما خير العيش بعد ذلك ، وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدءاً .

فلما وصل إلى سعد ذلك السجل ، اشترط ابن قيس فيه له ولشيعته على الأمان

على ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية في سجله ذلك مالا ،
وجيء بقيس ليبيع ، فقال قبل أن يدخل على معاوية :
— إني حلفت أن لا ألقاه إلا وبينى وبينه الرمح أو السيف .
فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبر يمينه ، ودخل قيس ليبيع فأقبل
على الحسن فقال :
— أفي حل من بيعتك ؟ .

— نعم .
فألقي له كرسي ، وجلس معاوية على سرير والحسن معه ، فقال له معاوية :
— أتبيع يا قيس ؟
— نعم .

ووضع يده على فخذه ولم يمدّها إلى معاوية ، فجاء معاوية من سريره وأكب على
قيس حتى مسح يده على يده ، وما رفع إليه قيس يده .
وبلغ الخوارج نزول معاوية بالنخيلة فقالوا :
— قد جاء الآن ما لا شك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه .
فأقبلوا حتى دخلوا الكوفة ، فأرسل إليهم معاوية خيلا من خيل أهل الشام ،
فكشفوا أهل الشام ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج
فقال الحسن :

— سبحان الله ، تركت قتالك وهو لي حلال لصلاح الأمة وألفتهم، أفراني
أقاتل معك ؟ وأرسل معاوية لأهل الكوفة :
— لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم .

فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم ، فقالت لهم الخوارج :
— ويلكم ، ما تبغون منا ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ، دعونا حتى نقاتله ،
وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا .
— لا والله حتى نقاتلكم .

— رحم الله إخواننا من أهل النهر ، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة .
وقاتل أهل الكوفة الخوارج حتى قتلوهم ، واطمأن معاوية ، فجمع الناس
فخطبهم :

— ما اختلف أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها .
ثم انتبه وندم فقال :

— إلا هذه الأمة ، يا أهل الكوفة ، أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج
وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون ، ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى
رقابكم ، وقد أتاني الله ذلك وأنتم كارهون . ألا إن كل مال أو دم أصيب في
هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين ، ولا يصلح الناس
إلا بثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقبال الجنود لوقتها ، وغزو العدو في
داره ، فإن لم تغزوهم غزوكم .

وذكر علياً فقال منه ، فقام الحسين ، وكان جالسا تحت المنبر ، ليرد عليه ،
فأخذه الحسن بيده فأجلسه ثم قام فقال :

— أيها الذاكر علياً ، أنا الحسن وأبي علي وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأمي
فاطمة وأملك هند ، وجدى رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة ، وجدتي خديجة
وجدتك قتيلة ، فلعن الله أئمتنا والأئمة حسبا وشرفا قد نمتا وحديثا ، وأقدمنا كفرا
ونفاقا .

فقالت طوائف من أهل المسجد :

— آمين .

ودخل معاوية الكوفة بين يديه خالد بن عرفطة ، ومعه حبيب بن حماد يحمل
رايته ، وجاء المسيب بن نجبة للحسن فقال له :

— ما ينقض عجبى منك ، بايعت معاوية ومعك أربعون ألفا ، ولم تأخذ
لنفسك وثيقة وعهدا ظاهرا ، أعطاك أمرا فيما بينك وبينه ثم قال ما قد سمعت ،
والله ما أراد بها غيرك .

— فما ترى ؟

— أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه ، فقد نقض ما كان بينه وبينك .
— يا مسيب ، إني لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ،
ولا أثبت عند الحرب مني ، ولكنني أردت صلاحكم وكف بعضكم عن بعض
فارضوا بقدر الله وقضائه .
ودخل الحسن الكوفة ، وجلس بفناء داره وعنده رهط ، فدخل عليه رجل
فقال :

— السلام عليك يا مذل المؤمنين .

— وعليك السلام .

ونزل الرجل فعقل راحته ، ثم أتاه فجلس إليه فقال له الحسن :
— كيف قلت : السلام عليك يا مذل المؤمنين ، لم جرى هذا منك إلينا ؟
— أنت والله بأبي وأمي أذلت رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيعة وسلمت
الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ، ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك فقد جمع
الله عليك كل الناس .

— كانت جماجم العرب ييدى ، يسالمون من سالت . ويحاربون من
حاربت ، فتركها ابتغاء وجه الله .

واستعمل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة ، فساء ذلك المغيرة
ابن شعبة ، فأتى معاوية وقال له :

— استعملت عبد الله بن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر ، فتكون أنت بين

لحيي الأسد ؟

وفكر معاوية فوجد ما قاله المغيرة صحيحاً ، فعزل عبد الله وولى المغيرة .
وبلغ عمراً ما قال المغيرة لمعاوية ، فدخل عمرو على معاوية فقال :
— استعملت المغيرة على الكوفة ؟

— نعم .

(أهل البيت)

— أ جعلته على الخراج ؟

— نعم .

— تستعمل المغيرة على الخراج فيقتال المال فيذهب فلا تستطيع أن تأخذ منه شيئاً ، استعمل على الخراج من يخافك ويهابك ويتقيك .
فعزل المغيرة عن الخراج ، واستعمله على الصلاة ، فلقى المغيرة عمراً فكلمه في ذلك فقال عمرو :

— أ لست المشير على أمير المؤمنين في عبد الله بن عمرو ؟

— بلى .

— فهذه بتلك .

وانصرف معاوية راجعاً إلى الشام ، وأتى سليمان بن صرد الحسن ، وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم ، فقال :
— السلام عليك يا مذل المؤمنين .
— وعليك السلام ، اجلس لله أبوك .

— إن تعجبنا لا ينقضى من بيعتك معاوية ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية في العهد ولا حظاً من القضية . فلو كنت كتبت عليك بذلك كتاباً وأشهدت عليك شهوداً من أهل المشرق والمغرب أن هذا الأمر لك بعده كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به ، من قوله ، ثم قال وزعم على رعيوس الناس ما قد سمعت ، إني كنت شرطت لقوم شروطاً ، ووعدتهم عدات ، ومنيتهم أماناً ، إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمي هاتين ، والله ما أعنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه ، فأعد للحرب خدعة ، وأذن لي أشخاص إلى الكوفة ، فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعه ، وانبذ إليه على سواء إن الله لا يهدي كيد الخائنين .

وسكت سليمان ، فتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته وكلهم يقول :
— ابعث سليمان بن صرد وابعثنا معه ثم الحقنا إذا علمت أن قد أشخصنا عامله
وأظهرنا خلعه .

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :
— أما بعد ، فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والصحبة
والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت للجزم في أمر الدنيا والدنيا
أعمل وأنصب ما كان معاوية بأبأس مني بأسأ وأشد شكيمة ، ولكان رأيي غير ما
رأيتم ، ولكني أشهد الله وإياكم أني لم أرد بما رأيتم إلا حقن دماءكم وإصلاح ذات
بينكم ، فاتقوا الله ، وارضوا بقضاء الله ، وسلموا الأمر لله ، والزموا بيوتكم
وكفوا أيديكم حتى يستريح بر ويستراح من فاجر .

وقام سليمان وخرج من عنده وهو يرجو أن يجد عند الحسين غير ما وجد عند
الحسن . فلما دخل عليه وعرض ما عرضه على الحسن قال :
— ليكن كل رجل منك حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً ، فإنها بيعة
كنت والله لها كارها ، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم .
وتجهز الحسن والحسين للشخص إلى المدينة ، فدخل عليهما المسيب بن نجيعة
الفزاري وظبيان بن عمارة التيمي ليودعاه ، فقال الحسن :
— الحمد لله الغالب على أمره ، لو أجمع الخلق جميعاً على أن يكون ما هو كائن ما
استطاعوا .

فقال الحسين :
— لقد كنت كارها لما كان ، طيب النفس على سبيل أبي حتى عزم على أخى
فأطعته ، وكأنا يجذ أنفى بالمواسى .
فقال له المسيب :
— إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن تضاموا وتتقصوا . أما نحن فإنهم
سيطلبون مودتنا بكل ما قدروا عليه .

— يا مسيب نحن نعلم أنك تحبنا .

فقال الحسن :

— سمعت أبا يقول : سمعت رسول الله ﷺ وآله يقول : « من أحب قوما كان معهم » .

وتجهز الحسن والحسين ، وخرج الناس لوداعهم ، وانطلق الراكب وقد جرت الدموع ، وطأطأ أبو بكر رأسه ، فعاد بفكره القهقري فتذكر يوم كان النبي يحدثهم والحسن بن عليّ في حجره ، فيقبل على أصحابه فيحدثهم ، ثم يقبل على الحسن فيقبله ثم يقول : « إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

٣٧

بعث معاوية زيادا على البصرة وكتب إليه : « أما بعد ، فانظر عبد الله بن هاشم ابن عتبة ، فشد يده إلى عنقه ثم ابعث به إلى » .
ونادى منادى زياد في البصرة :

— أمن الأسود والأحمر بأمان الله إلا عبد الله بن هاشم بن عتبة .
ففر عبد الله ، ومكث معاوية يطلبه أشد الطلب ، فقد كان يريد أن يضع يده عليه ، فما نسي تحريضه لأهل العراق في صفين بعد أن قتل أبوه ، وظل مدة لا يعرف له خبرا حتى قدم عليه رجل من أهل البصرة ، فقال له :

— أنا أدلك على عبد الله بن هاشم ، اكتب إلى زياد فإنه عند فلانة الخزومية .
فدعا كاتبه فكتب : « من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان : أما بعد ، فإذا أتاك كتابي هذا فاعمد إلى حي بني مخزوم ففتشه دارا دارا حتى تأتي إلى دار فلانة الخزومية فاستخرج عبد الله بن هاشم المرقال منها فاحلق رأسه وألبسه جبة شعر ، وقيدته وغل يده إلى عنقه ، واحمله على قتب بغير وطاء ولا

غطاء وأقدمه إلى » .

وقبض زياد على عبد الله فبعث به إلى معاوية مغلول اليدين ، فلاقى في سفره نصبا كثيرا ، ودخل دمشق في يوم الجمعة ، وهو اليوم الذى خصصه معاوية لأشراف قریش وأشراف الشام ووفود العراق ، فلم يشعر معاوية إلا وعبد الله بين يديه ، وقد ذبل وسهم وجهه ، فعرفه ولم يعرفه عمرو بن العاص ، فقال معاوية :
— يا أبا عبد الله ، أتعرف هذا الفتى ؟

— لا .

— هذا ابن الذى يقول فى صفين :

أعور ينفى أهله محلا قد عالج الحياة حتى ملا
لا بد أن يفلس أو يفلا

— وإنه هو . دونك الضب المضب فاشخب أوداجه ، ولا ترجعه إلى أهل العراق فإنهم أهل فتنة ونفاق ، وله مع ذلك هوى يرديه ، وبطانة تقويه ، والذى نفسى بيده لئن أفلت من حبالك ليجهزن إليك جيشا تكثر صواهمه .
فقال عبد الله وهو فى القيد :

— يا بن الأبر ، هلا كانت هذه الحماسة عندك يوم صفين ، ونحن ندعوك إلى البراز وتلوذ بشمائل الخيل ، كالأمة السوداء والنعجة القوداء ؛ أما إن قتلنى قتل رجلا كريم الخبرة ، حميد المقدرة .

فقال عمرو :

— أما والله لقد وقعت ، ولا أحسبك منفلتا من مخالب أمير المؤمنين .
— إن أقتل فرجلا أسلمه قومه ، وأدركه يومه ، أما والله يا بن العاص إنك لبطر فى الرخاء ، جبان عند اللقاء ، غشوم إذا وليت ، هباب إذا لقيت .
فقال معاوية :

— ألا تسكت لا أم لك ؟

— يا بن هند أتقول لى هذا ، والله لو شئت لأعرقن جبينك ولأقيمك وبين

عينيك وسم يلين له أخدعاك ، أبأكثر من الموت تخوفنى ؟!

فقال معاوية فى لين :

— أو تكف يابن أخى .

وأمر به إلى السجن ، وراح عمرو يزين له قتله . فقد كان أبوه يوم صفين جمره عليهم ، ولكن معاوية لم يسمع له ، فقد كان يعمل على تحبيب الناس فيه ، واستمالتهم إليه بالمال والعفو والصبر والأناة .

وأتى به من سجنه وقال له :

— أتراك فاعلا ما قال عمرو من الخروج علينا ؟

— لا تسئل عن عقيدات الضمائر لا سيما إذا أرادت جهادا فى طاعة الله .

— إذن يقتلك الله كما قتل أباك .

— ومن لى بالشهادة ؟

واستمر معاوية يلينه حتى أخذ عليه موثقا ألا يساكنه بالشام حتى لا يفسد عليه أهله ، ثم أحسن جائزته وأطلقه .

وجلس معاوية وعمرو وسعيد وعتبة والوليد يتذاكرون صفين ، فذكروا الزرقاء بنت عدى ، فقال معاوية :

— أيكم يحفظ كلامها ؟

— نحن نحفظه يا أمير المؤمنين .

— فأشيروا على فى أمرها .

— نشير عليك بقتلها .

— بئس رأى ما أشرت به على ، أيحسن بمثل أن يتحدث عنه أنه قتل امرأة بعدما

ظفر بها ؟

فكتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، وأن يمهدها وطاء لينا ، ويسترها بستر خفيف ، ويوسع لها فى النفقة .

فأرسل عامله إلى الزرقاء فأقرأها الكتاب ، فقالت :
— إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلى فياني لا آتية ، وإن كان حتم فالطاعة أولى .

فحملها وأحسن جهازها على ما أمر به ، فانطلقت إلى الشام مع عدة من
الفرسان ، فلما دخلت على معاوية قال :

— مرحبا وأهلا ، قدمت خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك ؟

— بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة .

— كيف كنت في مسيرك ؟

— ربيبة بيت طفلا أو ممهدا .

— بذلك أمرناهم ، أتدرين فيم بعثت إليك ؟

— أنى لى بعلم ما لم أعلم ؟

— أأنت الراكبة الجمل الأحمر ، والواقفة بين الصفين في يوم صفين تحضين

على القتال ، وتوقدين الحرب ، فما حملك على ذلك ؟

— يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبت الزنب ، ولم يعد ما ذهب ، والدهر ذو

غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

— صدقت .. أتخفظين كلامك يوم صفين ؟

— لا والله لا أحفظه ولقد أنسيته .

— ولكنى أحفظه ، لله أبوك حين تقولين : أيها الناس ، ارجعوا وارجعوا إنكم

قد أصبحتم في فتنة عشتكم جلايب الظلم، وحاتركم عن قصد المحجة ، فياها

فتنة عمياء ، صماء بكماء ، لا تسمع لنا عقها ، ولا تنساق لقائدها . إن المصباح

لا يضيء في الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا

الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه ، أيها الناس ! إن

الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على

الغصص ، فكأنه قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، ودفع

الحق باطله ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف العدل ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .
ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء . ولهذا اليوم ما بعده .
والصبر خير في الأمور عواقباً . إيهما في الحرب قدما غير ناكسين ولا متشاكسين .
ثم قال لها :

— والله يا زرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه .
— أحسن الله بشارتك ، وأدام سلامتك . فمثلك بشر بخير وسر جليسه ؟
— أويسرك ذلك ؟

— نعم والله . لقد سررت بالخبر فأنى لى بتصديق الفعل ؟
فضحك معاوية وقال :

— والله لو فاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته ، اذكرى
حاجتك !

— يا أمير المؤمنين ! آليت على نفسى أن لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً ، ومثلك
أعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلبه .
— صدقت .

وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكساء ، وتوافد أصحاب علي وأقاربه على
معاوية فكان يعطيهم مالا كثيراً وما أعطوه كلمة دليية .
وأتى عقيل بن أبى طالب معاوية فأعطاه مئة ألف ، ثم غدا عليه يوماً بعد ذلك
وجلساء معاوية حوله ، فقال معاوية :

— يا أبا يزيد أخبرنى عن عسكرى وعسكر أخيك فقد وردت عليهما .
— أخبرك ، مررت والله بعسكر أخى ، فإذا ليل كليل رسول الله ﷺ وآله ،
ونهار كنهار رسول الله ، إلا أن رسول الله ليس فى القوم ، ما رأيت إلا مصلياً ، ولا
سمعت إلا قارئاً ، ومررت بعسكرك فاستقبلنى قوم من المنافقين ممن نفر برسول الله
ليلة العقبة .

ثم قال :

- من هذا عن يمينك يا معاوية ؟
- هذا عمرو بن العاص .
- هذا الذى اختصم فيه ستة نفر فغلب عليه جزار قريش ، فمن الآخر ؟
- الضحاك بن قيس الفهرى .
- أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعصب التيوس ، فمن الآخر ؟
- أبو موسى الأشعرى .
- هذا ابن السراقة .
- ورأى معاوية أنه أغضب جلساءه ، وعلم أنه إن استخبره عن نفسه قال فيه سوءًا ، فعزم على أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من سوء فيذهب بذلك غضب جلسائه قال :
- يا أبا يزيد ما تقول فى ؟
- دعنى من هذا ؟
- لتقولن .
- أتعرف حمامة ؟
- ومن حمامة يا أبا يزيد ؟
- قد أخبرتك .
- ثم قام فمضى ، فأرسل معاوية إلى النسابة فدعاه ، فقال :
- من حمامة ؟
- فظهر الارتباك على وجه الرجل ، وصمت ، فقال له معاوية :
- من حمامة ؟ .
- ولى الأمان ؟
- نعم .
- حمامة جدتك أم أبى سفيان ، كانت بغيًا فى الجاهلية صاحبة راية .

فقال معاوية لجلسائه :

— قد ساويتكم وزدت عليكم فلا تغضبوا .

٣٨

سار الحسن والحسين إلى المدينة ، وكانا كلما نزلا بقبيلة ، قالوا للحسن :

— يا عار المؤمنين ؟

فكان يقول لهم في هدوء :

— العار خير من النار .

وما كان يغضب لتسفيه رأيه فيما أتاه من مهادنة معاوية ، فقد كان يعلم أن وجه الحكمة فيما أتاه ملتبس ، فالحضر عليه السلام لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي . ودخلا المدينة ، ودار بين الحسن والحسين كلام فتقاطعا ، وراح الحسن يخرج عن ماله ولا يرد سائلا ، فقليل له :

— لأى شئ نراك لا ترد سائلا وإن كنت على فاقة ؟

— إني لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحي أن أكون سائلا وأرد سائلا ، وإن الله تعالى عودنى عادة ؛ عودنى أن يفيض نعمه على ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس ، فأخشى إن قطعت العادة ، أن يمنعنى العادة .

وبسط للحسن على باب داره ، فخرج وجلس ، فانقطع الطريق ، فما يمر أحد من خلق الله إجلالا له ، ففطن إلى ذلك فقام .

وقيل للحسين :

— إن الفضل للمبتدئ به ، وأنا أكره أن يكون لى الفضل على أخى .

— لو أتيت أخاك فهو أكبر منك سنا ؟

فبلغ ذلك الحسن فأتاه وترضاه ، وخرجا فمسك ابن عباس للحسن ثم

للحسين بالركاب وسوى عليهما ثيابهما ، فالتفت رجل إلى ابن عباس وقال :
— أنت أسن منهما تمسك لهما الركاب ؟!

— يالكع ؟ أما تدري من هذان ؟ هذان ابنا رسول الله ، أوليس مما أنعم الله على
به أن أمسك لهما وأسوى عليهما ؟

ووافى أوان الحج ، فأقبل الحجيج ، ورأى رجل من أهل الشام رجلاً أبيض
اللون مشرباً بحمرة ، أدعج العينين ، سهل الخدين ، كث اللحية ، بعيداً ما بين
المنكبين ، ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، مليحاً ، لم ير أحسن وجهها ولا سمناً
ولا ثوباً ولا دابة منه ، فمال قلبه إليه ، فسأل :

— من هذا ؟

— هذا الحسن بن علي بن أبي طالب .

فامتلاً قلبه بغضا ، وأحس رغبة في أن يسبه ، فانطلق إليه فقال في جفوة :
— أأنت ابن أبي طالب ؟

فقال الحسن في هدوء :

— أنا ابن ابنه .

فراح الرجل يسبه ويسب أباه والحسن هادئ حتى إذا ما انتهى كلام الرجل قال
له الحسن :

— أحسبك غريباً ؟

— أجل .

— فمل بنا ، فإن احتجت إلى منزل أنزلناك أو إلى مال آسيناك ، أو إلى حاجة
عاوناك .

فتبخرت ثورة الرجل ، وانقشع حقه ، وانصرف وما على الأرض أحد أحب
إليه منه .

وخرج الحسن والحسين إلى الحج يمشيان ، وقال الحسن :

— إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته .

وانطلقا فلم يرا براكب إلا نزل يمشى ، ومرا على سعد بن أنى وقاص فنزل ،
وثقل ذلك على بعضهم ، فجاءوا سعدا فقالوا له :

— قد ثقل علينا المشى ، ولا نستحسن أن نركب وهذان السيدان يمشيان .
فقال سعد للحسن :

— يا أبا محمد ، إن المشى قد ثقل على جماعة ممن معك ، والناس إذا رأوا كما تمشيان
لم تطب أنفسهم أن يركبوا ، فلو ركبنا .

— لا نركب ، قد جعلنا على أنفسنا المشى إلى بيت الله الحرام على أقدامنا ،
ولكننا نتكب الطريق .

فأخذنا جانبًا من الناس ، وانطلقا .

وكان الحسن يطوف فلقبه عمرو بن العاص قتال له :

— يا حسن زعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك ، فقد رأيت الله أقامه
بمعاوية فجعله راسيا بعد ميله ، وبينًا بعد خفاقه ، أفرضى الله بقتل عثمان أو من الحق
أن تطوف بالبيت كما يدور الجمل بالطحن ، عليك ثياب كغرق البيض وأنت قاتل
عثمان ، والله إنه لألم للشعث وأسهل للوعث أن يبردك معاوية حياض أبيك .

— إن لأهل النار لعلامات يعرفون بها ، إلحادًا لأولياء الله ، وموالاة لأعداء
الله ، والله إنك لتعلم أن عليًا لم يرتب في الدين ، ولم ينسك في الله ساعة ولا طرفة عين
قط ، وأيم الله لتنتهين يا بن أم عمرو أو لأنفذن حضنك بنوافذ أشد من القصبعية ،
فإياك والتهجم على ، فإنى من قد عرفت ، لست ، بضعيف الغمزة ، ولا هش
المشاشة ، ولا مرىء المأكلة ، وإنى من قريش كواسطة القلادة يعرف حسبي ولا
أدعى لغير أبى ، وأنت من تعلم ويعلم الناس تحاكت فيك رجال قريش فغلب
عليك جزارها ألأمهم حسبا ، وأعظمهم لؤما ، وإليك عنى فإنك رجس ونحن
بيت الطهارة أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيرًا .

* * *

ورأى الحسن غلاما أسود يأكل من رغيف لقمة ، ويطعم كلبًا هناك لقمة فقال

له :

- ما حملك على هذا ؟
- إني أستحي منه أن آكل ولا أطعمه .
- لا تبرح مكانك حتى آتيك .
- فذهب إلى سيده فاشتراه واشترى الحائط الذي هو فيه ، وعاد إليه فأعتقه
- وملكه الحائط ، فقال الغلام :
- يا مولاي ، قد وهبت الحائط للذي وهبتني له .

٣٩

دخل عبيد الله بن عباس على معاوية ، فوجد عنده بسر بن أرطاة ، فتغير وقال :

- أنت أمرت اللعين السيئ القدم أن يقتل ابني ؟
- فقال معاوية في إنكار :
- ما أمرته بذلك ولوددت أنه لم يكن قتلها .
- فغضب بسر ، ونزع سيفه فألقاه ، وقال لمعاوية :
- اقبض سيفك عني ، قلدتنه وأمرتني أن أخبط به الناس ففعلت حتى إذا بلغت ما أردت قلت : لم أهو ولم آمر .
- فقال معاوية في حدة :
- خذ سيفك إليك ، فلعمري إنك ضعيف مائق حين تلقى السيف بين يدي رجل من بني عبد مناف قد قتلت أمس ابنيه .
- فقال له عبيد الله :

— أتحسبني يا معاوية قاتلا بسرا بأحد ابني ؟ هو أحقر وألأم من ذلك ، ولكن والله لا أرى لي مقنعا ولا أدرك ثارا إلا أن أصيب بهما يزيد وعبد الله .

فتبسم معاوية وقال في لين :

— وما ذنب معاوية وابني معاوية ؟ والله ما علمت ولا أمرت ولا رضيت ولا هويت .

وخرج عبد الله ، وأقبل أصحاب معاوية ، فراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، وبينما هم في حديثهم إذ قال الحاجب :

— الحسن بالباب .

فقال معاوية :

— إنه إن دخل علينا أفسد ما نحن فيه .

فقال له مروان :

— إيدن له ، فإني أسأله عما ليس عنده فيه جواب .

— لا تفعل ، فإنهم قوم ألهموا الكلام .

فأذن له ، فلما دخل جلس قال معاوية :

— والله لأحبونك بجائزة ما أجزت بها أحدا قبلك ، ولا أجز بها أحدا بعدك .

فأمر له بمائة ألف ، ولم يطق مروان أن يسكت دون أن يغمز الحسن فقال :

— أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ، ويُقال إن ذلك من الخرق .

— ليس كما بلغك ، ولكننا معشر بنى هاشم طيبة أفواهنا ففساؤنا يقبلن علينا

بأنفاسهن وقبلهن ، وأنتم معشر بنى أمية فيكم بحر شديد ، ففساؤكم يصرفن

أفواههن عنكم إلى أصداعكم ، فإنما يشيب موضع العذار من أجل ذلك .

فقال مروان :

— أما إن فيكم يا بنى هاشم عضلة سوء .

— ما هي ؟

— الغلظة .

— أجل نزع الغلظة من نسائنا ووضعت في رجالنا ، ونزعت الغلظة من

رجالكم ووضعت في نسائكم ، فما قام لأمية إلا هاشمي .

فغضب معاوية وقال :

— قد كنت أخبرتكم فأيتكم ، حتى سمعت ما أظلم عليكم بيترككم ، وأفسد مجلسكم .

* * *

واجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة فقالوا :

— يا أمير المؤمنين ، إن الحسن قد أحيا أباه وذكره ، وقال فصدق ، وأمر فأطيع وخفقت له النعال ، وإن ذلك لدافعه إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا .

— فما تريدون ؟

— ابعث إليه فليحضر لنسبه ونسب أباه ونعيه ونوبخه ونخبره أن أباه قتل عثمان ، ونقرره بذلك ولا يستطيع أن يغير علينا شيئاً من ذلك .

— إني لا أرى ذلك ولا أفعله .

— عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن .

— ويحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالساً عندي إلا خفت مقامه وعييه لي .

— ابعث إليه على كل حال .

— إن بعثت إليه لأنصفه منكم .

فقال عمرو بن العاص :

— أتخشى أن يأتي باطله على حقنا ، أو يرى قوله على قولنا ؟!

— أما إني إن بعثت إليه لآمره أن يتكلم بلسانه كله .

— مره بذلك .

— أما إذا عصيتموني وبعثتم إليه وأيتكم إلا ذلك ، فلا تترضوا له في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ، ولكن اقدفوه

بحجره ، تقولون له إن أباك قتل عثمان وكره خلافة الخلفاء من قبله .

فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله فقال :

— إن أمير المؤمنين يدعوك .

— مَنْ عنده ؟

فسماهم له ، فقال الحسن :

— ما لهم خر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم المذاب من حيث لا يشعرون .

ثم قال :

— يا جارية ، أبغيني ثيابي . اللهم إني أعوذ بك من شرورهم ، وأدراك في

نحورهم ، وأستعين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت وأني شئت بحول منك وقوة يا أرحم الراحمين .

ثم قام فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه وجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد القوم ، وخطروا خطران الفحول بغيا في أنفسهم وعلوا ، ثم قال :

— يا أبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني .

— سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ، والله إن كنت أجبتهم إلى ما

أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحي لك من الفحش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحي لك من الضعف ، فأيهما تقر وأيهما تنكر ؟ أما إني لو علمت مكانهم جئت معي بمثلهم من بنى عبد المطلب ، وما لي أن أكون مستوحشا منك ولا منهم ، إن وليي الله وهو يتولى الصالحين .

— يا هذا ، إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراحتي

له ، وإن لك منهم النصف ومني ، وإنما دعوناك لنتررك أن عثمان قُتل مظلوماً ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك .

فتكلم عمرو بن العاص :

— إنكم يا بنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء ،

واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ، ثم إنك يا حسن تحدثك نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا به . كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك وتركك أحق قریش ، يسخر منك ويهزأ بك وذلك لسوء عمل أهلك ، وإنما دعوناك لنسبك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا ؟ فإن كنت ترى أنا كذبنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

ثم تكلم الوليد بن عقبة فقال :

— إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولد كان لكم فعرف حقكم ، وكنتم أصهاره فنعم الصهر كان لكم يكرمكم فكنتم أول من حسده فقتله أبوك ظلماً لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه وأنزلكم منزلتكم . والله إن بنى أمية خير لبنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك . ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان فقال :

— يا حسن ، كان أبوك شر قریش لسفكه لدمائها ، وقطعه لأرحامها ، طویل السيف واللسان ، يقتل الحى ويعيب الميت ، وإنك ممن قتل عثمان ونحن قاتلوك به . وأما رجاؤك الخلافة فلست في زندها قادحاً ، ولا في ميراثها راجحاً ، وإنكم يا بنى هاشم قتلتم عثمان ، وإن في الحق أن نقتلك وأخاك به ، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد منه ، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان . ثم تكلم المغيرة فشتهم علياً وقال :

— والله ما أعيبه في قضية يخون ، ولا في حكم يميل ، ولكنه قتل عثمان .

ثم سكتوا ، فتكلم الحسن بن علي :

— يا معاوية فما هؤلاء شتموني ولكنك شتمتني فحشاً ألفتة ، وسوء رأى عرفت به ، وخلقاً سيئاً ثبت عليه ، وبغياً علينا عداوة منك لمحمد وأهله ، ولكن (أهل البيت)

اسمع يا معاوية واسمعوا ، فلاقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم ، أنشدكم الله أيها
الرهط أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما وأنت يا معاوية
بهما كافر تراها ضلالة ، وتعبد اللات والعزى غواية. ؟! ، وأنشدكم الله هل تعلمون
أنه بايع البيعتين كليهما بيعة الفتح وبيعة الرضوان ، وأنت يا معاوية بإحداهما
كافر ، وبالأخرى ناكث ؟ وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً ، وإنك
يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم تسرون الكفر وتظهرون الإسلام، وتستمالون
بالأموال ؟ وأنشدكم الله ألسن تعلمون أنه صاحب راية رسول الله ﷺ وآله يوم
بدر ، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ، ثم لقيكم يوم أحد ويوم
الأحزاب ، ومعه راية رسول الله ﷺ وآله ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفي
كل ذلك يفتح الله له ويفلح حجته وينصر دعوته ويصدق حديثه ، ورسول الله
ﷺ وآله في تلك المواطن كلها عنه راض وعليك وعلى أبيك ساخط . وأنشدك
الله يا معاوية أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر وأنت تسوقه وأخوك عتبة هذا
يقوده فراكم رسول الله ﷺ وآله فقال : اللهم العن الراكب والقائد والسائق ؟
والله لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت . وأنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن علياً
حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله ﷺ وآله فأنزل فيه : ﴿ يا أيها
الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ وأن رسول الله ﷺ وآله بعث
أكابر أصحابه إلى بنى قريظة فنزلوا من حصنهم انهزموا ، فبعث علياً بالراية
فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خير مثلها ؟ وأنتم أيها الرهط
نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا يستطيعون
ردها ، أولها يوم لقي رسول الله ﷺ وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو ثقيفاً
إلى الدين فوق به وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده وهم أن يبطش به فلعنه الله
ورسوله وصرف عنه ، والثانية يوم العير إذ عرض لما رسول الله ﷺ وآله وهي
جائئة من الشام فطردها أبو سفيان وساحل بها ولم يظفر المسلمون بها ، ولعنه
رسول الله ﷺ وآله ودعا عليه فكانت وقعة بدر لأجلها ، والثالثة يوم أحد حيث

وقف تحت الجبل ورسول الله ﷺ وآله في أعلاه وهو ينادى اعل هبل مراراً فلعنه رسول الله ﷺ وآله عشر مرات ولعنه المسلمون ، والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود فلعنه رسول الله ﷺ وابتهل ، والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش فصدوا رسول الله ﷺ وآله عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ذلك يوم الحديبية فلعن رسول الله ﷺ وآله أبا سفيان ، والسادسة يوم الجمل الأحمر ، والسابعة يوم وقفوا لرسول الله ﷺ وآله في العقبة ليستنفروا ناقته ، وكانوا اثني عشر رجلاً منهم أبو سفيان . فهذا لك يا معاوية .

وأما أنت يا بن العاص فإن أمرك مشترك ، وضعتك أملك مجهولاً من عهر وسفاح ، فتحاكم فيك أربعة من قريش فغلب عليك جزارها ، الأهمهم حسباً ، وأخبثهم منصبا ، ثم قام أبوك فقال : أنا شافى محمداً الأتر ، فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت رسول الله ﷺ وآله في جميع المشاهد ، وهجوته وأذيته بمكة وكدته كيدك كله ، وكنت من أشد الناس له تكديماً وعداوة ، ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة لتأتى بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة ، فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائباً ، وأكذبك وأشيأ ، جعلت خذك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشي حسداً لما ارتكب من حليته ففضحك الله وفضح صاحبك ، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام ، ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله ﷺ وآله بسبعين بيتاً من الشعر ، فقال رسول الله ﷺ وآله : « اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي ، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة » ، فعليك إذاً من الله ما لا يحصى من اللعن . وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سمرت عليه الدنيا ناراً ثم لحقت بفلسطين ، فلما أتاك قتله قلت : أنا أبو عبد الله إذانكأت قرحة أدميتها ، ثم حبست نفسك إلى معاوية وبعث دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حياً ، ولا غضبت له مقتولا .

وأما أنت يا وليد فوالله ما ألومك على بغض عليّ وقد جلدك ثمانين في الخمر

وقتل أباك بين يدي رسول الله صبراً ، وأنت الذي سماه الله الفاسق وسمى علياً المؤمن حيث تفاخرتما فقلت له : اسكت يا علي فأنا أشجع منك جنائاً وأطول منك لساناً ، فقال لك علي : اسكت يا وليد فأنا مؤمن وأنت فاسق ، فأنزل الله تعالى في موافقته قوله : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ ثم أنزل فيك على موافقته قوله أيضاً : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ... ﴾ وما أنت وقريش ؟ إنما أنت عالج من صفورية ، وأقسم بالله لآنت أكبر في الميلاد وأسن مما تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خير يُرجى ولا شر يُتقى ، وما عقلك وعقل أمتك إلا سواء ، وما يضر علياً لو سببته على رءوس الأشهاد ، وأما وعيدك إياي بقتلي فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك ، أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك :

يا للرجال وحادث الأزمان ولسبة تخزي أبا سفيان

نبئت عتبة خانة في عرسه جنس ائيم الأصل من لحيان

وبعد هذا ما أربأ بنفسى عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحد سيفك ولم تقتل فاضحك ! وكيف ألومك على بغض عليّ وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر وشرك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد . وأما أنت يا مغيرة فلم تكن بخلق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة : استمسكى فإني طائرة عنك ، فقالت النخلة : وهل علمت بك واقعة عليّ فأعلم بك طائرة عنى ! ، والله ما نشعر بعداوتك إيانا ولا اغتممنا إذ علمنا بها ، ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقاً الله سائله عنه ، ولقد سألت رسول الله ﷺ وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زان ، وأما فخركم علينا بالإمارة فإن الله تعالى يقول : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ .

ثم قام الحسن فنفض ثوبه فانصرف ، فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال :
— يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله في قذف أمي بالزنا وأنا مطالب له بحد
القذف .

فقال معاوية في غيظ :
— خل عنه ، لا جزاك الله خيراً .
فتركه ، وانصرف الحسن وتركهم يحسون كمدًا ، فقال معاوية :
— قد نبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته ، ونهيتكم أن تسبوه فعصيتموني ، والله
ما قام حتى أظلم على البيت ، قوموا عني ، فلقد فضحككم الله وأخزاكم بترككم
الحزم وعدولكم عن رأى الناصح المشفق والله المستعان .

٤٠

ودخل الحسن على معاوية وقد عزم على أن يعود إلى المدينة فألقى معاوية جالسًا
في مجلس ضيق فجلس عند رجله ، فتحدث معاوية بما شاء أن يتحدث ثم قال :
— عجبًا لعائشة تزعم أني في غير ما أنا أهله ، وأن الذي أصبحت ليس لي بحق ،
ما لها ولهذا يغفر الله لها ، إنما كان ينازعني في هذا الأمر أبو هذا الجالس ، واستأثر الله
به .

فقال له الحسن :
— أوعجب هذا يا معاوية ؟
— إى والله .
— أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا ؟
— ما هو ؟
— جلوسك في صدر المجلس وأنا عند رجلك .
فضحك معاوية وراوغ على عادته فقال :

— يا ابن أخى بلغنى أن عليك دينًا .

— إن لعلى دينًا .

— كم هو ؟

— مائة ألف .

— أمرنا لك بثلاثمائة ألف ، مائة منها لديك ، ومائة تقسمها فى أهل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ، فقم مكرماً فاقبض صلتك .

وخرج الحسن ، ويزيد بن معاوية يحس ضيقاً حتى إذا ما خلا المجلس من الناس قال لأبيه :

— تالله ما رأيت رجلاً مثلك ، استقبلك بما استقبلك به ثم أمرت له بثلاثمائة ألف .

— يا بنى إن الحق حقهم فمن أتاك منهم فاحث له .

وخرج الحسن إلى المدينة ، فمر بصبيان يأكلون كسراً من الخبز ، فاستضافوه فنزل وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله وأطعمهم أنراً وكساهم وقال :

— اليد لهم إنهم لم يجدوا ما أطعموني ، ونحن نجد كثيراً مما أعطيناهم .

وكان قد اشترى حائطاً من قوم من الأنصار بأربعمائة ألف فبلغه أنهم احتاجوا ما فى أيدي الناس ، فردده إليهم .

وسمع رجلاً يسأل ربه عشرة آلاف درهم فبعث بها إليه ، فقد كان سخياً جواداً حتى إنه خرج عن ماله لله تعالى مرتين ، وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات ، حتى إن كاد ليعطى نعلاً ويمسك نعلاً .

كان عطاؤه فى كل سنة مائة ألف ، كان يوزعها على الفقراء والمساكين وما كان يدعو إلى طعامه أحداً فقد كان يقول إن طعامه أهون من أن يدعى إليه أحد ، وحبس عنه معاوية عطاءه فى بعض السنين ، فأحس ضيقاً شديداً ، فدعا بدواة ليكتب إلى معاوية ليذكره نفسه ، ولكنه أمسك ونام تلك الليلة فرأى رسول الله ﷺ وآله فقال :

— كيف أنت يا حسن ؟

— بخير يا أبت .

وشكا إليه تأخر المال عنه ، فقال :

— أدعوت بدواة لتكتب لمخلوق مثلك تذكره ذلك ؟

— نعم يا رسول الله فكيف أصنع ؟

— قل : اللهم اقذف في قلبي رجاءك ، واقطع رجائي عمن سواك حتى لا أرجو أحدا غيرك .

وما انقضى أسبوع حتى بعث إليه معاوية بعطائه ، فقال الحسن :

— الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، ولا يخيب من دعاه .

وخرج معاوية للحج فمر على المدينة ، ودخل بيت سعد بن أبي وقاص ودعاه للحج معه ، وكان سعد آخر من بقى من رهط الشورى ، فخرج مع معاوية معززا مكرما ، ولما بلغا مكة طافا سويا ، وانتهت مراسم الحج ، فانصرف معاوية إلى دار الندوة وسعد برفقته ، وجلس على سريريه وأجلس سعدا معه عليه ، وأخذا بأطراف الحديث ، فراحا يتذاكران ويذكران ما مضى من أحداث ، وغر معاوية إقبال سعد عليه فوق في عليّ وشرع في سبه ، ثم قال :

— ما يمنعك أن تسب أبا تراب ؟

فبان الغضب في وجه سعد وقام وقال في حدة :

— أجلستنى معك على سريرك ثم شرعت في سب عليّ ، والله لأن يكون فيّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلّي أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس . والله لأن أكون صهرا لرسول الله ﷺ ، لي من الولد ما لعلّي ، أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال ما قاله يوم خيبر : « لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، ليس بفرار ، يفتح الله على يديه » أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي ما قال له في غزوة تبوك :

« ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي من بعدى » أحب
إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، لا أدخل عليك داراً بعد هذا اليوم .
ثم نفى سعد رداءه ثم خرج .

* * *

ولقى الحسن حبيب بن مسلمة ، فقال له :
— يا حبيب ، رب مسير لك فى غير طاعة الله .
فقال حبيب فى سخرية :

— أما مسيرى من أهلك فليس من ذلك .

— بلى والله ، ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة ، فلتن قام بك فى دنياك
لقد قعد بك فى آخرتك ، ولو كنت إذ فعلت قلت : خيراً كان ذلك كما قال عز
وجل : ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ ولكنك كما قال سبحانه : ﴿ كلا
بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

ومرت سنون فنى معاوية أو تناسى فضل الحسن عليه فبعث إليه بكتاب
يتوعده فيه لأمر من الأمور ، ودخل رجل على الحسن وفى يده الصحيفة ، فقال له
الرجل :

— ما هذه ؟

— كتاب معاوية يتوعد فيه .

فقال الرجل معاتبا :

— لقد كنت على النصف فما فعلت !

— أجل ، ولكنى خشيت أن يأتى يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً تشخب
أوداجهم دماً كلهم يستعدى الله فىم هريق دمه .

كانت فكرة استخلاف معاوية ليزيد تراوده ، فهو أحب الناس إليه ، وإنه ليرتضى أن يخلفه ، ولكنه لا يستطيع أن يعلن رغبته ، وأن يكشف أمنيته ، فهناك من يشرّبون للخلافة ، وهناك الحسن بن عليّ الذي صالحه على أن يكون الأمر له من بعده ، وكنم معاوية أمنيته فقد كان يخشى أن يجهر بما يحب حتى لا يؤلب القوم عليه ، فكان يذكر يزيد بالخير كلما واثته فرصة ليحببه إلى الناس ، وليهيئه لقبوله خليفة عليهم .

وقدم المغيرة بن شعبة على معاوية ، وكان يعلم هواه فقال له :
— يا أمير المؤمنين قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف ، وفي عنقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان ، فاجعل للناس بعدك علماً يفرعون إليه ، واجعل ذلك يزيد ابنك .
وكأنما المغيرة لا يجيد غير هذا ، فقد أشار على عمر أن يستخلف عبد الله ابنه ، ولكن عمر العظيم غضب وقال له : قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، أما معاوية فقد وافق هذا القول هوى في نفسه ، فوطن العزم على أن يدعو إلى تولية ابنه من بعده . كان يعلم أن الطريق شائكة ، والصعاب كثيرة ، ولكن المتاعب تهون في سبيل الابن الحبيب .

وفكر معاوية فأمعن التفكير ، فهناك في الحجاز من يفضلون يزيد ، ومن يطمعون في الخلافة ، فكيف بهم إذا رفضوا البيعة وشقوا عصا الطاعة ، ورأى معاوية أن يبدأ محاولته في الشام ، حيث العزة والأهل ، فإذا أخذ البيعة لابنه تفرغ للحجاز وأهله ولن تعيه الحيل ، ولن يقصر دهاؤه عن أن يتفتق عما ينيله رغبته ، ويحقق منيته .

واجتمع عند معاوية وفود الأمصار بدمشق ، نشاء أن يهتبل الفرصة المواتية فدعا أحد أنصاره وقال له :

— إذا جلست على المنبر وفرغت من بعض موعظتي وكلامي ، فاستأذن في القيام ، فإذا أذنت لك ، فاحمد الله تعالى واذكر يزيد ، وقل فيه الذى يحق له عليك من حسن الثناء عليه ، ثم ادعنى إلى توليته من بعدى ، فإنى قد رأيت وأجمعت على توليته ، فاسأل الله فى ذلك وفى غيره الخيره وحسن القضاء .

ودعا معاوية آخرين فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ صاحبه وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد . واعتلى معاوية المنبر ، وفرغ من بعض موعظته ، فقام الرجل فاستأذن فى الكلام ، فأذن له ، فجعل يعدد فضائل يزيد ثم التمس من أمير المؤمنين أن يعزم على مبايعته ، ولا يضيق به ذرعًا ، فالتف بجمع به الشمل ، ويعظم به الأجر ، ويحسن به الذخر ، ثم جلس . فقام آخر ثم آخر ، فلما انتهى أعوان معاوية انشرح صدره ، فقد قالوا وأحسنوا . فقال معاوية :

— أو كلكم قد أجمع على هذا رأيه ؟

— كلنا قد أجمع رأيه على ما ذكرنا .

— فأين الأحنف ؟

كأنما شاء أن يسمع رأى أهل العراق ، فأجابه الأحنف فقال معاوية :

— ألا تتكلم ؟

فقام الأحنف فحمد الله فأثنى عليه ثم قال :

— أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا فى منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتلف ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نعم الخلف . وقد حلت الدهر أشطره ، يا أمير المؤمنين فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك ، ثم اعص أمر من يأمرك ، لا يغرك من يشير عليك ولا ينظر لك . وأنت أنظر للجماعة وأعلم باستقامة الطاعة مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ولا يبايعون ما كان الحسن حيًا .

فغضب الضحاك بن قيس ، فقد كان أول من دسه معاوية ليدعوه لتولية يزيد ،
فقام الثانية ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النفاق من أهل العراق مروءتهم في أنفسهم
الشقاق ، وألفتهم في دينهم الفراق ، يرون الحق على أهوائهم كأنما ينظرون
بأقفائهم ، اختالوا جهلا وبطرا لا يرقبون من الله راقبة ، ولا يخافون وبال عاقبة ،
اتخذوا إبليس لهم ربا ، واتخذهم إبليس حزبا ، فمن يقاربوه لا يسروه ، ومن
يفارقوه لا يضروه ، فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نخورهم ، وكلامهم في
صدورهم ، ما للحسن وذوى الحسن في سلطان الله الذى استخلف به معاوية في
أرضه ، هيهات لا تورث الخلافة عن كلاله ، ولا يحجب غير الذكر العصبية ،
فوطنوا أنفسكم يا أهل العراق على المناصحة لإمامكم ، وكاتب نبيكم وصهره
يسلم لكم العاجل وترجموا من الآجل .

ثم قام الأحنف فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إنا قد فررنا عنك قريش فوجدناك أكرمها زندا ، وأشدّها
عقدا ، وأوفاهها عهدا . وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة ، ولم تظهر عليها
قعصا ، ولكنك أعطيت الحسن بن عليّ من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر
من بعدك ، فإن تف فأنت أهل الوفاء ، وإن تغدر تعلم والله أن وراء الحسن خيولا
جياذا وأذرعاً شدادا وسيوفا حدادا . إن تدن له شبرا من غدر تجد وراءه باعا من
نصر . وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ، ولا أبغضوا عليّا
وحسنا منذ أحبوهما ، وما نزل عليهم في ذلك غير من السماء ، وأن السيوف التى
شهروها عليك مع عليّ يوم صفين لعلّ عواتقهم ، والقلوب التى أبغضوك بها لبين
جوانحهم ، وأيم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من عليّ .

ثم قام عبد الله بن عثمان الثقفى فقال :

— أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلف ، وكثير منهم منحرف لا
يدعون أحدا إلى رشادة ، ولا ينجييون داعيا إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ،

مخالفون لهم السنة والقضاء ، وقفت ليزيد فى أحسن القضية ، وأرضاهما لجمال
الرعية ، فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حلما
وعلما ، وأوسعنا كنفا ، وخيرنا سلفا ، قد أحكمت التجارب ، وقصدت سبل
المذاهب ، فلا يصرفنك عن بيعته صارف ، ولا يقفن بك دونها واقف ، ممن هو
شاسع عاص ، ينوص للفتنة كل مناص ، لسانه ملتبس ، وفى صدره داء دوى ، إن
قال فشر قائل ، وإن سكت فداء غائل ، قد عرفت من هم أولئك ، وما هم عليه
لك من المجانبة للتوفيق ، والكلف للتفريق ، فاجل ببيته عنا الغمة ، واجمع به شمل
الامة ، فلا تخدعه إذا هديت له ، ولا تنبش عنه إذا وقعت له ، فإن ذلك الرأى لنا
ولك ، والحق علينا وعليك ، أسأل الله العون وحسن العافية لنا ولك بمنه .

فقام معاوية فقال :

— أيها الناس ، إن إبليس من الناس إخوانا وخلانا ، بهم يستعد وإياهم
يستعين ، وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعا أو جفوا ، وإن استغنى عنهم
أرجفوا ، ثم يلحقون الفتن بالفجور ، ويشققون لما حطب النفاق ، عيابون
مرتابون ، إن لووا عروة أمر حنقوا ، وإن دعوا إلى غنى أسرفوا ، وليسوا أولئك
بمنتهين ، ولا بمقلعين ولا متعظين ، حتى تصيبهم صواعق خزي وبيل ، وتحل بهم
قوارع أمر جليل ، تجتث أصولهم كاجتثاث أصول الفزع ، فأولى لأولئك ثم أولى ،
فإنا قد قدمنا وأنذرنا إن أغنى التقدم شيئا أو نفع الذنر .

ثم قام أبو حنيفة فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إنا لا نطيق ألسنة مضر وخطبها ، أنت أمير المؤمنين فإن
هلكت فيزيد بعدك ، فمن أبى فهذا .

وسل سيفه ، فقال معاوية :

— أنت أخطب القوم وأكرمهم .

وقام الأحنف بن قيس فقال :

— يا أمير المؤمنين أنت أعلمنا بليله ونهاره ، وبسر وعلاتيته ، فإن كنت تعلم

أنه خير لك قَوْلُه واستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شر لك ، فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب . واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

وكتب معاوية إلى زياد يستشيريه ، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب ، فقال له : — إن لكل مستشير ثقة ، ولكل سر مستودع ، وإن الناس قد أبدعت بهم خصلتان : إذاعة السر ، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها ، وليس موضع السر إلا أحد رجلين ، رجل آخرة يرجو ثوابا ، ورجل دنيا له شرف في نفسه ، وعقل يصون حسبه . وقد عجمتهما منك فأحمدت الذي قبلك ، وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف : إن أمير المؤمنين كتب إليّ يزعم أنه قد عزم على بيعه يزيد ، وهو يتخوف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم ويستشيرني ، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم ، ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد ، فالتق أمير المؤمنين مؤديا عنى فأخبره عن فعلات يزيد . — رويدك بالأمر فأقمن أن يتم لك ما تريد ، ولا تعجل فإن دركا في تأخير ، خير من تعجيل عاقبته الفوت . أفلا غير هذا ؟

— ما هو ؟

— لا تفسد على معاوية رأيه ، ولا تمقت إليه ابنه ، وألقى أنا يزيد سرا من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته ، وأنتك تخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وإنك ترى له ترك ما ينقم عليه فيستحكم لأمر المؤمنين الحجة على الناس ، ويسهل لك ما تريد ، فتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين ، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة .

— قد رميت الأمر بحجره ، اشخص على بركة الله ، فإن أصبت فما لا ينكر ، وإن يكن خطأ فغير مستغش ، وأبعد بك إن شاء الله من الخطأ .

وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة وألا يعجل ، فقبل ذلك منه ، وترث

مدة ، ولكن الفكرة كانت تلح عليه ، فرأى أن ينطلق إلى المدينة ليفاوض هؤلاء
النفر الذين يأبون المبايعة ليزيد ، ليتوعدهم مرة ، وبنيهم مرارا ، لعله يستطيع أن
يطويهم بدهائه أو يشتريهم بماله ، وقدم المدينة فخرج الناس لاستقبال أمير
المؤمنين ، فبش لهم وهش ، وجعل يتملقهم لعله يكسبهم إلى جانبه في معركة
الخلافة القادمة .

ودخل منزله ، ولم يضيع كثير وقت ، فقد كانت رغبة استطلاع رأى هؤلاء
النفر تقلقه ، فبعث إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن
عمر ، وعبد الله بن الزبير ، فلما اكتمل عقدهم أمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من
الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، والتفت إليهم وقال :

— الحمد لله الذي أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيرا كما أنعم علينا
كثيرا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ،
أما بعد : فإنني قد كبرت سني ، ووهن عظمي ، وأقرب أجلي ، وأوشكت أن
أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أخلف عليهم بعدى يزيد ، ورأيت لكم رضا ، وأنتم
عبادة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعني أن أحضر حسنا وحسينا إلا أنهما
أولاد أبيهما ، علي حسن وأبي فيهما ، وشديد محبتي لهما ، فردوا على أمير المؤمنين
خيرًا يرحمكم الله .

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

— الحمد لله الذي ألهنا أن نحمده ، وأوجب علينا الشكر على آلائه وحسن
بلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله
وصلى الله على محمد وآل محمد ، أما بعد فإنك قد تكلمت فأنصتنا وقلت فسمعنا ،
وإن الله جل ثناؤه ، وتقديست أسماؤه ، اختار محمدا ﷺ لرسالته ، واختاره
لوحيه وشرفه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أحقهم
به ، وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذ اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمدا بعلمه وهو
العليم الخبير ، أستغفر الله لي ولكم .

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

— الحمد لله أهل الحمد ومنتهاه ، نحمده على إلهامنا حمده ، ونرغب إليه في تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ﷺ . أما بعد ، فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟ وأيم الله لو ولوه بعد نبهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه وصدقه ولأطيع الله وعصى الشيطان وما اختلف في الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية ، فانظر لرعيته إنك مسئول عنها غداً . وأما ما ذكرت من ابني عمي وتركك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم ، فقل أو دع ، وأستغفر الله لي ولكم .

فقام ابن الزبير فقال :

— الحمد لله الذي عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمدته على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد ، فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بآثارها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمه رسول الله ﷺ ، وعلى خلف حسنا وحسينا وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك .

وقام عبد الله بن عمر فقال :

— أما بعد ، فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطا مشروطا ، وإنما هي في قريش خاصة لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم من كان أتقى وأرضى ، فإن

كنت تريد الفتيان من قريش ، فلعمري إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يغنى عنك من الله شيئاً .

فنظر معاوية إليهم وقال :

— قد قلت وقلتم ، وإنه ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابنى أحب إليّ من أبنائهم ، وإنما كان هذا الأمر لبنى عبد مناف لأنهم أهل رسول الله ، فلما مضى رسول الله ﷺ ، ولى الناس أبا بكر وعمر من خير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بنى عبد مناف فلا يزيل فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يابن الزبير ، وأنت يابن عمر منها ، فأما ابنا عمّي هذان فليسا بخارجين من الرأى إن شاء الله .

وخرج معاوية إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، ولم يكن سكوته اقتناعه بأن هناك من هو أحق بها من يزيد ، بل كان يفكر ويدبر ، إن الحسن بن علي حجر عثرة في سبيل تولية يزيد ، وإن يزيد أحب إليه من العالمين ، فلو أن الحسن قضى لأصبح الأمر هينا ، فراح يفكر في وسيلة يتخلص بها من الحسن .

٤٢

عشر سنوات تقضت بعد استتباب الأمر لمعاوية ، فنال ما يشتهى ولم يبق له إلا أمنية واحدة ، كان يرجو أن يبائع الناس ليزيد فينفر بذلك عينا ، ولكن بقاء الحسن حياً يجعل تحقيق هذه الأمنية عسيراً ، وأخذ يقدح زناد فكره فسقط على فكرة وضيعة ، فلم تشنه وضاعتها عن تنفيذها ، فما كان ممن يحفلون كثيراً بالوسائل ، إنه يغنى غاية وينطلق إلى هدف ، فكان كل همه أن يحقق الغاية وأن يبلغ الهدف سواء سار على الصراط أو تنكب الطريق .

وجعل يستعرض زواج الحسن فوجد في جمعدة بنت الأشعث طلبته ، فأبوها الأشعث بن قيس كان ممن أرغم الإمام على قبول التحكيم ، وإنه ليطمع في أن يجد في

الابنة عوننا كما وجد في الأب عوننا .

ودس إليها معاوية : إنك إن احتلت في قتل الحسن وجهت إليك بمائة ألف درهم ، وزوجتك يزيد . وراحت جعدة توازن بين ما يعرضه عليها معاوية وبين بقائها في كنف الحسن ، فرأت أن الحسن كثير الزوج ، وأنه مطلق مصداق ، فمن يدري فقد يطلقها غداً ويبيعث إليها بعشرة آلاف وبزقاق من عسل كما فعل مع من طلق .

وظفق عرض معاوية يتخايل لها ، وجعل شيطانها يوسوس لها ، فدست السم لزوجها الآمن ، وراحت تجرعه السم كل يوم ، فمرض ، فكتب عامل المدينة إلى معاوية يخبره بشكاية الحسن ، فكتب إليه معاوية : إن استطعت أن لا يمضي يوم بي يمر إلا يأتيني فيه خبره فافعل .

واشتد مرض الحسن ، فدخل رجل عليه يعوده ، فالتفت إليه الحسن فقال : — سلني .

— والله لا أسألك حتى يعافيك الله وأسألك .

— لقد ألقيت طائفة من كبدي ، وإني سقيت السم مراراً فلم أسقه مثل هذه المرة .

وجعل الحسن يذبل ، ودخل الحسين وجلس عند رأسه وقال :

— من تبهم يا أخي ؟

— لم ؟ لأن تقتله ؟

— نعم .

— إن يكن الذي أظنه فالله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ، وإن لم يكن هو فما أحب

أن يُقتل بي بريء .

واشتد بالحسن الوجع فجزع فقال له الحسين :

— يا أبا محمد ، ما هذا الجزع ؟ ما هو إلا أن تفارق روحك جسدي فتقدم على

أبويك علي وفاطمة ، وعلى جدك النبي ﷺ وخديجة . وعلى أعمامك حمزة

(أهل البيت)

وجعفر ، وعلى أخوالك القاسم والطيب ومطهر وإبراهيم . وعلى خالاتك رقية
وأُم كلثوم .

— يا أخى إني أدخل في أمر من أمر الله لم أدخل في مثله ، وأرى خلقا من خلق
الله لم أر مثله قط .

فغامت عينا الحسين بالدموع ، ثم سالت عبراته ، والتفت الحسن إليه وقال :
— أخرجوني إلى الصحن أنظر في ملكوت السماء .

فأخرجوا فراشه ، فرفع رأسه فنظر فقال :

— اللهم إني أحتسب نفسي عندك فإنها أعز الأنفس عليّ .

وبعث الحسن يستأذن عائشة في أن يدفن مع رسول الله ، فأذنت له .

فقال للحسين :

— ادفنوني عند قبر رسول الله ﷺ إلا أن تنافوا أن يكون في ذلك شر .

ووهنت قوى الحسن ، وحضرت في مخيلته صورة معاوية فغمغم :

— لقد حاقت شربته ، وبلغ أمنيته ، والله ما وفي بما وعد ، ولا صدق فيما

قال .

ومال الحسين عليه فسمعه بهمس :

— يا أخى قد حضرت وفاتى ، وحن فراقى لك ، وإنى لاحق برى ، وأجد

كبدى تقطع ، وإنى عارف من أين ذهبت ، وأنا أخاصمه إلى الله تعالى .

وجاد الحسن داعية السلام بروحه الذكية ، فهرع أبو هريرة وهو يركى إلى

مسجد رسول الله وصاح بأعلى صوته :

— يأيها الناس ، مات اليوم حب رسول الله فابكوا .

وجُهِز الحسن ، وأراد الحسين أن يقبره بجوار جده ، فقال مروان :

— يدفن عثمان في حش كوكب ويدفن الحسن في الحجرة .

فليس الحسين السلاح واجتمع بنو هاشم وبنو أمية ، وأعان هؤلاء قوم وهؤلاء

قوم ، وتأهب الفريقان للقتال ، وجاء أبو هريرة مروان فقال له :

— أتمنع الحسن أن يدفن في هذا الموضع وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » ؟ .

فقال مروان :

— دعنا منك ، لقد ضاع حديث رسول الله إذ كان لا يحفظه غيرك وغير أبى
سعيد الخدرى ، وإنما أسلمت أيام خبير .

— صدقت ، أسلمت أيام خبير ، ولكننى لزممت رسول الله ﷺ ولم أكن
أفارقه ، وكنت أسأله وعنيت بذلك حتى علمت من أحب ومن أبغض ، ومن
قرب ومن أبعد ، ومن أقر ومن نفى ، ومن لعن ومن دعا له .

ورأت عائشة السلاح والرجال فخافت أن يعظم الشر بينهم وتسفك الدماء
فبعثت إليهم :

— البيت بيتى ولا آذن لأحد أن يُدفن فيه .

وأبى الحسين إلا أن يدفنه مع جده ، فجاء سعد بن أبى وقاص وأبو هريرة وجابر
وقالوا له :

— يا أبا عبد الله ، اتق الله ولا تثر فتنة ، فإن أخاك كان لا يحب ما ترى ، فادفنه
في البقيع مع أمه .

وقال محمد بن الحنفية :

— يا أخى ، إنه لو كان أوصى أن ندفنه لدفناه أو نموت قبل ذلك ، ولكنه قد
استثنى وقال : إلا أن تخافوا الشر ، فأبى شريرى أشد مما نحن فيه ؟ !

وقبل الحسين أن يدفن في البقيع ، فأخرجوا جنازته ، فحمل مروان سريره ،
فقال له الحسين :

— تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرعه الغيظ !!

— نعم كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمة الجبال .

وقبر الحسن بالبقيع ، وانتظر مروان عدو بنى هاشم أن يرضى ذلك معاوية ،
فإنه ما فعل ذلك إلا إرضاء له فقد كان يومئذ معزولا .

ووقف محمد بن الحنفية على قبر أخيه فقال :

— لئن عزت حياتك ، لقد هدت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه
كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمن بدنك ، وكيف لا تكون هكذا وأنت عتبة
الهدى وخلف أهل التقوى وخامس أصحاب الكساء ، غدتك بالتقوى أكف
الحق ، وأرضعتك ثدى الإيمان ، ورييت في حجر الإسلام ، فطبت حياً وميتاً ،
وإن كانت أنفسنا غير سخية بفراقك ، رحمك الله أبا محمد .

* * *

كبر معاوية في الخضراء ، فكبر أهل الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل
الخضراء ، فخرجت زوجة معاوية من خوخة لها فقالت :

— سرك الله يا أمير المؤمنين ، ما هذا الذى بلغك فسررت به ؟

— موت الحسن بن على .

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم بكت وقالت :

— مات سيد المسلمين ، وابن بنت رسول الله ﷺ .

وبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية :

— يا بن عباس ، هلك الحسن بن على .

— نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح

والسرور لو فاته ، أما والله ما سد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله فى

عمره ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أصبنا به ولقد أصبنا بمن كان خيراً منه ؛

جده رسول الله ﷺ ، فجبر الله مصيبته وخلف الله من بعده أحسن الخلافة .

ثم شهق ابن عباس وبكى ، وبكى من حضر فى المجلس ، وبكى معاوية ثم قال :

— بلغنى أنه ترك بنين صغاراً .

— كلنا كان صغيراً فكبر .

— كم أتى له من العمر ؟

— أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده .
فسكت معاوية يسيراً ثم قال :
— يا بن عباس ، أصبحت سيد قومك من بعده .
— أما ما أبقي الله أبا عبد الله الحسين فلا .
— لله أبوك يا بن عباس ، ما استنبأتك إلا وجدتك معدا .
وبعثت جعدة إلى معاوية تلتمس منه الوفاء بما وعدّها به ، فوفى لها بالمال وأرسل
إليها :
— إنا نحب حياة يزيد ، ولولا ذلك لو فينا لك بتزويجه .

٤٣

مات الحسن ، فقويت في نفس معاوية فكرة استخلاف يزيد ، ورأى أنه لو
طوى الهاشميين لكان الأمر أسلس ، ففكر وأمعن في التفكير فاهتدى إلى أنه لو زوج
ابنه منهم لضمهم إليه ، ولقضى بالمصاهرة على أحقاد السنين ، فكتب إلى مروان
ابن الحكم وهو والى المدينة : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين أحب أن يرد الألفة
ويسل السخيمة ويصل الرحم ، فإذا وصل إليك كتابي ، فاخطب إلى عبد الله بن
جعفر ابنته أم كلثوم على يزيد بن أمير المؤمنين ، وأرغب له في الصداق » .
كان معاوية يبغي من ذلك أن يرضى عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس
والحسين بن علي فأم كلثوم ابنة زينب بنت عليّ ، فلو ارتبطت بينه وبين حفيدة
الإمام الأسباب ، لرضى رؤساء بني هاشم ، ونامت الفتنة ، واستلت الأحقاد .
وذهب مروان إلى عبد الله بن جعفر فقرأ عليه كتاب معاوية ، وأعلمه بما في رد
الألفة من صلاح ذات البين ، واجتماع الدعوة ، فقال عبد الله :
— إن خالها الحسين يئيب وليس ممن يفتات عليه بأمر ، فأنظرني إلى أن يقدم .
وقدم الحسين فذكر له ذلك عبد الله بن جعفر ، فقام من عنده فدخل إلى

أم كلثوم ، فقال :

— يا بنية ، إن ابن عمك القاسم بن محمد بن جعفر أحق بك .
وحضر مروان فذكر معاوية ، وما قصده من صلة الرحم وجمع الكلمة ،
فتكلم الحسين فزوجها من القاسم ، فما كان يقبل يزيد للناس ، أفيقبله لابنة
زينب ؟!

فغضب مروان وقال في ثورة :

— أغدرًا يا حسين ؟

— أنت بدأت ، خطب أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام عائشة بنت عثمان
ابن عفان واجتمعا لذلك ، فتكلمت أنت فزوجتها من عبد الله بن الزبير .
— ما كان ذلك .

فالتفت الحسين إلى محمد بن حاطب ، فقال :

— أنشدك الله أكان ذاك ؟

— اللهم نعم .

وغضب معاوية لرفض الحسين هذه الزيجة ، فأراد أن يحو ما حاق به من فشل
فبايع ليزيد بالشام ، وكتب بيعته إلى الآفاق ، وكتب إلى مروان يأمره بجمع من
قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، فلما قرأ مروان كتاب معاوية أوى من ذلك
وأبته قريش ، فقد كان مروان يطمع فيها لنفسه ، فكتب لمعاوية :
« إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك فأرني رأيك » .

فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ويخبره أنه قد ولى المدينة سعيد بن العاص ،
وكتب إلى سعيد يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ويكتب إليه بمن سارع ممن لم
يسارع . فلما أتى سعيد بن العاص الكتاب دعما الناس إلى البيعة ليزيد ، وأظهر
الغلظة وأخذهم بالعزم والشدة وسطا بكل من أبطا عن ذلك ، فأبطأ الناس منها إلا
اليسير ، لا سيما بنى هاشم فإنه لم يجبه منهم أحد ، فكتب سعيد بن العاص إلى
معاوية : « أما بعد ، فإنك أمرتني أن أدعو الناس لبيعة يزيد بن أمير المؤمنين ، وأن

كسب إليك بمن سارع ممن أبطأ ، وإني أخبرك أن الناس عن ذلك بطاء لا سيما أهل البيت من بنى هاشم فإنه لم يجبني منهم أحد ، وبلغني عنهم ما أكره ، وأما الذي جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ، ولست أقوى عليهم إلا بالخیل والرجال ، أو تقدم بنفسك فترى رأيك في ذلك والسلام .

فكتب معاوية إليه : « أما بعد فقد أتاني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من إبطاء الناس عن البيعة ولا سيما بنى هاشم وما ذكر ابن الزبير ، وقد كتبت إلى رؤسائهم كتباً فسلمها إليهم وتنجز جواباتها ، وابعث بها إليّ حتى أرى في ذلك رأيي ، ولتشدد عزيمتك ، ولتصلب شكيمتك ، وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق وإياك والخرق فإن الرفق رشد ، والخرق نكد ، وانظر حسينا خاصة فلا يناله منك مكروه ؛ فإن له قرابة وحققاً عظيماً ، لا ينكره مسلم ولا مسلمة ، وهوليث عرين ولست آمنك إن شاورته أن لا تقوى عليه ، فأما من يرد مع السباع إذا وردت ، ويكنس إذا كنست ، فذلك عبد الله بن الزبير فاحذره أشد الحذر ولا قوة إلا بالله ، وأنا قادم عليك والسلام .

وسلم سعيد كتب معاوية إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر والحسين بن علي ، وكتب إلى ابن عباس : « أما بعد فقد بلغني إبطاؤك عن البيعة ليزيد بن أمير المؤمنين ، وإني لو قتلتك بعثان لكان ذلك إليّ لأنك ممن ألب عليه وأجلب ، وما معك من أمان فتطمئن به ، ولا عهد فتسكن إليه ، فإذا أتاك كتابي هذا فاخرج إلى المسجد والعن قتلة عثمان وبايع عاملي ، فقد أعذر من أنذر ، وأنت بنفسك أبصر والسلام .

فأجابه عبد الله بن عباس فكتب إليه : « أما بعد ، فقد جاءني كتابك وفهمت ما ذكرت ، وأن ليس عليّ منك أمان ، وأنه والله ما منك يُطلب الأمان يا معاوية ، وإنما يُطلب الأمان من الله رب العالمين . أما قولك في قتلي فوالله لو فعلت للقيت الله ومحمد ﷺ خصمك ، فما إخاله أفلح ولا أنجح من كان رسول الله خصمه . وأما ما ذكرت من أني ممن ألب في عثمان وأجلب ، فذلك أمر غبت عنه ولو حضرته

ما نسبت إلى شيئا من التأليب عليه ، وأيم الله ما أرى أحدا غضب لعثمان غضبي ، ولا أعظم أحد قتله إعظامي ، ولو شهدته لنصرته أو أموت دونه ، ولقد قلت وتمنيت يوم قتل عثمان ليت الذي قتل عثمان لقيني فقتلني معه ولا أبقى بعده . وأما قولك لي : العن قتلة عثمان ، فلعثان ولد وخاصة وقرابة هم أحق بلعنهم مني ، فإن شاءوا أن يلعنوا فليلعنوا وإن شاءوا أن يمسكوا فليمسكوا والسلام » .

وكتب إلى عبد الله بن جعفر : « أما بعد فقد عرفت أثرني إياك على من سواك ، وحسن رأيي فيك وفي أهل بيتك ، وقد أتاني عنك ما أكره ، فإن بايعت تُشكر وإن تاب تجبر والسلام » .

وكتب إلى الحسين : « أما بعد ، فقد انتهت إلى منك أمور لم أكن أظنك بها رغبة عنها ، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطي بيعته من كان مثلك في خطرک وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها ، فلا تنازع إلى قطيعتك ، واتق الله ولا تردن هذه الأمة في فتنة ، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد ، ولا يستخفك الذين لا يوقنون » .

فكتب إليه الحسين عليه السلام : « أما بعد ! فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عنى أمور ، ولم تكن تظنني بها رغبة بي عنها ، وإن الحسنات لا يهدى لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى . وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عنى فإنما رقا الملاقون المشاءون بالثيمة ، المفرقون بين الجمع . وكذب الغاوون المارقون ، ما أردت حرباً ولا خلافاً ، وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين المحليين ، حزب الظالم وأعوان الشيطان الرجيم ، ألسنت قاتل حجر وأصحابه العابدين الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الموائيق الغليظة والعهود المؤكدة ، جراءة على الله واستخفافاً بعهده ؟ أولست بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخلقت وأبليت وجهه العبادة فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود لو فهمته العصم نزلت من سقف الجبال ؟ أولست المدعى زياداً في الإسلام ، فزعمت أنه ابن أبي سفيان ، وقد قضى

رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم على جذوع النخل ؟ سبحان الله يا معاوية لكأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك . أولست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد أنه على دين عليّ كرم الله وجهه ، ودين عليّ هو دين ابن عمه ﷺ الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تحشم الرحلتين ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، فوضعها الله عنكم بنا منة عليكم . وقلت فيما قلت لا ترد هذه الأمة في فتنة ، وإني لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها ، وقلت فيما قلت انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك ، فإن أفعل فإنه قرينة إلى ربي ، وإن لم أفعله فاستغفر الله لديني وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى . وقلت فيما قلت متى تكدني أكذك ، فكدني يا معاوية فيما بدا لك ، فلعمري لقد يمًا يكاد الصالحون ، وإني لأرجو أن لا تضر إلا نفسك ، ولا تمحق إلا عملك ، فكدني ما بدا لك ، واثق الله يا معاوية ، واعلم أن الله كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، واعلم أن الله ليس بناس لك قتلك بالظنة ، وأخذك بالتهمة ، وإمارتك صبيًا يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ، ما أراك إلا وقد أبقت نفسك ، وأهلك دينك ، وأضعت الرعية . والسلام . »

ثار الحسين للحق وفي الحق ، فلم يشرب بعنقه إلى الخلافة ، ولم يطالب بها ، ولكنه رأى منكراً فعزم على أن يقومه حتى يستقيم أمر المسلمين ، وبدا كأنه بدأ في تنفيذ وصية أبيه العظيم بأن يكون للظالم خصماً ، وللمظلوم ناصراً ، وأن يعمل بما في الكتاب ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

* * *

وكتب معاوية إلى سعيد بن العاص يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذاً بغلظة وشدة ، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا ، وأمره أن لا يحرك هؤلاء النفر ولا يهيجهم .

وأخذ سعيد بن العاص يدعو ليزيد ويحاول أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة أعنف ما يكون من الأخذ وأغلظه ، فلم يبايعه أحد ، فكتب إلى معاوية : « إنه لم يبايعني أحد ، وإنما الناس تبع هؤلاء النفر ، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً ، ولم يتخلف عنك أحد » .

ورأى معاوية أن ينطلق إلى المدينة ليقابل هؤلاء النفر ، فقدمها حاجا ، فلما أن دنا منها خرج إليه الناس يتلقونه ما بين راكب وماش ، فلما رأى الناس تهلت أساريره وقال متملقا :

— أهل المدينة ؟ ، ما زلت أطوى الحزن من وعثاء السفر بالحب لمطالعتكم حتى انطوى البعيد ، ولان الخشن ، وحق لجار رسول الله أن يُتاق إليه .
فرد عليه القوم :

— بنفسك ودارك ومهاجرك ، أما إن لك منهم كإشفاق الحميم البر والحفى .
وسار حتى إذا كان بالجرف لقيه الحسين وعبد الله بن عباس ، فقال معاوية :
— مرحباً بابن بنت رسول الله وابن صنو أبيه .
ثم انحرف إلى الناس فقال :

— هذان شيخا بنى عبد مناف .
وأقبل عليهما بوجهه وحديثه ، فرحب وقرب ، وجعل يواجهه هذا مرة ويضاحك هذا أخرى حتى ورد المدينة ، فلما خالطها لقيته المشاة والنساء والصبيان يسلمون عليه ويسايرونه إلى أن نزل ، فقال الحسين إلى منزله ، ومضى عبد الله بن عباس إلى المسجد فدخله .

أقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام حتى أتى عائشة أم المؤمنين ، فاستأذن عليها ، فأذنت له وحده ، لم يدخل عليها معه أحد ، وعندها مولاها ذكوان ، فقالت عائشة :

— يا معاوية أكنت تأمن أن أقعد لك رجلا فأقتلك كما قتلت أخى محمد بن أبى بكر ؟

— ما كنت تفعلين ذلك .

— لِمَ ؟

— لأنى فى بيت آمن ، بيت رسول الله .

وحمدت الله عائشة وأثنت عليه وذكرت رسول الله ﷺ ، وذكرت أبا بكر وعمر وحضته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما ثم صمت ، فلم يخطب معاوية وخاف أن لا يبلغ ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالاً :

— أنت يا أم المؤمنين العالمة بالله ورسوله ، دللتنا على الحق ، وحضضتنا على حظ أنفسنا ، وأنت أهل لأن يُطاع أمرك ويُسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكد الناس بيعتهم فى أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك وموآثيقهم ، أفترى أن ينقضوا عهودهم وموآثيقهم ؟ !
فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضى على أمره ، فقالت :

— أما ما ذكرت من عهود وموآثيق فاتق الله فى هؤلاء الرهط ولا تعجل فيهم ، فلعلهم لا يصنعون إلا ما أحببت .

وهم معاوية بالقيام فقالت له :

— يا معاوية ، قتلت حجراً وأصحابه العابدين المجتهدين .

— دعى هذا ، كيف أنا فى الذى بينى وبينك وفى حوائجك ؟

— صالح .

— فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا .

ثم خرج ومعه ذكوان ، فاتكأ على يد ذكوان وهو يمشى ويقول :

— تالله إن رأيت اليوم قط خطيباً أبلغ من عائشة بعد رسول الله .

ثم مضى حتى أتى منزله ، فأرسل إلى الحسين بن علفى فخلا به ، ثم أرسل بعده إلى ابن الزبير فخلا به ، ثم إلى ابن عمر ، ثم إلى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وبقي معاوية يومه ذلك يعطى الخواص ، فلما كان صبيحة اليوم الثانى أمر بفراش فوضع له ، وسويت مقاعد الخاصة حوله وتلقاه من أهله ، ثم خرج وعليه حلة يمانية

وعمامة دكناء وقد أسبل طرفها بين كتفيه وقد تغلف وتعطر فقعد على سريره ،
وأجلس كتابه منه بحيث يسمعون ما يأمر به ، وأسر حاجبه أن لا يأذن لأحد من
الناس وإن قرب .

وأرسل إلى الحسين وابن عباس ، فسبق ابن عباس ، فلما دخل وسلم عليه
أقعده في الفراش على يساره ، فحادثه ملياً ثم قال :

— يا بن عباس ، لقد وفر الله حظكم من مجاورة هذا القبر الشريف ودار
الرسول عليه السلام .

— نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، وحظنا من القناعة بالبعض والتجافى عن
الكل أوفر .

وجعل الرجلان يتحاوران حتى أقبل الحسين ، فلما رآه معاوية جمع له وسادة
كانت على يمينه ، فدخل الحسين وسلم ، فأشار إليه فأجلسه عن يمينه مكان
الوسادة ، فسأله معاوية عن حال بنى أخيه الحسن فأخبره ، ثم ابتدأ معاوية فقال :
— أما بعد ، فالحمد لله ولّى النعم ومنزل النقم ، أشهد أن لا إله إلا الله المتعالى
عما يقول الملحدون علواً كبيراً ، وأن محمداً عبده المختص المبعوث إلى الجن والإنس
كافة لينذرهم بقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد ، فأدى عن الله ، وصدع بأمره وصبر عن الأذى في جنبه ، حتى أوضح دين
الله وأعز أوليائه ، وقمع المشركين وظهر أمر الله وهم كارهون ، فمضى صلوات
الله عليه وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار منها الترك لما سخر له ، زهادة
واختياراً لله ، وأنفة واقتداراً على الصبر ، بغيا لما يدوم ويبقى ، فهذه صفة الرسول
ﷺ ، ثم خلفه رجلان محفوظان وثالث مشكوك ، وبين ذلك خوض طال ما
عالجناه مشاهدة ومكافحة ومعاينة وسماعاً ، وما أعلم منه فوق ما تعلمان ، وقد
كان من أمر يزيد ما سبقنا إليه ، وقد علم الله ما أحاول به من أمر الرعية من سد
الخلل ولم الصدع بولاية يزيد ، بما أيقظ العين وأحمد الفعل ، هذا معنای في يزيد ،
وفيكما فضل القرابة وحظوة العلم وكال المروءة ، وقد أصبت من ذلك عند يزيد

على المناظرة والمقابلة ، ما أعياني مثله عندكما وعند غيركما من علمه بالسنة ، وقراءة القرآن ، والحلم الذى يرجع بالصم الصلاب ، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة قدم على الصديق والفاروق من دونهما من أكابر الصحابة وأوائل المهاجرين يوم غزوة السلاسل ، ومن لم يقارب القوم ولم يعاندهم برتبة فى قرابة موصولة ، ولا سنة مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره وجمع بهم صلاتهم وحفظ عليهم فيثهم ، وقال ولم يقل معه ، وفى رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فمهلا بنى عبد المطلب ، فأنا وأنتم شعبا نفع وجد ، وما زلت أرجو الإنصاف فى اجتماعكما ، فما يقول القائل إلا بفضل قولكما ، فردا على ذى رحم مستعتب ما يحمد به البصيرة فى عتابكما ، وأستغفر الله لى ولكما .

فتيسر ابن عباس للكلام ، ونصب يده للمخاطبة ، فأشار إليه الحسين وقال :
— على رسلك ، فأنا المراد ونصيبى فى التهمة أوفر .

فأمسك ابن عباس ، فقام الحسين ، فحمد الله وصلى على الرسول ثم قال :
— أما بعد يا معاوية فلن يؤدى القائل وإن أطنب فى صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع جزءاً ، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتكيب عن استبلاغ البيعة ، وهيهات هيهات يا معاوية ، فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السرج ، ولقد فضلت حتى أفرطت ، واستأثرت حتى أجحفت ، ومنعت حتى بخلت ، وجرت حتى جاوزت ، ما بذلت لذى حق من أثم حقه بنصيب حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ونصيبه الأكمل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد ، تريد أن توهم الناس فى يزيد كأنك تصف محجوباً ، أو تنعت غائباً ، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص ، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش ، والحمام السبق لأترايهن ، والقينات ذوات المعازف وضروب الملاحى تجده ناصرا ودع عنك ما تحاول ، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية ، فوالله ما برحت تقدر

باطلا في جور ، وحنقا في ظلم ، حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت إلا غمضة ، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود ، ولات حين مناص .
ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر ومنعتنا عن آباءنا تراثا ، ولقد لعمر الله أرثنا الرسول عليه السلام ولادة ، وجئت لنا بها ما حججتم به القائم عند موت الرسول ، فأذعن للحجة بذلك ورده الإيمان إلى النصف ، فركبتم الأغاليل ، وفعلتم الأفاعيل ، وقلتم كان ويكون حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك ، فهناك فاعتبروا يا أولى الأبصار
وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله ﷺ وتأميره له ، وقد كان ذاك ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول وبيعته له وما صار لعمرو يومئذ حتى أنف القوم إمرته وكرهوا تقديمه وعدوا عليه أفعاله ، فقال ﷺ : « لا جرم معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري » ، فكيف يحتج بالمنسوخ من فعل الرسول فيؤكد الأحوال وأولاهها بالاجتماع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحب تابعا وخولك من لا يؤمن في صحبته ، ولا يعتمد في دينه وقرابته ، وتتخطاهم إلى سرف مفتون ، تريد أن تلبس الناس شبهة يسعد بها الباقي في دنياه ، وتشقى بها في آخرتك ، إن هذا هو الخسران المبين ، وأستغفر الله لي ولكم .

فنظر معاوية إلى ابن عباس فقال :

— ما هذا يا بن عباس ، ولما عندك أدهى وأمر .

فقال ابن عباس :

— لعمر الله إنها لذرية الرسول وأحد أصحاب الكساء ، ومن البيت المطهر فله عما تريد ، فإن لك في الناس مقنعا حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين .

فقال معاوية :

— أعود الحلم التحلم ، وخيره التحلم عن الأهل ، انصرفا في حفظ الله .
ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر وإلى عبد الله

ابن الزبير فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه معاوية ثم قال :

— يا عبد الله بن عمر ، قد كنت تحدثنا أنك لا تحب أن تبيت ليلة وليس في عنقك بيعة جماعة وأن لك الدنيا وما فيها ، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملئهم ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء ، وليس للعباد خيرة من أمرهم ، وقد وكد الناس بيعتهم في أعناقهم ، وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم .

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

— أما بعد يا معاوية، لقد كانت قبلك خلفاء، وكان لهم بنون ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك ، فلم يحابوا في هذا الأمر أحداً ، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيث علموهم ، وإن تجذرني أن أشق عصا المسلمين وأفرق ملأهم ، وأسفك دماءهم ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله ، ولكن إن استقام الناس فسأدخل في صالح ما تدخل فيه أمة محمد .

— يرحمك الله ، ليس عندك خلاف .

ودار الحوار بين معاوية وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير ثم انصرف الجميع ، واحتجب معاوية عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادى أن ينادى في الناس أن يجتمعوا لأمر جامع ، فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير حول المنبر ، فصعد معاوية المنبر فقال :

— يا أهل المدينة ، لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركت قرية ولا مدرة إلا بغشت إليها ببيعته فبايع الناس جميعا وسلموا ، وأخرت المدينة بيعته ، وقلت بيضته وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة منهم من كان أجدر أن يصله ، ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له .

فقام الحسين فقال :

— والله لقد تركت من هو خير منه أبا وأما ونفسا .

فقال معاوية :

— كأنك تريد نفسك .

— نعم ، أصلحك الله .

— إذا أخبرك ، أما قولك خير منه أما ، فلعمري أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش لكان لنساء قريش فضلهن ، فكيف وهى ابنة رسول الله ﷺ ، ثم فاطمة فى دينها وسابقتها ، فأملك لعمر الله خير من أمه ، وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، فقضى لأبيه على أهلك .

— حسبك جهلك ، أثرت العاجل على الآجل .

— وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفسا ، فيزيد والله خير لأمة محمد منك .

— هذا هو الإفك والزور ، يزيد شارب الخمر ومشتري اللهو خير منى ؟!

— مهلا عن شتم ابن عمك ، فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتبك .

ثم التفت معاوية إلى الناس وقال :

— أيها الناس قد علمتم أن رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف أحدا ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعة مدى فعل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، ففعل عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله ، وصنع عمر ما لم يفعله أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظرا للمسلمين . فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظرا لهم بعين الإنصاف .

فقام عبد الله بن الزبير فقال :

— إن رسول الله ﷺ قبض فترك الناس إلى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، ثم رأى أن يستخلف عمر وهو أنصى قريش منه نسباً ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، وفى المسلمين ابنه وهو

خير من ابنك ، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم ، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم ، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر تختار رهطا من المسلمين وتزويها عن ابنك فافعل .

وانصرف معاوية ذاهبا إلى منزله ، وأمر من حرسه وشرطته قوما أن يحضروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة ، وهم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبي بكر ، فلما اجتمعوا عنده التفت إلى جنده وقال : — إني خارج العشية إلى أهل الشام فأخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا وسلموا فإن تكلم أحد منهم بكلام يصدقني أو يكذبني فيه فلا ينقض كلامه حتى يطير رأسه .

فلما كان العشي خرج معاوية وخرج معه هؤلاء النفر وهو يضاحكهم ويحدثهم وقد ألبسهم التحلل ، فألبس ابن عمر حلة حمراء ، وألبس الحسين حلة صفراء ، وألبس عبد الله بن عباس حلة خضراء ، وألبس ابن الزبير حلة يمانية .

ثم خرج بينهم وأظهر لأهل الشام الرضا عنهم ، وأنهم بايعوا ، فقال : — يا أهل الشام ، إن هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين فوجدتهم واصلين مطيعين ، وقد بايعوا وسلموا .

وظل القوم سكوتا لم يتكلموا شيئا حذر القتل ، فوثب الناس من أهل الشام فقالوا :

— يا أمير المؤمنين ، إن كان رابك منهم ريب فخل بيننا وبينهم حتى نضرب أعناقهم .

فقال معاوية :

— سبحان الله ، ما أحل دماء قريش عندكم يا أهل الشام ، لا أسمع ذكرا بسوء ، فإنهم قد بايعوا وسلموا وارتضوني فرضيت عنهم رضى الله عنهم .

وارتحل معاوية إلى مكة وقد أعطى الناس أعطياتهم وأجزل العطاء ، وأخرج إلى

(أهل البيت)

كل قبيلة جوائزها وأعطياتها ، ولم يخرج لبنى هاشم جائزة ولا عطاء ، فخرج عبد الله بن عباس في أثره حتى لحقه بالروحاء فجلس ببابه ، فجعل معاوية يقول :
— مَنْ بالباب ؟

فيُقال :

— عبد الله بن عباس .

فلم يأذن لأحد ، فلما استيقظ قال :

— مَنْ بالباب ؟

ف قيل :

— عبد الله بن عباس .

فدعا بدابته فأدخلت إليه ، ثم خرج راكباً ، فوثب إليه عبد الله بن عباس فأخذ بلجام البغلة ثم قال :

— أين تذهب ؟

— إلى مكة .

— فأين جوائزنا كما أجزت غيرنا ؟

فأوماً إليه معاوية فقال :

— والله ما لكم عندي جائزة ولا عطاء حتى يبايع صاحبكم .

— فقد أوى ابن الزبير فأخرجت جائزة بنى أسد ، وأوى عبد الله بن عمر فأخرجت

جائزة بنى عدى ، فما لنا إن أوى صاحبنا وقد أوى صاحب غيرنا ؟

— لستم كغيركم ، لا والله لا أعطيكُم درهماً حتى يبايع صاحبكم .

— أما والله لئن لم تفعل لألحقن بساحل من سواحل الشام ثم لأقولن ما تعلم ،

والله لأتركنهم عليك خوارج .

— لا بل أعطيكُم جوائزكم .

فبعث بها من الروحاء ومضى راجعاً إلى الشام ، فلما قدم الشام أتاه سعيد بن

عثمان بن عفان فقال :

— يا أمير المؤمنين ، علام تباع يزيد وتتركني ؟! فوالله لتعلم أن ألى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، وأنا خير منه ، وإنك إنما نلت ما أنت فيه بأبى .
فضحك معاوية وقال :

— يابن أخى ، أما قولك إن أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية ، وأما قولك إن أمك خير منه أمه ففضل قرشية على كلبية فضل بين ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فإنما هو الملك يأتيه الله من يشاء ، قُتل أبوك رحمه الله ، فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيراً من يزيد فوالله ما أحب أن دارى مملوءة رجالاً مثلك بيزيد ، ولكن دعنى من هذا وسلنى أعطك .

— يا أمير المؤمنين ، لا يعدم يزيد مزكياً ما دمت له ، وما كنت لأرضى ببعض حقى دون بعض ، فإذا أبيت فأعطنى مما أعطاك الله .
— لك خراسان .

— وما خراسان ؟!

— إنها لك طعمة وصلة رحم .

فرضى سعيد وخرج مغتبطاً ، وبقي الحسين فى المدينة متحفزاً ليشور ثورته الكبرى ضد الظلم والطغيان .

٤٤

بات يزيد ليله مؤرقاً ، فقد كان شارد اللب يفكر فى أرنب بنت إسحاق ، إن عينيه لم تقعا عليها ، وقلبه لم يخفق لرؤياها ، ولكنه خفق لما سمع بجمالها وحسنها الرائع الأخاذ ، فلو أن أرنب لم تكن فى كنف رجل لبعث فى طلبها ولأجزل لها المال حتى ترضى ، ولكنها كانت زوجة عبد الله بن سلام ، وقد كان والياً من ولايتهم بالعراق .

وحاول يزيد أن يصرف ذهنه عن ذكرها ، ولكن فكره كان يجسم الجمال في مخيلته ويصوره له أرنب بنت إسحاق ، فما من جمال هام به يوما إلا تخيله فيها ، وما من جمال اشتهاه أو حسن سمع به إلا صور له الفكر وأوحى إليه أنه أرنب حبيبة الفؤاد . وهام يزيد بصورة متخيلة من الحسن والجمال صنعها له الوهم والخيال فحقق القلب ، وشغل البال .

وفتن يزيد بأرنب ، فكان إذا خلا بنفسه يهيم في عوالم الخيال فيزداد شغفا بأرنب التي خلقها لنفسه بنفسه ، وتمدد في سريره وقد شخص ببصره إلى لا شيء ، ثم زفر زفرة طويلة خرجت من صدر ضيافته الكروب ، فأحس رقيق وصيف معاوية أن يزيد في ضيق .

فقال في عجب :

— ما يهلك ؟

— لا شيء .

— يخيل إلى أنك مكروب .

— طعن القلب .

— أفصح .

— تحدث الناس بجمال أرنب بنت إسحاق ، فوقع منى بموقع الهوى فيها ، فلم يزل ما وقع في خلدي ينمو ويعظم في صدري حتى عيل صبرى .

وصمت يزيد ليجتر الصورة المتخيلة للجمال في هدوء مشوب بحزن وضيق ، وطأ طأ رقيق بصره ، وجعل فكره يعمل فلم يجد خيراً من مفاتحة أمير المؤمنين في الأمر ، فيزيد يتألم في صمت ، ومعاوية لا يشعر بما يحس به ابنه الحبيب من كرب ، فنهض وتوجه في سكون الليل نحو سدة معاوية ، وكان غير محجوب عنه ، ولا محبوس دونه ، فلما وقع بصر معاوية على رقيق علم أنه ما جاء به في هجعة الليل إلا أمر ، فقال معاوية :

— ما وراءك ، وما جاء بك ؟

- أصلح الله أمير المؤمنين ، إن يزيد يقاسى من وجده .
فنظر معاوية إلى رقيق فى دهشة ، فقال رقيق :
— جافاه النوم ، وأضحى حليف السهاد .
وأحس معاوية قلقا ، فإنه يحب ابنه حتى إنه تخطى الناس كلهم فى تقديمه ،
ونصبه إماما على أصحاب رسول الله وهو موقن أن فيهم من يفضلوه ، فقال فى
لهفة :
— على به .
فبعث إليه ، فلما جاءه الرسول قال :
— أجب أمير المؤمنين .
فأقبل يزيد حتى دخل على أبيه ثم جلس ، فقال معاوية :
— ماذا بك يا بنى ؟
فبث له شأنه وقد خنقه من شدة الحياء الشوق ، فأطرق معاوية وقد بان فى
وجهه الهم ثم قال :
— مهلا يا يزيد .
— علام تأمرنى بالمهل وقد انقطع منها الأمل .
— فأين حجاج ومروءتك وتقائك ؟
— قد يغلب الهوى على الصبر والحجا .
— اكتم يا بنى أمرك بحلمك واستعن بالله على غلبة هواك بصبرك ، فإن البوح به
غير نافعك ، والله بالغ أمره ، ولا بد مما هو كائن .
ووقع أمر يزيد من معاوية موقعا ملاءهما ، فأخذ فى الحيلة والنظر ، فبيت النية
على اتباع أساليب الغدر والخداع ، ولطالما اتبعهما حتى بلغ مأربه .
كتب إلى عبد الله بن سلام : « أقبل حين تنظر فى كتابى هذا لأمر حظك فيه
كامل ولا تتأخر عنه » ، فأعد عبد الله بن سلام عدته ، وانطلق من العراق إلى
الشام تتخايل له الأمانى والآمال .

ودخل على معاوية فأكرمه وبالح في تكريمه ، وأعد له منزلا فخما ونقله إليه ،
وجلس معاوية إلى أبي الدرداء وأبى هريرة وقال لهما :

— إن ابنتي قد كبرت وأريد تزويجها . وقد رضيت عبد الله بن سلام لدينه
وشرفه وفضله وأدبه ، وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى ، ولكن أرجو أن لا
تخرج عن رأيي إن شاء الله تعالى .

فخرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام ، ودخل معاوية على ابنته
فقال لها :

— إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك عبد الله بن سلام
وإنكاحي إياك منه ، وحضاك على المسارعة إلى رضائي فقولى لهما : عبد الله بن
سلام كفء كريم . غير أن تحته أرنب بنت إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لي من
الغيرة ما يعرض للنساء ولست بفاعلة حتى يفارقها .

ووصل أبو الدرداء وأبو هريرة إلى عبد الله بن سلام فأعلماه بما قال لهما
معاوية . فسر وفرح ، وردهما خاطبين عنه . فلما مثلا بين يدي معاوية قال :
— إني كنت قد أعلمتكما أنني جعلت لها في نفسها شورى ، فادخلا عليها
وأعلماهما بما رأيت لها .

جلست بنت معاوية وقد طأطأت رأسها وقالت في صوت خفيض :
— عبد الله بن سلام كفء كريم ، وأنا خائفة أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض
للنساء فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، فيعذبني عليه فأفارق الرجاء وأستشعر
الأذى ، ولست بفاعلة حتى يفارقها .

وانطلق أبو هريرة وأبو الدرداء إلى ابن سلام وأبلغاه ما قالت ابنة معاوية ، فعلم
أنه لا يحول بينه وبينها إلا أرنب ، ففارق زوجته وأشهدهما على طلاقها وبعثهما
خاطبين أيضا ، وبات عبد الله بن سلام يرقب سفارتهما نافد الصبر ، فإنه ليطمع
في أن تتوثق بينه وبين أمير المؤمنين الأسباب .

ودخلا على أمير المؤمنين متهللي الوجه ، فقد زالت العقبة . وقال أبو الدرداء :

— فارق عبد الله امرأته طلابًا لما يرضى ابنة أمير المؤمنين ، وخروجًا عما يشجيهما :

فأحس معاوية نشوة تشيع في نفسه ، ولكنه تظاهر بالعبوس والتقطيب ، وقال في إنكار :

— ما أستحسن له طلاق امرأته ولا أحببته ، ولو صبر ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره .

ونظر إليهما وقال :

— انصرفا في عافية ، ثم تعودان إلينا فيه وتأخذان إن شاء الله رضانا .
وكتب إلى ابنه يزف إليه خبر ما كان من طلاق عبد الله بن سلام لأرينب .
وعاد بعد ذلك أبو الدرداء وأبو هريرة إلى معاوية فأمرهما بالدخول عليها وقال :

— لم يكن لي أن أكرهها وقد جعلت لها الشورى في نفسها .
فدخلها عليها وأعلمهاها بطلاق عبد الله بن سلام ليسراها بذلك ، وانتظرا موافقتها ولكنها قالت :

— جف القلم بما هو كائن ، ولا أنكر شرفه وفضله ، وإنى سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ولا قوة إلا بالله ، فإن يك صدر هذا اليوم ولي فإن غدًا لناظره قريب .

وذاع خبر طلاق عبد الله بن سلام وخطبته ابنة معاوية ، وانتظر الناس يوم الزواج . وراحت الأيام تمر ، فقلق ابن سلام واستحث أبا الدرداء وأبا هريرة ، فدخلها على ابنة معاوية فقالا :

— لقد أتيناك لما أنت صانعة في أمرك ، وإن تستخيرى الله يخر لك فيما تختارين ، فإنه يهدي من استهداه ويعطي من اجتراه وهو أقدر القادرين .
— الحمد لله ، أرجو أن يكون الله قد خار لي ، فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه . وقد استبرأت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملام ولا موافق لما أريد لنفسى

مع اختلاف من استشرته فيه ، فمنهم الناهى عنه ، ومنهم الأمر به ، واختلافهم أول ما كرهت من الله .

وعلم عبد الله بن سلام أنه خُذع ، فهلع واشتد هلعه ، وطال جزعه ، ولكن ما يجدى الجزع فقد خاب أمله ، وطاش سنهمه ، وفقد درة غالية لطمعه ، خدعه معاوية ولطالما خدع أناساً قبله ، وسخط الناس على ما أتاه أمير المؤمنين ، وأكثروا لومه ، ولكنه نفى عن نفسه الخداع في مهارة عرفت عنه حتى كاد أن يصدقه الناس .

وراح عبد الله بن سلام يتحدث عن خدعة معاوية ، ويخوض فيه ، فضايقه ذلك فنبذه ، وقطع جميع روافده عنه .

ووجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لأرينب على ابنه يزيد ، فخرج حتى قدمها وبها الحسين بن عليّ ، فلما علم بوجوده قال :
— ما ينبغي لذي عقل أن يبدأ بشيء قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجنة إذا دخل موضعاً هو فيه .

فقصد حتى أتى الحسين ، فلما رآه الحسين قام إليه وصافحه إجلالاً له ثم قال :
— مرحباً بصاحب رسول الله ﷺ وجليسه ، يا أبا الدرداء أحدثت لي رؤيتك شوقاً إلى رسول الله ﷺ وأوقدت مطلقاً أحزاني عليه ، فإني لم أر منذ فارقتك أحداً كان له جليساً وإليه حبيباً إلا هملت عيناى وأحرقت كبدي أسى عليه ، وصباية إليه .

ففاضت عينا أبى الدرداء لذكر رسول الله وقال :

— جزى الله لبانة أقدمتنا عليك وجمعتنا بك خيراً .

— والله إني لذو حرص عليك ولقد كنت بالاشتياق إليك .

— وجهنى معاوية خاطباً على ابنه يزيد أرينب بنت إسحاق ، فرأيت أن لا أبدأ

بشيء قبل إحداث العهد بك والتسليم عليك .

— لقد كنت ذكرت نكاحها ، وأردت الإرسال إليها بعد انقضاء أقرائها ، فلم

يمنعنى من ذلك إلا تخيير مثلك ، فقد أتى الله بك فاخطب رحمك الله على وعليه
فلتختر من اختاره الله لها ، وإنها أمانة فى عنقك حتى تؤديها إليها ، وأعطها من المهر
مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه .
— أفعل إن شاء الله .

وخرج أبو الدرداء ليخطب على حفيد الرسول وحفيد أبى سفيان ، فلما دخل
على أرينب قال :

— كان مما سبق لك وقدر عليك الذى كان من فراق عبد الله بن سلام إياك ولعل
ذلك لا يضررك ، وأن يجعل الله لك فيه خيراً كثيراً ، وقد خطبك أمير هذه الأمة
وابن الملك وولى عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية ، وابن بنت رسول الله
ﷺ وابن أول من آمن به من أمته ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، وقد
بلغك سناهما وفضلهما ، وجئتك خاطباً عليهما فاخترى أيهما شئت .
فسكتت طويلاً ثم قالت :

— يا أبا الدرداء ، لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت غائب عنى أشخست فيه
الرسول إليك واتبعت رأيك ولم أقطعه دونك على بعد مكانك ونأى دارك ، فأما إذا
كنت المرسل فيه فقد فوضت أمرى بعد الله إليك ، فاختر لى أرضاهما لديك ،
فليس أمرهما عليك خافياً .

— أيتها المرأة ، إنما على إعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك .

— عفا الله عنك ، إنما أنا بنت أخيك ومن لا غنى بها عنك .

فأطرق أبو الدرداء قليلاً ثم قال :

— أى بنية ، ابن بنت رسول الله أحب إلى وأرضاهما عندى ، والله أعلم بخيرهما
لك ، وقد كنت رأيت رسول الله ﷺ واضعاً شفتيه على شفتى الحسين ، فضعى
شفتيك حيث وضعهما رسول الله .

— قد اخترته ورضيته .

وتزوج الحسين من أرينب ، فحقن عليه معاوية ، وازداد حقد يزيد له . فقد

حرمة الحسين من أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ، واستولى على أرينب بعد أن اطمأن إلى دهاء أبيه وحسب أنها أصبحت يسيرة المال .

وساء حال عبد الله بن سلام ، وقل ما في يده ، فتذكر أنه ترك عند أرينب قبل فراقه إياها بدرات مملوءة درًا . فخرج إلى العراق وفكر في أن يأتي أرينب يطلب ماله ، ولكنه خشي جحودها عليه لسوء فعله بها ، وطلاقه إياها على غير شيء أنكره ، وتصبر وانتظر ، واشتدت حاجته إلى المال فقابل الحسين وقال له :

— قد علمت — جعلت فداك — الذي كان من قضاء الله في طلاق أرينب بنت إسحاق ، وكنت قبل فراق إياها قد استودعتها مالا عظيما ، وكان الذي كان ولم أقبضه ، والله ما أنكرت منها في طول ما صحبتها فتبلا ، ولا أظن بها إلا جميلا ، فذاكرها أمرى ، واحضضها على الرد عليّ ، فإن الله يحسن عليك ذكرك ويجزل به أجرك .

وانصرف الحسين إلى أهله فقال :

— قدم عبد الله بن سلام .

فظهر على أرينب ارتباك مشوب باهتمام ، ولم يفت الحسين ما اعتراها فقال :
— وهو يحسن الثناء عليك ويحبل النشر عنك في حسن صحبتك ، وما آنسه قديما من أمانتك فسرني ذلك وأعجبني .

فبدا عليها اضطراب المحب إذا ما ذكر أمامه الحبيب بعد الغيبة والفراق ، وقال الحسين :

— وذكر أنه كان استودعك مالا قبل فراقه إياك فأدى إليه أمانته ، وردى عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقا ، ولم يطلب إلا حقا .

فقالت أرينب في صوت فيه رعدة خفيفة :

— صدق ، قد والله استودعني مالا لا أدري ما هو ، وإنه لمطبوع عليه بطابعه ما أخذ منه شيء إلى يومه هذا .

ولقى عبد الله بن سلام فقال له :

— ما أنكرت مالك وزعمت أنه لكما دفعته إليها بطابعك ، فادخل يا هذا عليها وتوف مالك منها .

— أو تأمر بدفعه إلى جعلت فداك .

— لا حتى تقبضه منها كما دفعته إليها وتبرئها منه إذا أدته .

وتقدم الحسين وعبد الله بن سلام ، وكان عبد الله يحس قلبه يشب في صدره حتى ليكاد يقفز من فيه ، واعتراه ارتباك فقد كان يهاها ويخشى أن يخونه تجلده ، فيفصح عن لواجع النفس لهفة القلب ، ودخلا عليها فأحس عبد الله نفسه تذوب .

وقال الحسين في ثبات :

— هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته ، فأديها إليه كما قبضتها منه .
فانطلقت أرينب مضطربة الخطوة وأخرجت البدرات وقد لاح في وجهها الأسى والحزن ، وظهر على وجه عبد الله ما يصطرع في جوفه من انفعالات ، ولمح الحسين ما يقاسيانه من وجد ، فانسل في خفة وتركهما وحيدين ، ووضعت البدرات بين يديه وقالت :

— هذا مالك .

ففض عبد الله خاتم بدرة فحشا لها من ذلك الدر حثوات وقال في رقة :

— خذى ، فهذا قليل منى لك .

ولم يقدر أن يستمسكا ، فاستعبرا حتى تعالت أصواتهما بالبكاء ، فرق لهما قلب الحسين ، فدخل عليهما وقال :

— أشهد الله أنها طالق ثلاثا ، اللهم إنك تعلم أنى لم أستكحها رغبة في مالها ولا جمالها ، ولكنى أردت إحلالها لبعليها .

فانتشرت الغبطة في صدر عبد الله ، ورفرف على الحبيين أمن ، وأراد أن يرد إليه بعض ما ساقه إليها من مهر عظيم فأبى وقال :

— الذى أرجوه عليه من الثواب خير لى منه .

دارت عجلة الزمن لتطوى من انتهى أجله ، وتنشر من بزغ نجمه ، فقد مرض معاوية ، وقربت نهايته ، واشتد به الوجع والتمس يزيد ابنه ، ولكنه لم يجده فقد خرج في رحلة من رحلات الصيد ، فدعا بدواة وبياض وكتب إليه كتابًا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تعالى خلق كل شيء لميقات يوم معلوم وأجل محتوم ، ولو خلد في هذه الدنيا أحد لكان سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله أولى بالبقاء . يا بني أوصيك بوصية فأنت بخير ما دمت على حفظها ، أوصيك بأهل الشام فإنهم منك وأنت منهم ، فمن قدم عليك منهم فأكرمه ، ومن غاب فاطلع على خبره ، فإذا دهمك عدو فسر بهم ، فإذا ظفرت فردهم إلى بلدهم ، فإذا أقاموا في غير أوطانهم تخلقوا بغير أخلاقهم ، ومن قدم عليك من الحجاز فاستوص به خيرًا ، وانظر يا بني إلى أهل العراق في أمورهم ، فإن سألوك أن تعزل عنهم في كل يوم عاملاً فاعمل ، فإن ذلك أهون من شق العصا على السلطان ، واعلم يا بني أني قد وطأت لك البلاد ، وذللت لك العباد ، ولست أخشى عليك إلا من أربعة رجال ، فإنهم لا يياعونك وينازعونك في هذا الأمر ، أولهم عبد الرحمن بن أبي بكر فإنه صاحب دنيا فمده بدنياه ودعه وما يريد يصير لا لك ولا عليك . والثاني عبد الله بن عمر رضي الله عنه فإنه صاحب قرآن ومحراب ، وقد تخلى عن الدنيا ورغب في الآخرة ولا أظنه ينازعك في هذا الأمر ولا يريده ، والثالث عبد الله بن الزبير سيراوئك مراوغة الثعلب ، ويبحثو لك جثوة الأسد ، فإن حاربك فحاربه ، وإن سالمك فساله ، وإن أشار عليك فاقبل منه مشورته ، والرابع حسين بن علي ، فإن الناس تدعوه حتى يخرج عليك فإن

ظفرت به فاحفظ قرابته من رسول الله .

ومات معاوية فضجت دمشق لموته ، وخرج الضحاك بن قيس وكان صاحب جيشه ومعه أكفانه ، فصعد المنبر خطيباً فقال :

— إن معاوية كان عبداً لله فنصره على عدوه ، وفتح به بلاده ، وقد دعاه إليه فأجابه ، وهذه أكفانه وها نحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ، ثم ننصرف عنه ونحلى بينه وبين ربه ، فمن أحب أن يشاهد فليحضر وقت الظهر .

وأرسل إلى يزيد رسولاً يخبره بهلاك أبيه ، فدخل يزيد داره وقد تملكه حزن شديد ، ولم يخرج إلى الناس إلا بعد ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع خرج أشعث أغبر ، فلم يدروا أيعزونه أم يهثونه ، فتقدم إليه رجل فقال :

— آجرك الله يا أمير المؤمنين على الرزية ، وبارك لك في العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رزيت عظيماً ، فاشكر الله على عطيته ، واصبر على عظيم رزيته . ثم دخل عليه الضحاك بن قيس وقال :

— السلام عليك يا خليفة المسلمين ، أصبحت خليفة ورزيت بخليفة ، وهنيت بالعطية ، وآجرك الله على الرزية .

ودفع إليه بوصية معاوية ، ففضها وقرأها ، فغامت عيناه بالدموع ، ثم بكى أحر بكاء ، وبقي مدة يستعيد هدوءه ، ثم خرج والناس من حوله حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر فقال :

— أيها الناس ، إن معاوية بن أبي سفيان كان عبداً لله استخلفه في الأرض فعاش بعمل ومات بأجل ، ولقد كان محمود الحياة ، مفقود الوفاة ، والآن قد صار إلى ربه ، إن يعذبه فبذنبه ، وإن يغفر له فهو أرحم الراحمين ، وقد وليت هذا الأمر من بعده ، وقد أوصاني بالإحسان إليكم والتجاوز عن سيئكم ، ولست والله معتذراً إليكم .

وكتب إلى ولاته بالأمصار أن يأخذوا البيعة له ، وكتب إلى عامله بالمدينة في صحيفة كأنها أذن فأرة : « أما بعد ، فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله

ابن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة .
وبعث بالصحيفة مع رسول إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عامله على المدينة ،
فلما قرأها ظهر الهم على وجهه ، فراح يقطع الغرفة جيئة وذهوبًا ، وآى
الاضطراب بادية عليه ، وجعل يعث بأصابعه في لحينه ، ويفكر فيما يفعل بعد أن
تلقى رسالة يزيد بهلاك أمير المؤمنين ، وأخذ هؤلاء النفر بالبيعة أخذًا شديدًا ، إنه
ولى المدينة من قبل معاوية ، وقد وقعت بينه وبين مروان بن الحكم مشادة ومشاتمة
فبمن يستعين ، ومن يلتمس الرأى السديد ؟ لم يصبح الأمر أمر يزيد ، بل صار
الأمر أمر بنى أمية جميعًا ، فإنه لو سأل مروان العون لما تأخر مروان .
عظم على الوليد هلاك معاوية وما أمر به من أخذ هؤلاء الرهط بالبيعة ، ففرع
إلى مروان فبعث إليه يطلبه ، فجاء مروان فلما دخل وجلس قرأ الوليد :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة ، أما بعد ،
فإن معاوية كان عبدًا من عباد الله ، أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له ، فعاش
بقدر ، ومات بأجل ، فرحمه الله فقد عاش محمودًا ، ومات بارًا تقيًا والسلام » .
فاسترجع مروان ، وترحم عليه ، وقرأ الوليد كتاب يزيد الذى يأمره فيه بأخذ
ابن الزبير والحسين وابن عمر بالبيعة ، وراح الحزب السفىانى يتدبر أمره فقال
الوليد :

— كيف ترى أن نصنع ؟

فأطرق مروان برهة ثم قال :

— أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعهم إلى البيعة والدخول فى
الطاعة ، فإن فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم ، وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم
قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإنهم إن علموا بموت معاوية وثب كل امرئ منهم فى
جانب وأظهر الخلاف والمنابذة ودعا إلى نفسه ، أما ابن عمر فإنى لا أراه يرى
القتال ، ولا يحب أن يولى على الناس إلا أن يدفع إليه هذا الأمر عفواً .

فنادى الوليد بن عتبة عبيد بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث وطلب منه أن

ينطلق إلى المسجد ليدعو الحسين وابن الزبير ، فخرج الغلام حتى أتى المسجد
فألفاهما جالسين فأتاهما فقال :

— أجييا الأمير يدعوكما .

فالتفت كل من الحسين وابن الزبير إلى الآخر ، وقد بان في وجهه التساؤل ،
فإن الغلام أتاهما في ساعة ما كان الوليد يجلس فيها للناس ، ولا يأتيان في مثلها ،
فالتفت ابن الزبير إلى الغلام وقال :

— انصرف ! الآن نأتيه .

ثم أقبل أحدهما على الآخر ، فقال ابن الزبير للحسين :

— ظن فيم تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها ؟

— قد ظننت ، أرى طاغيتهم قد هلك ، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو .
في الناس الخبر .

وسكت ابن الزبير برهة وقال :

— فما تريد أن تصنع ؟

— أجمع فتياي الساعة ، ثم أمشي إليه ، فإذا بلغت الباب احتبستهم عليه ، ثم
دخلت عليه .

— إني أخافه عليك إذا دخلت .

فقال الحسين في ثقة :

— لا آتيه إلا وأنا على الامتناع قادر .

وجمع الحسين إليه مواليه وأهل بيته ، ثم أقبل يمشى حتى انتهى إلى باب الوليد
وقال لأصحابه :

— إني داخل ، فإن دعوتكم أو سمعتم صوته قد علا فافتحوا على بأجمعكم ،

وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم .

فدخل الحسين فألقى الوليد ومروان جالسين ، فتظاهر بأنه لم يفطن إلى موت

معاوية ، وشاء أن يفهمهما أنه يظن أنهما ما أرسلتا إليه إلا ليصلح بينهما فقال :

- الصلح خير من القطيعة ، أصلح الله ذات بينكما .
- فلم يحيياه في هذا بشيء ، وجاء حتى جلس فأقرأه الوليد الكتاب ، ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة فقال حسين :
- إنا لله وإنا إليه راجعون ، إنها لمصيبة عظيمة ولنا فيها شغل عن البيعة .
- فقال الوليد :
- لا بد من ذلك .
- إن مثلي لا يبايع سرًا . ولا أراك تجتزئ بها مني سرًا دون أن تظهرها على رعوس الناس علانية .
- أجل .
- فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس ، فكان أمرًا واحدًا .
- وكان الوليد رجلاً يحسب العواقب فقال له :
- فانصرف أبا عبد الله واثمتنا غداً مع الناس .
- فلم يستطع مروان عدو بني هاشم أن يكبت عواطفه ، وأن يدارى ما به ، فقال للوليد :
- إن فاتك الثعلب لم تر إلا غبارًا فاحذر أن يخرج حتى يبايعك أو فاضرب عنقه .
- فوثب عند ذلك الحسين وقال :
- يا بن الزرقاء ، أنت تقتلني أم هو ! كذبت والله وأثمت .
- ثم قام من عندهما وانطلق إلى منزله ، فقال مروان للوليد :
- عصيتني وخالفت أمري ، والله لا قدرت على مثلها أبدًا .
- وبخ غيرك يا مروان ، إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني ، والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وإني قتلت حسينا . سبحان الله ، أقتل حسينا أن قال لا أبايع ؟ والله إنني لا أظن امرأ يحاسب

بدم الحسين لخفيف الميزان عند يوم القيامة .

فقال مروان متهمًا :

— فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت .

وذاع خبر موت معاوية في مكة ، وكان ابن عباس في المسجد الحرام جالسًا قد وضع له الخوان وعنده نفر ، فاقترب منه الناس فقالوا :

— أما علمت بهذا الخبر يا ابن عباس ؟

— وما هو ؟

— هلك معاوية .

— ارفع الخوان يا غلام .

وأطرق ابن عباس قليلا ثم قال :

— جبل تزعرع ثم مال بكلكله، أما والله ما كان كمن كان قبله، ولكن يكون بعده مثله . اللهم أنت أوسع لمعاوية منا ومن بنى عمنا لهؤلاء معتبر اشتجرنا بيننا ، فقتل صاحبهم غيرنا ، وقتل صاحبنا غيرهم ، وما أغراهم بنا إلا أنهم لا يجدون مثلنا ، وما أغرانا بهم إلا أنا لا نجد مثلهم ، كما قال القائل : مالك تظلمني !، قال : لا أجد من أظلم غيرك ، والله إن ابنه لخير أهله . أعد طعامك يا غلام .

فجىء بالطعام ، وما رفع الخوان حتى جاء رسول خالد بن الحكم إلى ابن عباس أن انطلق فبايع ، فقال للرسول في تخاذل :

— أقرئ الأمير السلام ، وقل له والله ما بقى في ما تخافون ، فاقض من أمرك ما أنت قاض ، فإذا سهل المشى ، وذهبت حطمة الناس جئتكم ففعلت ما أحببت . ثم أقبل على الناس فقال :

— مهلا معشر قريش أن تقولوا عند موت معاوية ذهب جد بنى أمية وانقطع ملكهم ، ذهب لعمر الله جدهم وبقي ملكهم ، وشرها بقية هي أطول مما مضى . الزموا مجالسكم وأعطوا بيعتكم .

وظلوا يتحدثون حتى جاء رسول خالد ثانية فقال لابن عباس :

(أهل البيت)

— يقول لك الأمير لا بد لك أن تأتينا .
— فإن كان لا بد فلا بد مما لا بد منه . يا نوار علمي ثيابي .
والتفت إلى الرسول وقال :
— وما ينفعكم إتيان رجل إن جلس لم يضركم ؟
وقال له عتبة بن مسعود في إنكار :
— أتبايع ليزيد وهو يشرب الخمر ، ويلهو بالقيان ، ويستهر بالفواحش ؟
— مه ، فأين ما قلت لكم وكم بعده من آت ممن يشرب الخمر وهو شر من
شاربها أنتم إلى بيعته سراع .

٤٦

ودخل الحسين داره يفكر ويدبر أمره ، وأهمه نكره فما يستطيع أن يبايع
ليزيد ، فلو بايع له لأقر الفسق والجور ، وثبت دعائم الظلم والطغيان ، ويمكن
للباطل . وما كان الحسين ليرضى أن يحيد عن الجادة ، وإن كان في ذلك تشريده
وتشريد أهله وهلاك ناصريه .
وراحت الذكريات تترادف في رأسه فتشد من أزره وتقوى من عزمه على
الثورة ضد السلطان الجائر ، فجده العظيم فر بدينه من أتون مكة ، من وجه أبي
سفيان واضطهاده ، وتحصن بالمدينة حتى إذا ما اشتد ساعده محق حزب أبي سفيان
فقضى على الضلالة والكفر وتألق الحق الأبلج ، فلم لا يفر بدينه من وجه يزيد
ويلوذ بمكة حتى إذا ما سنحت له الفرصة انقض على الجور فقوضه ، وسحق
أنصار الرذيلة والفجور ؟

وبيت النية على الخروج إلى مكة ، وكان في مقدوره أن يخرج وحده فيعز
الطلب ويسهل عليه الفرار من وجه أعوان يزيد ، ولكنه خشي أن يخرج وحيداً أن
ينكل عامل يزيد بأهله وهو يعلم حقد بني أمية الموروث لبني هاشم ، فعزم على أن

يخرج بأهله جميعا ليجنبهم اضطهاد الأمويين ، ومعاينة بيعة الضلالة لخليفة مستهتر مثل يزيد .

وخرج إلى أهله يأمرهم بالتأهب للرحيل ، فتأهب أبناؤه وأبناء الحسن وإخوته وجل أهل بيته ومواليه ، وجاء إليه محمد بن الحنفية وقال له :
— يا أخى ! أنت أحب الناس إلى ، وأعزهم على ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك ، تنح بتبعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت ثم ابعث رسلك إلى الناس ، فادعهم إلى نفسك فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك . إني أخاف أن تدخل مصرا من هذه الأمصار وتأتى جماعة من الناس فيختلفون بينهم ، فمنهم طائفة معك وأخرى عليك فيقتلون فتكون لأول الأسنة ، فإذا خير هذه الأمة كلها نفسا وأبا وأما ، أضيعها دما وأذلها أهلا .

رأى الحسين التخاذل قد ران على العصر ، وروح الهزيمة قد شاعت في النفوس ، فقرر أن يحفز الهمم ، وأن يضرب المثل ، وأن يحطم قيود الخنوع فقال :
— فإني ذاهب يا أخى .

— فانزل مكة فإن اطمأنت بك الدار فسييل ذلك ، وإن نبت بك لحقت بالرمال وشعب الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أصوب ما يكون رأيا وأجزمه عملا ، حين تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبدا أشكل منها حين تستدبرها استدبارا .

— يا أخى قد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديدا موقفا .
وتجهز الحسين للخروج ، فدخل قبر الرسول ليودعه قبل الرحيل ، فبان في وجهه الأسى العميق وغامت عيناه بالدموع ، وقال وهو يشرق بعبراته :
— بأى أنت وأمى يا رسول الله ! لقد خرجت من جوارك كرها ، وفرق بينى

وبينك ، وأخذت قهراً أن أبايع يزيد شارب الخمر ، وراكب الفجور ، وإن فعلت كفرت ، وإن أبيت قتلت . فهأنا خارج من جوارك كرهاً ، فعليك السلام منى يا رسول الله .

وسار مطأطئ الرأس منقبض الصدر ، تشيع في نفسه أحاسيس رهبة وحزن ، وتلفت قبل أن يخرج لفتة إلى القبر ، وألقى نظرة أخيرة طويلة كأنما يتزود منه لنهاية العمر فما يدرى أيعود إلى قبر الحبيب ثانية يزوره ، أم يلتقى بصاحب القبر في جنات عرضها السموات والأرض ؟

وهاجر الحسين من مدينة جده ، فخرج منها خائفاً يترقب ، قال : رب نجنى من القوم الظالمين .

وركب الحسين الجادة العظمى ، فخاف عليه أهل بيته خوفاً شديداً ، فما يفعلون إذا ما دهمهم أعوان يزيد ، أيدعون الحسين يقع غنيمة باردة في أيديهم ؟ كلا فما كانوا ليتخلون عنه وإن بادوا عن بكرة أبيهم ، فقد كان الحسين حبيب قلوبهم ، بل كان الروح التي تسرى في أبدانهم ، ولولا حبهم الشديد له وتعلقهم به ما تركوا جميعاً ديارهم الآمنة ليخرجوا معه لا يدرون ما يجتبه لهم الغد من أحداث ، وما قد ينزل بهم من متاعب وأهوال ، واستخفوا بالمخاطر ، وركبوا الصعاب إرضاءً للحسين الحبيب ، وقد خرجوا جميعاً راضى النفوس ، فهم على يقين من أن الحسين ما غضب إلا لله ، وما ثار إلا لإعلاء كلمة الحق .

كانوا جميعاً يخافون عليه فقالوا له :

— لو سلكت الطريق الأفرع لكان أصلح .

فقال :

— أتخافون الطلب ؟.

— أجل .

— أخاف أن أحيد حذر الموت .

إذا المرء لا يحمي بنيه وعرضه وعترته كان اللئيم المسيباً
ومن دون ما ينبغي يزيد بنا غداً نخوض بحار الموت شرقاً ومغرباً
ونضرب ضرباً كالحرقيق مقدماً إذا ما رآه ضغيم فر مهرباً
واستمر منطلقاً حتى قابل عبد الله بن مطيع القرشي فقال له عبد الله :
— جعلت فداك ، إني أنصحك إذا دخلت مكة فلا تبرحن منها ، فهي حرم الله
والأمان للناس ، فأقم فيها ، وتألف أهلها ، وخذ البيعة على كل من دخلها من
الناس ، وعدهم العدل ، وارفع الجور عنهم ، وأقم فيها خطباء تخطب وتذكر على
المنابر شرفك وتشرح فضلك ، ويخبرونهم بأن جدك رسول الله ﷺ وآله ، وأباك
علي بن أبي طالب ، وأنتك أولى بهذا الأمر من غيرك ، وإياك أن تذكر الكوفة فإنها
بلد مشئوم قُتل فيها أبوك ، ولا تبرح من حرم الله تعالى فإن معك أهل الحجاز واليمن
كلها ، وسيقدم إليك الناس من الآفاق وينصرفون إلى أمصارهم ، وادعهم إلى
بيعتك ، فاقبل نصيحتي وسر مسدداً ، فوالله إن فعلت لترشدن .
— جزاك الله عني كل خير ، فإني قابل نصيحتك .
ومضى حتى إذا ما لاحت له أرض مكة ، نظر إلى السماء وقال في ابتهاج :
— اللهم خذ لي بحقي ، وقر عيني ، رب اهدني سواء السبيل .
وهبط الحسين مكة ، البلدة التي يأمن فيها الطير مستجيراً بحرم الله ممن يريدون
أخذه بالشدة لمبايعة يزيد ، وبقي عاكفاً بأمر القرى لا يدعو الناس إلى بيعته ، فما
هاجر طلباً للسلطان بل هاجر فراراً من الظلم والطغيان ، فما كان ليرضى أن يمايئ
في دينه ، وما كان ليقبل أن يبايع لمثل يزيد ليتحكم في رقاب المسلمين .
وذاع في مكة أن الحسين لم يبايع ليزيد ، وانتشر في الأمصار أن ابن بنت رسول
الله ﷺ لائذ بيئت الله الحرام ممن يريدون أن يرغموه على البيعة كرهاً ، فمالت قلوب
الناس إليه ، وبذرت في الصدور بذور المقت لبني أمية وأعدائهم .

* * *

وبلغ أهل الكوفة وفاة معاوية ، وامتناع الحسين من البيعة ، فامتنعوا عن مبايعة

يزيد ، وتذكر سليمان بن صرد ما قاله الحسين له لما بايع الحسن لمعاوية : « ليكن كل رجل منهم جلسا من أحلاس بيته ما دام معاوية حيا ، فإنها بيعة كنت والله لها كارها ، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم » . وها قد هلك معاوية ، فليكتبوا إلى الحسين يدعونه ، واجتمع رجال عند سليمان فقالوا :

— نكتب إلى الحسين .

فقال لهم سليمان :

— يا معشر الناس ، إن معاوية قد هلك ، وقد امتنع الحسين من البيعة ونحن شيعة وأنصاره ، فإن كنتم تعلمون أنكم تنصرونه وتجاهدون بين يديه فافعلوا ، وإن خفتم الوهن والتخاذل فلا تغروا الرجل .

— بل نقاتل عدوه .

— اكتبوا على اسم الله .

فكتبوا إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى الحسين بن علي بن أبي طالب من سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة ، ورفاعة بن شداد البجلي ، وحبيب بن مظاهر الأسدي ومن معه من المسلمين ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ، فإنما نحمد الله الذي لا إله إلا هو ، ونصلي على محمد وآل محمد ، واعلم يا ابن محمد المصطفى وابن علي المرتضى ، أن ليس لنا إمام غيرك ، فاقدم إلينا ، لنا ما لك وعليك ما علينا ، فلعل الله أن يجمعنا بك على الحق والهدى واعلم أنك تقدم على جنود مجندة ، وأنهار متدفقة ، وعيون جارية ، فإن لم تقدم على ذلك فابعث إلينا أحدا من أهل بيتك يحكم بيننا بحكم الله تعالى ، وسنة جدك رسول الله ، واعلم أن النعمان بن بشير في قصر الإمارة ولسنا نشهد معه جمعة ولا جماعة ، ولو أنك أقبلت إلينا لكنا أخرجناه إلى الشام والسلام » .

وبعثوا الكتاب مع رسولين فخرجا مسرعين حتى قدما على الحسين ومعهما خمسون صحيفة ، وما انقضى يومان حتى وصل إليه كتاب آخر فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى الحسين بن عليّ بن أبي طالب . أما بعد ، فإنه لا
إمام غيرك لنا ، يا ابن رسول الله العجل العجل » .
وما انقضى يومان آخران حتى بلغه آخر فيه :
« بسم الله الرحمن الرحيم . قد أينعت الثمار ، فاقدم إلينا يا ابن بنت رسول الله
مسرعا » ، وتواترت الكتب إليه فسأل الرسل عن أمر الناس فقالوا :
— إنهم كلهم معك .

وراح الحسين يفكر في أمر هذه الكتب ، إنه خرج من المدينة فرارا من الظلم
والاضطهاد ، وهامهم أهل العراق يدعونه لنصرته ، فلو أنه خرج إليهم لاشتد
ساعده بهم ، ولناوأ الجور وحاربه حتى محقه وأقام دعائم العدل والإنصاف .
هاهم أهل العراق يدعونه فحق عليه أن يلبي دعوتهم ، فهم يدعونه إلى رشاد ،
وله في رسول الله أسوة ، فما دعاه أهل يثرب حتى لبي الدعوة وخرج إليهم وانتصر
بهم على الباطل والضلال . ما كان للحسين أن يحجم وهو رجل الإقدام ، فكتب
إليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من الحسين بن عليّ إلى الملائكة المؤمنين ، أما بعد
فإن هانئا وسعيدا قدما إليّ بكتبكم ، وكنا آخر من قدما إليّ من رسلكم ، وقد
فهمت ما ذكرتموه أنه ليس لكم إمام غيري ، وتسألوني القدوم إليكم ، لعل الله
يجمعكم على الحق والهدى ، وإني باعث إليكم أخى وابن عمى المفضل عندي
من أهل بيتي مسلم بن عقيل ، وقد أمرته أن يكتب إلي بحسن رأيكم وما أنتم
عليه ، وأنا أقدم إليكم إن شاء الله » .

ودعا الحسين بمسلم بن عقيل ، وأمره بتقوى الله واللطف بالناس ، فإن رأى
الناس مجتمعين على رأيه يعجل له بالخبر ، ودعا بدليلين يدلانه على الطريق .

* * *

وخرج مسلم والدليلان وأغذوا في السير فدخلوا المدينة وصلوا بمسجد
الرسول ثم انطلقوا إلى العراق ، فلما توغلوا في المسالك ، ضل الدليلان ونفد الماء

فأصابهم عطش شديد وأحسوا جفافاً في حلوقهم ، وأخذوا يترنحون ويبحثون عن ماء وقد زاغت الأبصار ، وحل بهم إعياء شديد ، فسقط رجل ، ثم سقط آخر ، وظل مسلم يضرب في الطريق وحده حتى بلغ قافلة كانت تمخر عباب الفضاء العريض .

وكتب مسلم إلى الحسين كتاباً يقول فيه :
« أما بعد ، فإنني أخبرك يا بن بنت رسول الله أني قد أتيت مع الدليلين فضلاً عن الطريق ، واشتد العطش بهما فماتا وقد تطيرت من وجهي هذا ، فإن أردت أن تعفيني وتبعث غيري فافعل » .

ووصل الكتاب إلى الحسين فكتب جوابه :
« باسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل ، إذا قرأت كتابي هذا فامض على ما أمرتك والسلام » .

٤٧

جثم سواد الليل على الكوفة ، فأوى الناس إلى دورهم ، وأقفر الطرق ، فانسلم مسلم في جنح الليل إلى دار سليمان بن صرد وبات بها حتى إذا ما انفلق عمود الصبح همس أنصار الحسين بأن مسلماً قد حضر ، فهرع الناس إليه ، فأقرأهم كتاب الحسين ، فانهمرت الدموع وجعلوا يتحبون ثم قام رجل فقال :
— إنني لست أعلم ما في قلوب الناس ، ولكن أخبرك بما في نفسي ، إذا دعوتوني أجبتكم ، وأضرب بسيفي عدوكم حتى ألقى الله عز وجل .
فقام رجل آخر فقال له :

— يرحمك الله ، فقد قضيت ما عليك ، وأنا والله على مثل ذلك .
وتدفق أهل الكوفة على دار سليمان بن صرد وجعلوا يبايعون مسلماً حتى بايعه ثمانون ألف رجل .

ورأى رجل من أنصار يزيد تدفق الناس على دار سليمان فهرع إلى النعمان بن بشير وإلى الكوفة وقال له :

— إنك ضعيف أو متضعف ، قد أفسد البلاد .

فقال له النعمان :

— أن أكون ضعيفاً وأنا في طاعة الله أحب إلى من أن أكون قويا في معصية الله ، وما كنت لأهتك سترا ستره الله .

وخرج النعمان وصلى بالناس ثم قال :

— معاشر الناس ! إني والله لا أقاتل من لا يقاتلني ، ولا أتحرش بمن لا يتحرش بي ، فاحذروا الفتنة ، وشق العصا على السلاطين ، فإن صح ذلك عندي على أحد منكم لأضربن عنقه ولو لم يكن لي ناصر ولا معين .

فلم يرق ذلك القول لنصير يزيد فقام إليه فقال :

— أيها الأمير ، إن هذا الأمر لا يكون إلا بالغشم والقهر وسفك الدماء ، وهذا الذي تكلمت به كلام المستضعفين .

— أكون من المستضعفين في ذات الله ولا أكون من الظالمين .

فخرج نصير يزيد ثائراً ، ثم كتب إليه :

— « من عبد الله بن شعبة الحضرمي إلى يزيد بن معاوية . أما بعد ، فإن مسلم ابن عقيل ورد الكوفة ، وقد بايعه شيعة الحسين . فإن كان لك في الكوفة حاجة فأنفذ إليها رجلاً قويا ، فإن النعمان ضعيف ويتضاعف » .

وانطلق رسول ابن شعبة بأول كتاب يدعو يزيد إلى حرب الحسين .

قرأ يزيد الكتاب فاربذ وجهه ، ودعا مولى له يقال له سرجون وقال :

— ما تنظر الحسين كيف أرسل ابن عمه إلى الكوفة يبايعهم ! وبلغني أن

النعمان ضعيف فيهم ، فما عندك من الرأي ؟

— أكنت قابلاً من معاوية لو كان حياً ؟

— نعم .

— فاقبل منى ، فليس للكوفة إلا عبيد الله بن زياد فولها إياه .

وأطرق يزيد قليلا فقد كان ساخطاً على ابن زياد وكان قد هم بعزله عن البصرة ، ولكنه لم يجد في أهله من هو أنكى لبنى هاشم منه ، فإن ابن مرجانة يحقد على الهاشميين أشد الحقد ، ويغضهم بغضاً لا يجد ، فما من أحد لهذه الثورة غيره ، فقلبه قد من صخر ، فكتب يزيد :

« من يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد : أما بعد ، فقد بلغنى أن أهل الكوفة قد اجتمعوا على البيعة للحسين ، وقد كتبت إليك كتاباً ، فإنى لا أجد سهماً أرمى به عدوى أجراً منك ، فإذا قرأت كتابى فارتحل من وقتك وساعتك ، وإياك والتوانى . واجتهد ولا تبق من نسل على بن أبى طالب أحدًا ، واطلب مسلم بن عقيل فاقتله وابعث إلى برأسه والسلام » .

وتأهب عبيد الله بن زياد للخروج إلى الكوفة ، فجاءه المنذر بن الجارود ، وكانت ابنته تحت ابن زياد ، وفي رفقته رجل مغول اليدى فقال ابن زياد :

— من هذا ؟

— رسول الحسين إلى أشراف البصرة يدعوهم إلى نصرته .

ودفع بالكتاب إلى عبيد الله بن زياد فقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الحسين بن على . أما بعد ، فإن الله اصطفى محمداً على جميع خلقه . وأكرمه بنبوته ، وحباه برسالته ، ثم قبضه إليه مكرماً . وقد نصح العباد وبلغ رسالات ربه ، وكان أهله وأصفياءه أحق بمقامه من بعده ؛ وقد تأمر علينا قوم فسلمنا ورضينا كراهة الفتنة وطلب العافية . وقد بعثت إليكم بكتابى هذا ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، فإن سمعتم قولى واتبعتم أمرى أهدكم إلى سبيل الرشاد . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وغضب ابن زياد ، فأمر بالرسول فضربت عنقه ، فكان أول رسول قُتل فى الإسلام ، وما كان هذا أول منكر أتاه ابن زياد ولا آخر حكم جائر للوالى الفظ

الغليظ القلب .

خرج عبد الله بن زياد إلى المسجد فصعد المنبر فقال :

— يا أهل البصرة ، إن يزيد قد ولاني الكوفة ، وقد عزمت على المسير إليها ،
وقد استخلفت عليكم أخى عثمان بن زياد ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإياكم
والأراجيف ، فوالله إن بلغنى أن رجلا منكم خالف أمره لأقتله ولأخذن الأذى
بالأقصى حتى تستقيموا .

ثم خرج يريد الكوفة ومعه عشيرته ومواليه وأشراف أهل البصرة .

* * *

جلس الحسين فى الكعبة ، وجاءه ابن الزبير فساره ، وتطلع الناس إليهما ،
فلما انتهى ابن الزبير من حديثه ، التفت الحسين إلى الناس وقال :

— أتدرون ما يقول ابن الزبير ؟

— لا ندرى جعلنا الله فداك .

— قال : أقم فى هذا المسجد أجمع لك الناس .

ثم صمت الحسين قليلا وقال :

— والله لأن أقتل خارجا منها بشير أحب إليّ من أن أقتل داخلا منها بشير ،
وأيم الله لو كنت فى جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجونى حتى يقضوا فىّ
حاجتهم ، والله ليعتدن علىّ كما اعتدت اليهود فى السبت .

وكتب مسلم بن عقيل للحسين أن الناس معه ، فتأهب الحسين للخروج
بأهله ومواليه إلى العراق ، وذاع نأ ذلك التأهب فى مكة ، فأشفق المشفقون من
ذلك الخروج وجاء رجل إلى الحسين وقال :

— إني جئتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنت ترى أنى ناصح
قلتها لك وأدبت ما يجب على من الحق فيها ، وإن ظننت أنى غير ناصح كففت
عما أريد قوله لك .

— قل .

— بلغنى أنك تريد العراق وإنى مشفق عليك أن تأتى بلدًا فيه عمال يزيد
وأمرأؤه ومعهم بيوت المال ، وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار ، فلا آمن عليك
من أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه من يقاتلك معه ، وذلك عند
البذل وطمع الدنيا .

— جزاك الله خيرًا من ناصح ، لقد مشيت يابن عم بنصح وتكلمت بعقل ولم
تنطق عن الهوى ، ولكن مهما يكن من أمر أخذت برأيك أم تركت مع أنك
عندى أحمد مشير وأعز ناصح .

وجاء عبد الله بن عباس إلى الحسين وقال :

— يابن عم ، إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق فبين لى ما أنت
صانع .

— إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين إن شاء الله تعالى .

فقال ابن عباس فى التبايع :

— فإنى أعيذك بالله من ذلك ، أخبرنى رحمك الله أتسير إلى قوم قد قتلوا
أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ،
وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ،
فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك
ويخالفوك ويخذلوك وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك .
— وإنى أستخير الناس وأنظر ما يكون .

وعلم ابن الزبير بعزم الحسين على الخروج فأحس غبطة فقد كان على يقين
من أن الناس فى الحجاز لا يعدلون بالحسين أحدًا ، فإذا خرج الحسين خلى له
الحجاز فدعا الناس لبيعته ، ورأى أن يدخل على الحسين يزين له الخروج فأتاه
وقال له :

— ما أدرى ما تركنا هؤلاء القوم وكفنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين
وولاة هذا الأمر دونهم . خبرنى ما تريد أن تصنع ؟

— والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة ولقد كتب إلى شيعتي بها وأشراف أهلها وأستخير الله .

— أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها .

ثم خشي أن يتهمه فقال :

— أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ههنا ما خولف عليك إن شاء الله .

وتم كل شيء ولم يبق إلا الرحيل ، فأقى الحسين عبد الله بن عباس فقال في يأس :

— يا بن عم إني أتصبر ولا أصبر ، أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال ، إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربهم . أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعه ، وأنت عن الناس في عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعائك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية .

— يا بن عم ، إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق ، ولكني قد أزمعت وأجمعت على المسير .

— فإن كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيتك فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه .

وساد الصمت بينهما ثم قال ابن عباس :

— لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز والخروج منها ، وهو يوم لا ينظر إليه أحد معك ، والله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك لو أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع على وعليك الناس أطعنتي لفعلت ذلك .

ثم خرج ابن عباس من عنده فمر بعبد الله بن الزبير فقال له :

— قرت عينك يا بن الزبير .

وسار ركب الحسين ليخرج من مكة فاعترضه رسل عمرو بن سعيد وقالوا
للحسين :

— انصرف ، أين تذهب ؟

فأبى عليهم ومضى ، وتدافع الفريقان فاضطربوا بالسياط ومضى الحسين على
وجهه فنادوه :

— يا حسين ، ألا تتقى الله ، تخرج من الجماعة وتفرق بين هذه الأمة ؟

— « لى عملى ، ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما
تعملون » .

وفى الطريق لقيه الفرزدق ، فنزل وسلم على الحسين وقال له :

— أعطاك الله سؤالك ، وبلغك مأمولك ، فى جميع ما تحب .

— من أين أقبلت يا أبا فراس ؟

— الكوفة .

— بين لي خبر الناس .

— أجل ، على الخبر سقطت ، يا بن رسول الله ﷺ ، قلوب الناس معك ،
وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء ، وربنا كل
يوم هو فى شأن .

— صدقت ، الأمر لله يفعل ما يشاء ، والله سبحانه كل يوم هو فى شأن .

وسار الحسين حتى انتهى إلى ماء قريب من الحاجز فإذا هو بعبد الله بن مطيع
نازل على الماء ، فتلاقى هو وإياه فتسالما واعتنقا وقال له :

— ما جاء بك يا بن رسول الله ﷺ ؟

— أقصد الكوفة .

— ألم أتقدم إليك بالقول ؟! ألم أنهك عن المسير إلى هذا الوجه . اذكر الله

تعالى فى حرمة الإسلام أن تنتهك ، أنشدك الله تعالى فى حرمة قريش وذمة

العرب ، والله لعن طلبت ما في يد بنى أمية ليقتلنك ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك
أحدًا أبدًا ، والله إنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب ، فאלله الله لا
تفعل ولا تأت الكوفة ، ولا تعرض نفسك لبنى أمية .
ولم يلتفت الحسين إلى كلام ابن مطيع فقد عزم على أمر لن يثنيه عنه شيء ،
فانطلق قدما .

وكتب عبد الله بن جعفر إلى الحسين مع ابنه عون ومحمد : « أما بعد ، فإنني
أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي ، فإنني مشفق عليك من الوجه الذي
توجه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، إن هلك اليوم طفئ نور
الأرض ، فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير فإنني في أثر
الكتاب والسلام » .

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد وإلى يزيد على مكة فكلمه وقال
له :

— اكتب إلى الحسين كتابا تجعل له فيه الأمان ، وتمنيه فيه البر والصلة ،
وتوثق له في كتابك وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن إلى ذلك .
فقال عمرو بن سعيد :

— اكتب ما شئت وائتني به حتى أختمه .
فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له :
— اختمه وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أحرى أن تطمئن نفسه
إليه ويعلم أنه الجدد منك .

وخرج عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد في أثر الحسين ، ولما بلغاه دفعا إليه
بكتاب عمرو بن سعيد فنشره وقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي ، أما
بعد فإنني أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك ، وأن يهديك لما يرشدك ، بلغني أنك
توجهت إلى العراق ، وإنني أعيدك بالله من الشقاق ، فإنني أخاف عليك فيه

الهلاك ، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد فأقبل إليّ معهما ،
فإن لك عندى الأمان والصلة والبر وحسن الجوار لك ، الله علىّ بذلك شهيد
وكفيل ومراع ووكيل والسلام عليك .

فالتفت الحسين إليهما وقال فى حزم :
— إني رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ ، وأمرت فيها بأمر أنا ماض له ، على
كان أولى .

— فما تلك الرؤيا ؟

— ما حدثت أحدا بها ، وما أنا محدث بها حتى ألقى ربي .
وسار الحسين حتى دخل المدينة ، فأتى قبر رسول الله ﷺ يزوره قبل خروجه ،
فأحس غصة فى حلقه ، وجرى دمه غزيرا حتى بل لحيته ، ثم خرج بعد أن ودع
جده العظيم ودخل إلى أخيه محمد بن الحنفية وقال له :

— يا أخى ، إني راحل إلى العراق .

— ناشدتك الله يا أخى أن لا تسير إلى قوم قتلوا أباك ، وغدروا بأخيك ، فأقم
عند حرم جدك وإلا فارجع إلى حرم الله فإن لك فيه أعوانا كثيرة .
— لا بد من المسير إلى العراق .

— إنه ليفجعنى ذلك .

ثم بكى وقال :

— والله يا أخى لا أقدر أقبض قائم سيفى ، ولا كعب رمى ، ثم لا فرحت
بعدك أبدا .

وخرج الحسين ومحمد بن الحنفية يرقبه بعيون تترقرق فيها الدموع ثم
غمغم :

— أستودعك الله من شهيد مظلوم .

وانطلق الحسين وهو على يقين من أنه سيقوض دعائم الظلم ظافرا أو مقتولا .

كان أهل الكوفة يرقبون قدوم الحسين عليه السلام ، وصلى الناس الجمعة وانصرفوا من الصلاة ، فرأوا ركبا قادما يتوسطه رجل على بغلة شهباء ، عليه ثياب بيض ، وعمامة سوداء ، مثلثا وبيده قضيب من خيزران ، فهرعوا إليه فسلم عليهم بقضيبه فقالوا له :

— قدمت خير مقدم يا ابن بنت رسول الله .

وصار لا يمر بملا من الناس إلا ويسلم عليهم وهم يردون التحية مستبشرين فرحين ، وانطلق الناس خلفه حتى إذا اقترب من قصر الإمارة ، التفت مسلم بن عمر الباهلي إليهم وقال لهم :

— تأخروا يا ويلكم عن وجه الأمير فليس هو ظنكم وطلبتكم .

وسمع النعمان ضوضاء الناس فأشرف من أعلى القصر ، وأسفر الراكب عن وجهه فامتعض الناس ، ولاح على الوجوه خيبة الأمل ، فقد كان الرجل عبيد الله بن زياد ولم يكن الحسين المنتظر ، وتطلع عبيد الله إلى النعمان وقال :

— يا نعمان ، حصنت قصرك وتركت مصرك .

وفتح نعمان القصر فدخل ابن زياد وأهله ، ثم قال ابن زياد :

— يا نعمان ، ناد في الناس للصلاة جامعة .

فنأدى فاجتمع خلق كثير فصعد المنبر وقال :

— أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأني أعرفه بنفسى ، أنا عبيد الله بن زياد وقد ولاني مصركم هذا يزيد ، وأمرني بالإنصاف للمظلوم وإعطاء المحروم ، والإحسان إلى مسيئكم ، وأنا متبع فيكم أمره .

ثم نزل عن المنبر وأمر أن ينادى في قبائل العرب أن اثبتوا على بيعة يزيد من قبل

(أهل البيت)

أن يبعث إليكم من الشام رجالا يقتلون رجالكم ويسبون نساءكم ، فجعل أهل الكوفة ينظر بعضهم بعضا ويقولون :

— مالنا والدخول بين السلاطين .

وأصبح مسلم بن عقيل موعوكا فلم يخرج للصلاة ، فلما كان وقت الظهر خرج إلى المسجد فأذن وقام فلم يأت أحد ، فصل وحده . فلما فرغ من صلاته إذا هو بغلام فقال له :

— يا غلام ، ما فعل أهل هذا المصر ؟

— إنهم نقضوا بيعه الحسين وبايعوا يزيد . .

فلما سمع كلام الغلام صفق يدا على يد ، وخرج يخرق الشوارع حتى بلغ محلة بنى خزيمة ، فوقف هناك بإزاء بيت شاهق ، فخرجت من ذلك البيت جارية ، فقال لها :

— لمن هذه الدار ؟

— هانيء بن عروة .

— ادخلي عليه وقولي له رجل بالباب ، فإن سألك عن اسمي قولي له إنه مسلم ابن عقيل .

فغابت الجارية قليلا ثم خرجت تقول له :

— ادخل يا سيدى .

دخل مسلم فألقى هاتئا عليلا ، ونهض هانيء ليعتقه فلم يقدر ، وجلسا يتحدثان حتى أتى حديثهما إلى عبيد الله بن زياد ، فأظهر مسلم كرها لوفوده فقال هانيء :

— سيبلغه مرضى ، وربما يأتي يعودنى ، فإذا جاء فخذ هذا السيف وادخل الخدع ، فإذا جلس فدونك فاقتله ، واحذر أن يفوتك ، فإن فاتك قتلك وقتلنى ، والعلامة بينى وبينك إذا قلعت عمامتى عن رأسى وأضعها على الأرض . فإذا رأيت ذلك فاخرج عليه واقتله .

— أفعل .

وأرسل هانيء إلى ابن زياد يستجفيه ، فأرسل إليه معتذرا وقال :

— ما علمت بعلتك ، وإنى رائح إليك العشية .

فلما صلى ابن زياد صلاة العشاء أقبل يعود هانئا ومعه حاجبه ، فقيل لهانيء :

— ابن زياد بالباب يريد الدخول عليك .

فقال هانيء لجاريتته :

— ادفعي السيف لمسلم .

جاء ابن زياد وجلس إلى جانبه وحاجبه قائم على رأسه ، فجعل يحادثه ويسأله عن حاله وهانيء يشكو الذي يجده ، وخلع عمامته ووضعها على الأرض ثم وضعها على رأسه ولم يزل يفعل ذلك ومسلم لم يخرج وقام ابن زياد ، فخرج مسلم فقال له هانيء :

— من الذي منعك من قتله ؟

— منعني خبر سمعته عن رسول الله قال : الإيمان ضد الفتك ، لا يفتك مؤمن .

— لو قتلته لقتلت كافرا .

وبلغ ابن زياد قصر الإمارة ، فدعا مولى له يقال له معقل فأعطاه ثلاثة آلاف درهم وقال له :

— خذ هذه الدراهم واسأل عن مسلم بن عقيل وأعطيها له ، وقل له استعن بها على عدوك ، وأظهر له الإخلاص وأتني بخبره .

— فأخذ معقل الدراهم وجعل يدور في الكوفة حتى أرشدوه إلى رجل من أنصار الحسين فأتاه وهو يصلي فانتظره حتى إذا ما فرغ من صلاته قام إليه واعتنقه وأظهر له الإخلاص وقال له :

— يا أبا عبد الله ، أعلم أني رجل شامي وقد أنعم الله على بحب أهل البيت ومعى ثلاثة آلاف درهم وقد أحببت أن ألقى الرجل الذي يبايع الناس لابن بنت رسول الله ، وقد أتيتك لتقبل مني هذه الدراهم وتدخلني على صاحبك فإني ثقة من ثقاته

وعندى كتمان أمره .

— يا أخا العرب ، اعزب عن هذا الكلام ، ما لنا ولأهل البيت وما أصاب الذى
أرشدك إلى .
فقال معقل :

— إذا كنت لم تطمئن إلى فخذ الموائيق والعهود على .
وراح يحلف بأغلظ الأيمان أنه من أنصار الحسين ، فاطمأن الرجل إليه وأدخله
على مسلم . وثق مسلم بمعقل وأخذ عليه البيعة وأخذ المال منه ليشتري به سلاحا ؛
وجعل معقل يتردد على مسلم بن عقيل يأخذ أسرارهم ، فلما استقصى أخباره دخل
على ابن زياد يقص عليه نبأ الذين يتأهبون للانقضاض عليه .
ودعا ابن زياد محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة وعمر بن الحجاج وقال
لهم :

— انطلقوا إلى هانئ وأتوني به .

فانطلقوا فوجدوه جالسا على باب داره فقالوا له :

— يا هانئ إن الأمير يدعوك .

فنهض مع القوم حتى دنا من قصر الإمارة فأحس انقباضا كأنما أحس ببعض
الذى كان ، فأقبل على أسماء بن خارجة فقال :

— يا أخى إني خائف من هذا الرجل ، ونفسي تحدثنى ببعض الذى أجده .

— والله ما نخاف عليك منه ، وأنت بحمد الله برىء ، فلا تجعل على نفسك

سبيلا .

وساروا حتى دخل على ابن زياد فلما رأى هانئ أعرض عنه ولم يكرمه ، فأنكر

هانئ أمره ، فسلم عليه فما رد عليه السلام ، فقال هانئ :

— بماذا ؟ أصلح الله الأمير .

— يا هانئ ، خبيت مسلم بن عقيل وتجمع له الرجال والسلاح وظننت أن ذلك

يخفى على .

- معاذ الله ، ما فعلت من ذلك شيئا .
- الذى جاءنى أصدق منك عندى . يا معقل اخرج إليه وكذبه .
- فخرج معقل فقال فى سخرية :
- مرحبا بك يا هانىء ، أتعرفنى ؟
- نعم ، أعرفك فاجرا كافرا .
- فقال ابن زياد :
- إذا لا تفارقنى أو تأتينى بمسلم .
- والله لو كان تحت قدمى ما رفعها عنه .
- أدنوه منى .
- فأدنوه ، فضربه بحربة على وجهه فشجه على حاجبه وكسر أنفه ، وتناول هانىء سيف شرطى ليسله فدفع عن ذلك ، وقال عبيد الله :
- قد أحل الله لى دمك .
- ثم أمر بحبسه فى جانب الدار ، وجاء قومه من بنى مذحج مع عمرو بن الحجاج فوقفوا على باب القصر يظنون أنه قد قتل ، فسمع عبيد الله لهم جلبة فقد كانوا يتصايحون :
- يا بن زياد تقتل صاحبنا ولم يخلع طاعة ولم يفرق جماعة ؟! يا هانىء إن كنت حيا فكلمنا ، فقد أذاك قومك مذحج يقتلون عدوك .
- فالتفت ابن زياد إلى شريح القاضى وقال له :
- اخرج إليهم وأعلمهم أن أصحابهم حى ، وأن الأمير خبأه لأشياء يسأله عنها . فخرج إليهم وقال لهم :
- صاحبكم جالس مع الأمير يسأله عن أشياء وهذه الساعة يخرج إليكم .
- فاطمأنت الجموع على هانىء وقال الناس :
- الحمد لله على السلامة .
- وسمع مسلم بن عقيل خبر حبس ابن هانىء فركب ونادى بشعاره !!

— يا منصور يا منصور أمت .

فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة ، وكان معه المختار بن أبي عبيد ، ومعه راية خضراء ، وعبد الله بن نوفل بن الحارث براية حمراء ، فرتبهم ميمنة وميسرة وسار هو في القلب إلى عبيد الله .

وأسرع أعوان ابن زياد إليه وقالوا وهم يرتجفون :

— جاء مسلم بن عقيل .

فبادر عبيد الله فدخل القصر ومن معه وأغلقوا عليهم الباب ، فلما انتهى مسلم إلى باب القصر وقف بجيشه هناك ، فأشرف أمراء القبائل الذين عند عبيد الله في القصر ، فأشاروا إلى قومهم الذين مع مسلم بالانصراف ، وتهددوهم وتوعدوهم .

وانسل بعض الأمراء بأمر ابن زياد واندسوا في الناس وجعلوا يخذلونهم عن ابن عقيل ، فجعلت المرأة تجيء إلى ابنها وأخيها تقول له :

— ارجع إلى البيت ، الناس يكفونك .

ويقول الرجل لابنه وأخيه .

— كأنك غدا بجنود الشام قد أقبلت ، فماذا تصنع معهم ؟!

فراح الناس ينصرفون عن مسلم بن عقيل ، وأخذ جيشه يتقلص حتى لم يبق إلا في خمسمائة نفس ، ثم تقالوا حتى بقى في ثلاثمائة ، ثم تقالوا حتى بقى معه ثلاثون رجلا . فصلى بهم المغرب وقصد أبواب كندة فخرج منها في عشرة .

وفي جوف الظلام انصرف العشرة فبقى وحده ليس معه من يده على الطريق ولا من يؤانسه بنفسه ، ولا من يأويه إلى منزله ، فذهب على وجهه واختلط الظلام وهو وحده يتردد في الطريق لا يدرى أين يذهب .

هام مسلم بن عقيل في وجهه ، وجعل يبحث عن مخبأ يلجأ إليه ، فلم يهتد إلى مكان أمين ، فأعوانه قد تخلوا عنه . وأنصار الحسين بايعوا يزيد ، وأحس عطشاً فاقترب من دار من الدور الممتدة على طول الطريق ، فرأى امرأة قائمة بالباب تنتظر أوبة ابنها الذي خرج مع الناس ، فاقترب منها وقال لها :

— أسقني ماء .

فدخلت المرأة دارها ثم عادت فسقته ، ودخلت لتعيد الإناء ثم أقبلت تنتظر أوبة ابنها فوجدته لا زال واقفاً أمام بابها ، فقالت :

— ألم تشرب ؟!

— بلى .

— فاذهب إلى أهلك عافاك الله ، فإنه لا يصلح لك الجلوس على بابي ولا أجمله لك .

— يا أمة الله ، ليس لي في هذا البلد منزل ولا عشيرة ، فهل إلى أجر ومعروف وفعل نكافئك به بعد اليوم ؟

— يا عبد الله وما هو ؟

— أنا مسلم بن عقيل ، كذبنى هؤلاء القوم وغروني .

— أنت مسلم ؟

— نعم .

— ادخل .

فأدخلته دارها وخبأته في مخدع خاص وراحت تعد له العشاء ، وأدخلته له فلم يتعش ، وعاد ابنها فرآها تكثر الدخول والخروج على ذلك المخدع فأنكر حالها فقال

لها :

— يا أماء ما أكثر دخولك وخروجك إلى هذا المخدع .

— أعرض عن هذا .

— أخبريني .

— لا .

— أخبريني وإلا اقتحمت هذا المخدع .

— يا ولدى وآخذ عليك عهد الله أنك لا تفشى هذا الأمر ؟

— نعم !

— أقسم .

— أعاهد الله أن لا أبيع السر .

— يا ولدى ، هذا مسلم بن عقيل المغرور المخدول قد أخبته إلى أن يسكن عنه

الطلب ، وإياك يا ولدى أن تخون الأمانة .

بات الشاب تلك الليلة يفكر في أمر مسلم بن عقيل ، وجعلت نفسه توسوس

له أن ينكث بعهدده ، وأن يفشى السر لابن زياد ، ففى ذلك رضا الأمير وإقبال

الدنيا ، واستمرت نفسه تمنيه وتزين له الخيانة حتى إذا ما لاح الخيط الأبيض في

الأفق الشرقى هب من نومه وترك داره وانطلق إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

فأعلمه أن مسلم بن عقيل في دارهم .

وكأنما كان بين آل الأشعث وآل طالب عداوة قديمة ، فالأشعث خذل الناس

عن الإمام يوم صفين ، وجعدة بنت الأشعث سمت الحسن ، وعبد الرحمن بن

محمد بن الأشعث انطلق إلى دار الإمارة ليرشد أعداء أهل البيت إلى مخبأ مسلم بن

عقيل بن أبي طالب .

انطلق عبد الرحمن إلى دار الإمارة فدخل على أبيه وهو عند ابن زياد ، فساره

فقال ابن زياد :

— ما الذى سارك به ؟

— أخبرني بمخبأ مسلم بن عقيل .

فنخس بقضيب في جنبه وقال :

— قم فأتني به الساعة .

وبعث ابن زياد صاحب شرطته ومعه عبد الرحمن ومحمد بن الأشعث في سبعين فارساً ، وسمع مسلم صهيل الخيل وقعقة اللجم ، وزعقات الرجال ، فغمغم :

— ما طلب القوم غيري .

وأطل على القوم فرآهم قد أحاطوا بالدار ، فالتفت إلى المرأة وقال :

— هاتي سيفي .

وقام وشد وسطه بمنطقته وتدرع بدرعه وخرج إلى القوم وهو يهز سيفه ، فقالت له المرأة :

— يا سيدى .. أراك تأهبت للموت !

— والله أجل ، لا بد من الموت .

وخرج إلى القوم وكر عليهم ، وقتلهم قتال من يعلم قرب نهايته ، وكان مسلم بطلاً من صناديد بني هاشم فجذل منهم رجلاً ففروا مذعورين من الدار ، ولكنهم عادوا إليه بقلوب واجفة فهجم عليهم بقلب يائس ، وجدل منهم رجلاً فخرجوا من الدار مذعورين ، ثم عادوا إليه يهاجمونه فكر عليهم وقد كثر عن أنيابه وأطل من سيفه المنون ؛ فخرجوا من الدار مذعورين ، ورأوا أنه سيفنيهم إذا عادوا إلى مهاجمة ذلك الليث الكاسر ، فرأوا أن يخذعوه ، فصاح عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث :

— يا مسلم بن عقيل لك الأمان .

كان مسلم من بيت إذا عاهد أوفى ؛ فما كان يدرى أن النكث أصبح طابع العصر ، وإن رأى وعاین نكث الجماهير لعهودهم ، ومكابדתه من خذلانهم . وكان مسلم قد أعياه التعب ؛ فأمكن عبد الرحمن من يده ، فجاءوا ببغلة فأركبوه عليها وسلبوا عنه سيفه ، فلم يبق يملك من نفسه شيئاً ، وأطرق يفكر فتذكر

شيئاً ، فبكى وغمغم :
— إنا لله وإنا إليه راجعون .
فحسب بعض من حوله أن يبكى فرقاً من الموت ، فقالوا له في سخرية :
— إن من يطلب مثل الذى تطلب لا يبكى إذا نزل به هذا .
— أما والله لست أبكى على نفسى ولكن أبكى على الحسين ، وآل الحسين . إنه
قد خرج إليكم اليوم أو أمس من مكة .
ثم التفت إلى محمد بن الأشعث فقال :
— إن استطعت أن تبعث إلى الحسين على لسانى تأمره بالرجوع فافعل .
وانطلق مسلم إلى دار الإمارة وهو مشخن بالجراح ، مخضب بالدماء فى وجهه
وثيابه ، وهو فى غاية العطش ، وإذا قلة من ماء بارد هنالك ، فأراد أن يتناولها
ليشرب منها ، فقال له رجل من الرجال الواقفين بباب ابن زياد :
— والله لا تشرب منها حتى تشرب من الحميم .
— ويلك يا ابن ناهلة ! أنت أولى بالحميم والخلود فى نار الجحيم منى .
ثم جلس فتساند إلى الحائط من التعب والكلال والبطش ، فبعث رجل مولى له
إلى داره فجاء بقلة عليها منديل ومعه قدح ، فجعل يفرغ له فى القدح ويعطيه
فيشرب فلا يستطيع أن يسيغه من كثرة الدماء التى تعلو على الماء مرتين أو ثلاثاً .
فلما شرب سقطت ثنياه مع الماء فقال :
— الحمد لله لقد كان بقى لى من الرزق المقسوم شربة ماء .
وأدخل على ابن زياد . فلما رأى مسلم تجبره قال :
— السلام على من اتبع الهدى ، وخشى عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .
فتبسم ابن زياد فقال بعض حجابه :
— يا مسلم أما ترى الأمير ضاحكاً عليك . لو قلت السلام عليك أيها الأمير !
— والله ما علمت أن لى أميراً غير الحسين ، وإنما يسلم عليه بالإمارة من يخاف
منه .

— إيه يابن عقيل ، أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشتتهم وتفرق
كلمتهم وتحمل بعضهم على قتل بعض ؟
— كلا لست لذلك أتيت ، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم
وسفك دماءهم ، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر ، فأتيناهم لنأمر بالعدل
وندعو إلى حكم الكتاب .
— وما أنت وذاك يا فاسق ؟ لم لا كنت تعمل بذلك فيهم إذا أنت بالمدينة تشرب
الخمير ؟!

— أنا أشرب الخمير ! والله إن الله ليعلم أنك غير صادق ، وأنت قلت بغير
علم ، وأنت أحق بذلك مني ، فإني لست كما ذكرت ، وإن أولى بها مني من يبلغ في
دماء المسلمين ولعًا ، ويقتل النفس التي حرم الله بغير نفس ، ويقتل على الغضب
والظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئًا .

— يا فاسق ، إن نفسك تمنيك ما حال الله دونك ودونه ، ولم يرك أهله .
— فمن أهله يابن زياد ؟
— أمير المؤمنين يزيد .

— الحمد لله على كل حال ، ورضينا بالله حكمًا بيننا وبينكم .
— كأنك تظن أن لكم في الأمر شيئًا ؟
— لا والله ما هو بالظن ولكنه اليقين .

— قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام من الناس .
— أما إنك أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه ، أما إنك لا تدع سوء
القتلة ، وقبح المثلة ، وخبث السيرة ، ولؤم الغلبة ، ولا أحد من الناس أحق بها
منك .

وأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسينًا وعليًا وعقيلًا وأخذ مسلم لا يكلمه . ثم
قال ابن زياد :

— اصعدوا به فوق القصر فاضربوا عنقه ثم اتبعوا جسده رأسه .

فقال مسلم :

— يابن الأشعث ، أما والله لولا أنك آمنتني لما استسلمت ، قم بسيفك دوني
قد أخفرت ذمتك .

فأطرق ابن الأشعث ولم تنفرج شفتاه بكلمة ، فقال ابن زياد :

— أين الرجل الذي ضرب ابن عقيل رأسه وعاتقه ؟

فذهبوا يدعونه ، فقال مسلم :

— دعني أوصي إلى بعض قومي .

— أوص .

فنظر في جلساء ابن زياد وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص فقال :

— يا عمر ، إن بيني وبينك قرابة ، ولي إليك حاجة ، وهي سرفقم معي إلى

ناحية القصر حتى أقولها لك .

فأبى أن يقوم معه حتى أذن له ابن زياد ، فقام فتنحنى قريباً من ابن زياد فقال له

مسلم :

— إن عليّ ديناً في الكوفة سبعمائة درهم فاقضها عني واستوهب جثتي من ابن

زياد فوارها ، وابعث إلى الحسين ، فإني كنت قد كتبت إليه أن الناس معه ولا أراه

إلا مقبلاً .

فالتفت عمر إلى ابن زياد وقال :

— أتدري ما قال لي ؟

ثم راح يذيع وصية مسلم له فقال له ابن زياد :

— إنه لا يخونك الأمين ، ولكن قد يؤتمن الخائن ، أما مالك فهو لك ولسنا

نمنعك أن تصنع فيه ما أحببت ، وأما حسين فإنه إن لم يردنا لم نرده وإن أرادنا لم

نكف عنه .

فقال عمر بن سعد :

— أما الحسين فلا بد أن يقدم علينا ونذيقه الموت غصة .

فقال ابن زياد لعمر :

— قبحك الله من مستودع سرا ، والله لو أنه باح إلى سره لكتمت عليه
وقضيت حاجته ، ولكن من حيث أفشيت سره فلا يخرج لحرب الحسين غيرك .
وجاء الرجل الذى طلبه ابن زياد فقال له :
— أنت تقتله .

وأصعد مسلم إلى أعلى القصر وهو يكبر ويهلل ، ثم التفت إلى الرجل وقال له :
— دعنى أصل ركعتين ، وافعل ما بدا لك .
— ليس إلى ذلك سبيل .

فقال مسلم :

جزى الله عنا شر ما جزى	شرار الموالى بل أعق وأظلما
هم منعونا حقنا وتظاهروا	علينا وراموا أن نذل ونرغما
أغاروا علينا يسفكون دماءنا	ولم يرقبوا فينا زاماً ولا دما
فنحن بنو المختار لا خلق مثلنا	نبى أبت أركانه أن تهدما

ورفع عينيه إلى السماء وقال :

— اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا .

٥٠

انطلق الحسين وأهله ومواليه ، وكان لا يمر بماء من مياه العرب إلا اتبعوه حتى
إذا بلغ الحاجز من بطن ذى الرمة بعث قيس بن مسهر الصيداوى إلى أهل الكوفة ،
وكتب معه إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن على إلى إخوانه من
المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما
بعد ، فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءنى يخبرنى فيه بحسن رأيكم ، واجتماع ملئكم
على نصرنا ، والطلب بحقنا ، فنسأل الله أن يحسن لنا الصنيع ، وأن يثيبكم على

ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذى الحجة يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولى فآكتموا أمركم ، وجدوا فإني قادم عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
وأقبل قيس بكتاب الحسين إلى الكوفة حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذه الحصين ابن نمير فقد بعثه ابن زياد فى أربعة آلاف فارس لما علم بخروج الحسين ، فبعث به إلى عبيد الله بن زياد فلما وصل إليه شاء أن يذله بأن يرغمه على سب من أوفده رسولا ، فقال له :

— يا فتى ، اصعد إلى أعلى القصر فسب الكذاب ابن الكذاب على بن أبى طالب وابنه الحسين .

فصعد الفتى إلى أعلى القصر ، فاجتمع الناس ينظرون ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس ! هذا الحسين بن على خير خلق الله ، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقت بالحاجز من بطن ذى الرمة ، فأجيئوه واسمعوا له وأطيعوا .

ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه ، واستغفر لعلى والحسين ، فأمر به ابن زياد فألقى من رأس القصر فتقطع .

وقضى أناس الحج فلم يكن لهم هم إلا اللحاق بالحسين ، وأدركوه وقد مر برجل قادم من العراق ، فهم الحسين أن يكلمه ويسأله ثم ترك ، فجاءوا ذلك الرجل فسألوه عن أخبار الناس فقال :

— والله لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عذيل وهانىء بن عروة ورأيتهما يجران بأرجلهما فى السوق .

فلحقوا الحسين فأخبروه ، فبان الأسى فى وجهه وقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرحمة الله ورضوانه عليهما .

— يا أبا عبد الله ، إلا ما رجعت من موضعك هذا فليس لك فى الكوفة ناصر

ولا معين .

فوثب عند ذلك بنو عقيل بن أئى طالب وقالوا :

— لا والله لا نرجع حتى ندرک ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا .

فقال الحسين :

— لا خير فى الحياة بعد هؤلاء الفتية .

فعلم الملاً أنه عازم على المسير ولن يثنيه عن عزمه شىء ، كان الحسين يعرف هدفه وغايته ، كان على يقين من أن موته سيزلزل أركان دولة الظلم والجور ، فانطلق إلى الموت راضى النفس لا تداخله ذرة من شك فى مصيره وفيما هو سائر إليه .

وسار الحسين حتى إذا كان بزروود بلغه أيضاً مقتل الذى بعثه بكتابه إلى أهل الكوفة ، فغمغم :

— خذلتنا شيعتنا .

وراح يفكر فى أمر الناس الذين انضموا إليه فى سيره ، إنهم ما تبعوه إلا وهم يظنون أن العراق له وفى قبضته ، ولكنه قادم على الموت ، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون ، فقام فخطبهم :

— أيها الناس ، إنما جمعتمكم على أن العراق فى قبضتى ، وقد جاءنى خبر صحيح أن مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة قتلا وقد خذلتنا شيعتنا ، فمن كان منكم يصبر على ضرب السيوف وطعن الرماح وإلا فليصرف من موضعه هذا . فليس عليه من ذمامى شىء .

فسكتوا جميعاً ، ثم تفرقوا عنه أيادى سبا ، يمينا وشمالا ، حتى بقى فى أصحابه الذين خرجوا معه من مكة ، بقى فى أهله ومواليه وهم نيف وسبعون رجلا ، فنظر إليهم كأنما يسألهم رأيهم فقالوا فى حزم أكيد :

— والله ما نرجع حتى نأخذ بثأرنا أو نذوق الموت غصة بعد غصة .

وكان السحر فأمر الحسين فتياه أن يستقوا من الماء ويكثروا منه ، وجلس يقرأ

القرآن والدموع تسيل على خديه ولحيته ، ودخل عليه رجل فقال :
— بأبى وأمى يابن بنت رسول الله ، ما أنزلك هذه البلاد والفلاة التى ليس بها
أحد ؟

— هذه كتب أهل الكوفة إلّى ولا أراهم إلى قاتلى ، فإذا فعلوا ذلك لم يدعوا الله
حرمة إلا انتهكوها ، فيسلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قرم الأمة .
ورحل الحسين ومن معه ، فساروا إلى صدر النهار ، فسمع الحسين رجلاً يكبر
فقال له :

— مم كبرت ؟

— رأيت النخيلة .

فقال رجلان من أصحابه :

— إن هذا المكان لم ير أحد منه نخيلة .

فقال الحسين :

— فماذا تريانه رأى ؟

— هذه الخيل قد أقبلت .

— أما لنا ملجأ نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ؟

— بلى ، ذو حسم .

فأخذ ذات اليسار إليها فنزل ، وأمر بأبنيته فضربت ، وجاء القوم وهم في ألف
فارس مع الحر بن يزيد التميمي ، وهم مقدمة الجيش الذين بعثهم ابن زياد .
وفي نحو الظهر ، وقف جيش الحر أمام الحسين ، فهب أصحاب الحسين وفي
أيديهم السيوف ، فاقترب الحر من الحسين فقال :

— يا أبا عبد الله اسقنا الماء .

فقال الحسين لأصحابه :

— اسقوا القوم وارووا خيلهم .

واقترب من رجل منهم وقال له في رقة :

— يابن الأخ ، أنخ الجمل وافتح الراوية واشرب واسق راحلتك .
ودخل وقت الظهر فأمر الحسين رجلا من أصحابه فأذن ، ثم خرج الحسين في
إزار ورداء ونعلين وقال :

— أيها الناس ، إن رسول الله ﷺ قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم
الله ، ناكثا لعهد الله مخالفا لسنة رسول الله ﷺ ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان
فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله ، ألا وإن هؤلاء قد
لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود
واستأثروا بالفيء ، وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله ، وأنا أحق من غير . وقد أتتني
كتبكم وقدمت على رسلكم ببيعتهم أنكم لا تسلموني ولا تحذلونني فإن تمتمت على
بيعتهم تصيبوا رشدكم ، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ
نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم في أسوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم
عهدكم ، وخلعتم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر ، لقد فعلتموها بأبي
وأخي وابن عمي مسلم ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ونصيبكم
ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم ، والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته :

والتفت إلى الحر وقال له :

— تريد أن تصلى بأصحابك ؟

— لا . ولكن صل أنت ونحن نصلى وراءك .

وانتهت الصلاة فقال الحر للحسين :

— إنا لا ندري ما هذه الكتب ، ولا من كتبها .

فأحضر الحسين خرّجين مملوءين كتباً فنثرها بين يديه وقرأ منها طائفة . فقال

الحر :

— لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك في شيء ، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا

نفارقك حتى نقدمك إلى عبيد الله بن زياد .

(أهل البيت)

— الموت أدنى من ذلك .

ثم قال الحسين لأصحابه :

— اركبوا .

فركبوا وركب النساء ، فلما أراد الانصراف حال القوم بينه وبين الانصراف فقال الحسين للحر :

— ثكلتك أمك ، ماذا تريد ؟

— أما والله لو غيرك يقولها لي من العرب وهو على مثل الحال التي أنت عليها لأقتصن منه ، ولما تركت أمه ، ولكن لا سبيل إلى ذكر أمك إلا بأحسن ما نقدر عليه .

وتقاوم القوم وتراجعوا فقال له الحر :

— إني لم أؤمر بقتالك ، وإنما أمرت أن لا أفارقك - حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد ، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يقدمك الكوفة ولا تردك إلى المدينة ، واكتب أنت إلى يزيد ، واكتب أنا إلى ابن زياد إن شئت ، فلعل الله يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك .

فأخذ الحسين يساراً عن طريق العذيب والقادسية ، والحر يسايره وهو يقول له :

— يا حسين ، إني أذكرك الله في نفسك ، فإني أشهد لك قاتلت لتقتلن .

— أفيالموت تخوفني ؟ ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وقد لقيه وهو

يريد نصرة رسول الله ﷺ فقال : أين تذهب فإنك مقتول ؟ فقال :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً

وآسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق خوفاً أن يعيش ويرغماً

فلما سمع ذلك الحر منه ، تنحى عنه وجعل يسير بأصحابه ناحية عنه . وأقبل

أربعة نفر من الكوفة على رواحلهم يخبون يقصدون الحسين ، وراح الدليل ينشد :

يا ناقتى لا تذعري من زجرى وشمري قبل طلوع الفجر
بخير ركبان وخير سفير حتى تحلى بكثير الفخر
الماجد الحر رحيب الصدر أثابه الله بخير أجر
ابن أمير المؤمنين الطهر وابن الشفيع من عذاب الحشر
يا مالك النفع معا والضرر أيد حسينا سيدى بالنصر
على اللعينين سليل صخر وابن زياد العهر وابن العهر

وأراد الحر أن يحول بينهم وبين الحسين فقال له الحسين :
— ألم تكن قد عاهدتني أن لا تتعرض لأحد من أصحابي ، فإن كنت على ما
بينى وبينك وإلا نازلتك فى ميدان الحرب .

فكف عنهم الحر ، وذهبوا إلى الحسين فاستقبلهم وقال لهم :
— أخبروني عن الناس وراءكم .
— أما أشرف الناس فهم إلب واحد عليك ، وأما سائر الناس فأفئدتهم تهوى
إليك ، وسيوفهم غدا مشهورة عليك .
وتلفت رجل منهم وقال :

— انظر فما معك ، لا أرى معك أحداً إلا هذه الشرذمة اليسيرة ، وإني لأرى
هؤلاء القوم الذين يسايرونك أكفاء لمن معك . فكيف وظاهر الكوفة مملوء بالخيـل
والجيوش يعرضون ليقصدوك ، فأنشذك الله ، إن قدرت أن لا تتقدم إليهم شبراً
فافعل .

فقال الحسين فى هدوء :

— جزاك الله خيراً .

ولم يرجع الحسين عما اعتزمه ، فلما كان من الليل أمر فتيانه أن يستقوا من الماء
كفايتهم ، ثم سرى فنعس فى مسيره حتى خفق برأسه، واستيقظ وهو يقول:
— إنا لله وإنا إليه راجعون .
فأقبل عليه ولده على وقال :

— يا أبت ، لم استرجعت لا أراك الله سوءًا ؟
— يا ولدى خفقت خفقة فرأيت فارسًا وهو يقول : القوم يسرون والمنايا
تسير .

— يا أبت ألسنا على الحق ؟
— بلى ، نحن والله على الحق .
— إذا والله لا نبالي .

٥١

دعا ابن زياد عمر بن سعد فقال :
— سر إلى الحسين ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلى عملك .
— إن رأيت رحمك الله أن تعفيني فافعل .
— نعم على أن ترد لنا عهدنا .
فأطرق عمر بن سعد قليلاً ثم قال :
— أمهلني اليوم حتى أنظر .
وانصرف عمر وهو مبلى الفكر لا يريد أن يتصدى للحسين ، وابن زياد لن يقبل منه أن يتخلى دون أن يوغر ذلك صدر الأمرين عليه ، وانصرف عمر يستشير نصحاءه فجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة ، وهو ابن أخته فقال له :
— أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فتأثم بربك وتقطع رحمك ، فوالله
لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها ، لو كان لك ، خير لك من أن
تلقى الله بدم الحسين .
— فإني أفعل إن شاء الله .

وظل عمر بن سعد في حيرته فما وجد رجلاً واحداً ينصحه بالخروج إلى
الحسين ، إنه كان خارجاً لقتال الديلم قبل ورود أنباء مسير الحسين ، فإليه

خرج ، إذا لعرف مواقع أقدامه ، أما أن يخرج لابن بنت النبي الكريم الذي
أخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذي رفعهم إلى ما هم فيه ، وجعلهم سادة
وحكاما ففى ذلك الضلال البعيد .
مر اليوم وعمر بن سعد فريسة لأفكاره ، ودخل على ابن زياد فانهارت مقاومته
جميعا وقال :

— أصلحك الله إنك وليتنى هذا العمل وتبى العهد وسمع به الناس ، فإن
رأيت أن تنفذ ذلك فافعل ، وابعث إلى الحسين في هذا الجيش من أشرف الكوفة
من لست بأغنى ولا أجزأ عنك في الحرب منه .
فسمى له أناسا ، فقال له ابن زياد :
— لا تعلمنى بأشرف أهل الكوفة ، ولست أستأمرك فيمن أريد أن أبعث إن
سرت بجندنا وإلا فابعث إلينا بعهدنا .
فأطرق عمر بن سعد وقال :
— فإني سائر .

وخرج عمر بن سعد يندب الناس إلى الحسين ، وأتاه من نصحوه بعدم الخروج
فأعرض عنهم بوجهه ، فتركوه آسفين ، فقد باع عمر بن سعد دينه بدنياه .

* * *

ثار النقع ، وأقبل راكب على نجيب له وعليه السلاح ، متنكب قوسا ، مقبل
من الكوفة ، فوقفوا جميعا ينتظرونه ، فلما انتهى إليهم سلم على الحر بن يزيد
وأصحابه ، ولم يسلم على الحسين وأصحابه ، فدفع إلى الحر كتابا من عبيد الله بن
زياد ، فإذا فيه :

« أما بعد فجمع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولى ، فلا تنزله
إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولى أن يلزمك ولا يفاركك
حتى يأتينى بإنفاذك أمرى والسلام » .

فالتفت الحر إلى الحسين وأصحابه وقال :

— هذا كتاب الأمير عبد الله بن زياد يأمرني فيه أن أجمع بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابه ، وهذا رسوله وقد أمره أن لا يفارقني حتى أنفذ رأيه وأمره .
فنظر رجل من أصحاب الحسين إلى الرسول وقال له :
— ثكلتك أمك ، ماذا جئت فيه ؟!

— وما جئت فيه ؟ أطعت إمامي ووفيت بيعتي .
— عصيت ربك ، وأطعت إمامك في هلاك نفسك ، كسبت العار والنار .
قال الله عز وجل : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ . فهو إمامك .
وأخذ الحر بن يزيد القوم بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قرية ،
فقالوا :

— دعنا ننزل في هذه القرية أو هذه القرية أو هذه الأخرى .
— لا والله ما أستطيع ذلك ، وهذا رجل قد بث إلى عينا .
فاقترب رجل من أصحاب الحسين وقال له :
— إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا من بعدهم . فلعمري ليأتينا من بعد
من ترى ما لا قبل لنا به .
— ما كنت لأبدأهم بالقتال .
— سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها فإنها حصينة وهي على شاطئ الفرات ، فإن
منعونا قاتلناهم فقتلهم أهون علينا من قتال من يجيء . بعدهم .
فرفض الحسين ونزل كربلاء كأنما كانت أرضه تناديه .
وسار عمر بن سعد بجيشه حتى نزل قبالة الحسين ، فدعا رجلا من رجاله وقال
له :

— ائته فسله ما الذي جاء به ؛ وماذا يريد ؟
فاستحيا الرجل أن يذهب إلى الحسين ؛ فقد كان ممن كتب إليه ، فعرض عمر
ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه ، فكلهم أوى وكره . وقام إليه كثير بن عبد الله

الشعبي فقال :

— أنا أذهب إليه ، والله لئن شئت لأفتكن به .

— ما أريد أن تفتك به ، ولكن الله فسله ما الذي جاء به .

فأقبل إليه ، فلما رآه أحد أصحاب الحسين قال :

— أصلحك الله أبا عبد الله ؛ قد جاءك شر أهل الأرض .

فقام صاحب الحسين إليه فقال :

— ضع سيفك .

— لا والله ولا كرامة ، إنما أنا رسول ، فإن سمعتم مني أبلغتكم ما أرسلت به

إليكم ، وإن أبيتم انصرفت عنكم .

— فإني آخذ بقاء سيفك ثم تكلم بحاجتك .

— لا والله لا تمسه .

— أخبرني ما جئت به أنا أبلغه عنك ولا أدعك تدنو منه فإنك فاجر .

فاستبأ وانصرف كثير إلى عمر بن سعد فأخبره الخبر ؛ فدعا عمر قرة بن قيس

الحنظلي فقال له :

— ويحك يا قرة ! الق حسينا فسله ما جاء به وماذا يريد ؟

فأتاه قرة بن قيس ، فلما رآه الحسين مقبلا التفت إلى أصحابه وقال :

— أتعرفون هذا ؟

— نعم ، هذا رجل من حنظلة وهو ابن أختنا . ولقد كنت أعرفه بحسن

الرأى ، وما كنت أراه يشهد هذا المشهد .

فجاء قرة حتى سلم على الحسين ، وأبلغه رسالة عمر بن سعد ، فقال الحسين :

— كتب إلى أهل مصر كم هذا أن أقدم ، فأما إذ كرهوني ، فأنا أنصرف عنهم .

والتفت حبيب بن مظاهر إلى قرة وقال :

— ويحك يا قرة بن قيس ، أنى ترجع إلى القوم الظالمين ، انصر هذا الرجل الذي

بآبائه أيدك الله بالكرامة وإيانا معك .

— أرجع إلى صاحبي بجواب رسالته ، وأرى رأيي .
وكتب ابن سعد إلى ابن زياد كتابا بما قال الحسين ، وأوفد إليه رسولا . وصار
ابن سعد يخرج كل ليلة ويسط بساطا ويدعو الحسين ويتحدثان حتى يمضي من
الليل شطره .

ودخل رسول عمر بن سعد على ابن زياد ، فلما قرأ الكتاب قال :
الآن إذ علقت مخالبتنا به يرجو النجاة ولات حين مناص
كتب إلى ابن سعد .

«أما بعد، فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فاعرض على الحسين أن يبيع
ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه ، فإن أطاع وإلا فحل بينه وأصحابه وبين الماء
ولا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالنقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان » .
فلما بلغت هذه الرسالة عمر بن سعد قال :

— قد حسبت ألا يقبل ابن زياد العافية .

وبعث عمر بن سعد رجالا ليحولوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء . فقد كان
ابن سعد يعلم علم اليقين أن الحسين لن يبيع يزيد وإن ذاق الموت غصة بعد
غصة .

وأصبح الصباح فرأى الحسين أن القوم قد حالوا بينه وبين الماء ، فدعا راحلته
فركبها ، وأقبل على القوم ونادى :

— أيها الناس أنصتوا لي ، انصبوني من أناثم راجعوا أنفسكم ، هل يحل لكم قتلي
وأنا ابن بنت نبيكم ، وابن صفيه وأول المؤمنين والمصدق بالله ورسوله وبما جاء به
من عند الله . أليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ، أليس جعفر الطيار في الجنة
عمي ، أو ما بلغكم قول جدي لي ولأخي الحسن : «إذ كان سيدا شباب أهل الجنة ؟
وقال : إني مخلف فيكم الثقيلين ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي .

ويلك يا شيبث بن ربعي ، ويا كثير بن شهاب ويا فلان ويا فلان ، ألم تكتبوا إلى
أن أقدم علينا لك ما لنا وعليك ما علينا ؟.

— لم نفعل شيئاً من ذلك .

— إذا كرهتموني دعوني أنصرف إلى ما شئت من الأرض .

فقال قيس بن الأشعث :

— انزل على حكم الأمير ابن زياد فما ترى إلا ما تحب .

— والله لا أعطى يدي إعطاء الذليل ، ولا أفر فرار العبيد . ﴿ إني عدت بربي

وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ .

* * *

جلس ابن زياد وعنده شمر بن ذى الجوشن وكان من أعدى أعداء أهل البيت .

فجعل يوغر صدره على الحسين ويحرضه على البطش به ويقول :

— والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة ولتكونن

أولى بالضعف والعجز ، لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبت فأنت ولى

العقوبة ، وإن غفرت كان ذلك لك .

— نعم ما رأيت .. الرأى رأيك .

وكتب عبد الله بن زياد إلى عمر بن سعد :

« أما بعد فإنى لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة

والبقاء ، ولا تقعد له عندى شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم

واستسلموا فابعث بهم إلى سلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ،

فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنه عاق

شاق قاطع ظلوم ، وليس دهرى في هذا أن يضر بعد الموت شيئاً ، ولكن على قول

لو قد قتلته فعلت هذا به ، إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع ،

وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا ، وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر ،

فإننا قد أمرناه بأمرنا والسلام » .

ودفع ابن زياد بالكتاب إلى شمر فقام هو وعبد الله بن أبى المحل وكانت عمته عند

علّى بن أبى طالب فولدت له العباس وعبد الله وجعفر وعثمان ، فقال عبد الله بن أبى

المحل .

— أصلح الله الأمير ، إن بنى أختنا مع الحسين ، فإن رأيت أن تكتب لهم أماناً

فعلت .

— نعم ونعمة عين .

فأمر كاتبه فكتب لهم أماناً . فلم يستطع عبد الله بن أبي المحل أن يصبر حتى يقدم على الحسين فبعث بالأمان مع مولى له ، فانطلق يغذ في السير حتى إذا ما نزل معسكر الحسين دعاهم فقال :

— هذا أمان بعث به خالكم .

— أقرئ خالنا السلام ، وقل له أن لا حاجة لنا في أمانكم ، أمان الله خير من

أمان بنى سمية .

وأقبل شمر بن ذى الجوشن بكتاب عبيد الله بن زياد ، فلما قرأه عمر بن سعد

قال :

— مالك ، ويلك لا قرب الله دارك ، وقبح الله ما قدمت به على ، والله إني لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به إليه ، فأفسدت علينا أمرنا . كنا رجونا أن يصلح . لا يستسلم الحسين أبداً . إن نفساً أية لبن جنبيه .

— أخبرني ما أنت صانع ؟ أتمضي لأمر أميرك وتقتل عدوه ؟ وإلا فخل بيني

وبين الجند والعسكر .

— لا .. لا كرامة لك .. وأنا أتولى ذلك .

— فدونك وكن أنت على الرجال .

وجاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين فقال :

— أين بنو أختنا ؟

فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي وقالوا له :

— مالك ؟ وما تريد ؟

— أنتم يا بنى أختي آمنون .

— لعنك الله ولعن أمانك ، لعن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له ؟

ونادى عمر بن سعد :

— يا خيل الله اركبى وأبشرى .

وجلس الحسين بعد أن صلى العصر أمام بيته محتبياً بسيفه ، إذ خفق برأسه على ركبتيه ، وارتفع صهيل الخيل وقعقة السلاح ، فخرجت أخته زينب إليه واقتربت منه وقالت :

— يا أخى ، أما تسمع الأصوات قد اقتربت ؟

فرفع الحسين رأسه وقال :

— إني رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى : إنك تروح إلينا . فلطمت

زينب وجهها وقالت فى التبايع :

— يا ويلتا .

— ليس لك الويل يا أخيتى ، اسكتى رحمك الله .

وهرع العباس بن على إليه وقال :

— يا أخى القوم .

فنهض ثم قال :

— يا عباس ، اركب — بنفسى أنت يا أخى — حتى تلقاهم فتقول لهم مالكم ؟

وما بدا لكم ؟ وتسألهم عما جاء بهم .

فأتاهم العباس فاستقبلهم فى نحو من عشرين فارساً ، فهم زهير بن القين

وحبيب بن مظاهر فقال لهم العباس :

— ما بدا لكم وما تريدون ؟

— جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو ننازلكم .

— فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبى عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم .

— القه فأعلمه ذلك والقنا بما يقول .

فانصرف العباس راجعاً يركض إلى الحسين يخبره بالخبر ووقف أصحابه

يخاطبون القوم ، فقال حبيب بن مظاهر لزهير :

— كلم القوم إن شئت وإن شئت كلمتهم .

— أنت بدأت بهذا فكن أنت تكلمهم .

فقال حبيب :

— أما والله لبئس القوم عند الله غداً قوم يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيه عليه السلام وعترته وأهل بيته عليه السلام ، وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار والذاكرين الله كثيراً .

فقال له عزرة بن قيس :

— إنك لتزكى نفسك ما استطعت .

— يا عزرة إن الله قد زكاها وهداها فاتق الله يا عزرة فإنى لك من الناصحين ، أنشدك الله يا عزرة أن تكون ممن يعين الضلال على قتل النفوس الزكية .

— يا زهير ، ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت ، إنما كنت عثمانياً .

— أفلست تستدل بموقفى هذا أنى منهم ، أما والله ما كتبت إليه كتاباً قط ، ولا أرسلت إليه رسولا قط ، ولا وعدته نصرتى قط ، ولكن الطريق جمع بينى وبينه فلما رأيته ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم فرأيت أن أنصره وأن أكون فى حزبه وأن أجعل نفسى دون نفسه حفظاً لما ضيعتم من حق الله وحق رسوله عليه السلام .

وأقبل العباس بن على يركض حتى انتهى إليهم فقال :

— يا هؤلاء إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشية حتى ينظر فى هذا الأمر ، فإن هذا أمر لم يجر بينكم وبينه فيه منطق ، فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله فإما رضينا فأتينا بالأمر الذى تسألونه وتسومونه أو كرهنا فرددناه .

فالتفت عمر بن سعد إلى شمر وقال :

— ما ترى يا شمر ؟

— ما ترى أنت ؟ أنت الأمير والرأى رأيك .

— قد أردت ألا أكون .

ثم أقبل على الناس فقال :

— ماذا ترون ؟

— سبحان الله ، والله لو كانوا من الديلم ثم سألك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم إليها .

٥٢

وأقبل الليل فدخل الحسين ليعود عليا ، ابنه المريض ، ثم خرج وجمع أصحابه وقال :

— أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماء وأبصاراً وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين ، أما بعد ، فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ، وألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، ألا وإني قد رأيت لكم فأنطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام . هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله ، فإن القوم إنما يطلبوني ، ولو قد أصابوني لهُوا عن طلب غيري . فقال أخوه العباس :

— لم نفعل ؟ لنبقى بعدك ؟! لا أرانا الله ذلك أبداً .

فالتفت إلى بني عقيل وقال :

— يا بني عقيل ، حسبكم من القتل بمسلم . اذهبوا قد أذنت لكم .

— فما يقول الناس ؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف

وما ندرى ما صنعوا ؟ لا والله لا نفعل ، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا ،
ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك .

فقام إليه رجل من أنصاره فقال :

— أنحن نخلى عنك ولما نعذر إلى الله في أداء حقك ؟ أما والله حتى أكسر في
صدورهم رمحي ، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولا أفارقك ، ولو لم
يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتم بالحجارة دونك حتى أموت معك .
وقال آخر :

— والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك ، والله
لو علمت أني أقتل ثم أحياء ثم أحرق حيا ثم أذر ، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك
حتى ألقى حمامي دونك ، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة
التي لا انقضاء لها أبداً .

واعتزل الحسين بأصحابه في خباء له ، وعنده مرلى أبي ذر الغفاري وهو يعالج
سيفه ويصلحه والحسين يقول :

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل وكل حي سالك السيل

فأعادها مرتين أو ثلاثا ، فبلغت أذني علي بن الحسين وهو مريض ، فخنقته
عبرته ، فرد دمه ولزم السكون ، فقد علم أن البلاء قد نزل ، أما زينب فقد كانت
تمرض عليا فسمعت ما سمع فأحست كأن سكيناً ينطع أحشاءها فلم تملك نفسها
أن وثبت تجر ثوبها وإنها لحاسرة حتى انتهت إليه فقالت :

— واثكلاه ! ليت الموت أعدمني الحياة ، اليوم ماتت فاطمة أُمي ، وعلي أبي
وحسن أخي ، يا خليفة الماضي ، وثمان الباقي .

فنظر إليها الحسين وهو يغالب ما يعتمل في صدره وقال :

— يا أخية ، لا يذهبن حلمك الشيطان .

— بأنى أنت وأمى يا أبا عبد الله استقتلت نفسى فداك .

فرد غصته ، وترقرقت عيناه وقال :

— لو ترك القطا ليلا لنام .

— يا ويلتا ، أفتغصب نفسك اغتصابا ؟ فذلك أفرح لقلبي وأشد على نفسى .

ولطمت وجهها ، وأهوت إلى جيبها وشقته ، وخرت مغشيا عليها ، فقام إليها الحسين فصب على وجهها الماء ، وقال لها :

— يا أخية ، اتقى الله وتعزى بعزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون وأن

أهل السماء لا يبقون . وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذى خلق الأرض

بقدرته ، ويبعث الخلق فيعودون وهو فرد وحده ، أئى خير منى ، وأمى خير

منى ، وأخى خير منى ، ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة .

يا أخية ، إنى أقسم عليك فأبرى قسمى ، لا تشقى على جيبا ، ولا تخمشى على

وجهها ، ولا تدعى على بالويل والثبور إذا أنا هلكت .

ثم جاء بها حتى أجلسها عند على المريض ، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن

يقربوا بعض بيوتهم من بعض ، وأن يدخلوا الأطناب بعضها فى بعض ، وأتى

بقصب وخطب إلى مكان من ورائهم منخفض كأنه ساقية ، فحفروه فجعلوه

كالخندق ثم ألقوا فيه ذلك الخطب والقصب وقالوا :

— إذا عدوا علينا فقاتلونا ألقينا فيه النار كيلا نوثى من ورائنا .

وراحوا يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ، وأصبح الصباح فعبا

الحسين أصحابه وصلى بهم ، فلما فرغ استدعى بدرع جده رسول الله ، وتعمم

بعمامته ، وتقلد بسيف أبيه ذو الفقار ، وخرج إلى أصحابه وكان معه اثنان

وثلاثون فارسا وأربعون رجلا ، فجعل زهير بن القين فى ميمنة أصحابه ، وحبيب

ابن مظاهر فى ميسرة أصحابه ، وأعطى رايته العباس بن على أخاه ، وجعلوا

البيوت فى ظهورهم ، وتأهب أصحاب الحسين الأبرار للقتال ، وقد عزموا على أن

يذودوا عن الحق وأن يهلكوا دونه .

وركب الحسين دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه ، ورأى جيش عمر بن سعد اللجب قد تأهب لقتال الحفنة المصطفاة من المؤمنين ، فرفع يديه فقال :
— اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شدة ، وأنت لى فى كل أمر
نزل بى ثقة وعدة ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتفل فيه الحيلة ، ويخذل فيه
الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بك ، وشكوته إليك ، رغبة منى إليك عن
سواك ، ففرجته وكشفته فأنت ولى كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل
رغبة .

وتأججت النار فى الخطب والقصب الذى وضع ليحمى ظهور الحسين
وأصحابه ، فأقبل رجل من جيش عمر بن سعد يركض على فرس كامل الأداة حتى
يمر على أبيات القوم ، فإذا هو لا يرى إلا حطبًا تلتهب النار فيه فرجع فنادى بأعلى
صوته :

— يا حسين ، استعجلت النار فى الدنيا قبل يوم القيامة .

فقال الحسين :

— من هذا ؟ كأنه شمر بن ذى الجوشن .

— نعم أصلحك الله هو هو .

— يابن راعية المعزى ، أنت أولى بها صليًا .

فقال له رجل من أصحابه :

— يابن رسول الله جعلت فداك ، ألا أرميه بسهم فإنه قد أمكنتى وليس يسقط

سهم فالفاسق من أعظم الجبارين .

— لا ترمه ، فإنى أكره أن أبدأهم .

وجعل يزيد بن حصين يمزح فى هذه الساعة التى أطل فيها المنون ، فقال له بعض

أصحاب الحسين :

— دعنا منك ، والله ما هذه بساعة باطل .

فقال وهو مستبشر :

— والله لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل شابا ولا كهلا ، ولكن والله إني لمستبشر بما نحن لاحقون ، والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل علينا هؤلاء القوم فيقتلوننا .

وانطلق الحسين إلى القوم ، وصاح بأعلى صوت :
— أيها الناس ، اعلموا أن الدنيا دار فناء وزوال ، متغيرة بأهلها من حال إلى حال . معاشر الناس ، عرفتم شرائع الإسلام ، وقرأتم القرآن ، وعلمتم أن محمداً رسول الله الملك الديان ، ووثبتم على قتل ولده ظلماً وعدواناً ، معاشر الناس أما ترون إلى ماء الفرات يموج كأنه بطون الحيتان ، يشربه اليهود والنصارى والكلاب والخنازير ، وآل رسول الله يموتون عطشا ؟
— أقصر عن هذا الكلام ، فلن تذوق الماء ولا أحد من أصحابك . بل تذوق الموت غصة .

فعاد إلى أهله ، وقال :

— إن القوم استحوذ عليهم الشيطان ، فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . وأنشأ يقول :

تعديتم يا شر قوم بيغيكم	وخالفتمو فينا النبي محمداً
أما كان خير الخلق أوصاكم بنا	أما كان جدى خير الله أحمداً
أما كانت الزهراء أمى ووالدى	عليّاً أخا خير الأنام مسدداً
لعنتم وأخزيتم بما قد جنيتم	ستصلون ناراً حرها قد توقداً

وقال الحسين لرجل من أنصاره :

— امض إلى هؤلاء القوم وذكّرهم الله ورسوله عساهم يرجعون عن قتالنا ، وأعلم أنهم لا يرجعون ، ولكن لتكون لى عليهم حجة يوم القيامة .

وخرج زهير بن القين على فرس له ذنوب . شاك في السلاح ، فقال :

— يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله ، نذار إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد وملة واحدة ما لم يقع بيننا (أهل البيت)

وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة ،
وكنا أمة وأنتم أمة . إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم
عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد فإنكم لا
تدركون منها إلا بسوء عمر بن سعد ، سلطانهما كله ليسملان أعينكم ويقطعان
أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويرفعانكم على جذوع النخل ، ويقتلان أمثالكم
وقراءكم أمثال حجر بن عدى وأصحابه وهانيء بن عروة وأشباهه .
فسبوه وقالوا :

— والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير
عبيد الله سلما .

— عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحنق بالود والنصر من ابن سمية ،
فإن لم تنصروهم فأعيذكُم بالله أن تقتلوهم .
فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم .
— اسكت ، اسكت الله نأمتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك .

فقال له زهير :

— يا ابن البوال على عقبه ، ما إياك أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك
تحكم من كتاب الله آيتين ، فأبشر بالخزى يوم النيامة والعذاب الأليم .
— إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة .
— أفيالموت تخوفنى ؟ فوالله للموت معه أحب إلى من الخلد معكم .
ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال :

— عباد الله ، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الخافى وأشباهه ، فوالله لا تنال
شفاعة محمد ﷺ قوما هراقوا دماء ذريته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم وذب عن
حريمهم .

فناداه رجل فقال له :

— إن أبا عبد الله يقول لك أقبل ، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح

لقومه وأبلغ في الدعاء ، لقد نصحت هؤلاء القوم وأبلغت لو نفع النصيح والإبلاغ .

٥٣

خرج عبد الله بن عمير من بنى سليم من داره بالكوفة ، فرأى جيوشاً تتأهب ، وقوماً بالنخيلة يعرضون فاقترب وسأل :

— ما هذه الجيوش ، وإلى أين وجهتها ؟

— يسرحون إلى حسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

فأطرق قليلاً يفكر في هذا الأمر ، فغمغم :

— والله لو قد كنت على جهاد أهل الشرك حريصاً وإنى لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثواباً عند الله من ثوابه إياي في جهاد المشركين .

وعاد إلى داره يتزود ويتأهب للخروج لنصرة الحسين ، وسأله زوجته أم وهب عن وجهته فأخبرها فقالت :

— أصبت ، أصاب الله بك أرشد أمورك ، افعل وأخرجني معك .

وفي هجعة الليل انسل من الكوفة وأخذ في السير حتى نزل كربلاء فانضم عبد الله بن عمير إلى أصحاب الحسين ، ودخلت أم وهب على النساء .

وزحف عمر بن سعد إلى الحسين ، فالتفت الحر بن يزيد إليه ، وكان أول من بعث ابن زياد لمقابلة الحسين ، وقال :

— أصلحك الله ، مقاتل أنت هذا الرجل ؟

— إى والله قتالا أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي .

— أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضى ؟

— أما والله لو كان الأمر إلّى لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك .

ووقف الحر بن يزيد قليلا يفكر في أمره ، إنه يعلم أن الحسين مع الحق ، وأن الدنيا مع ابن زياد ، فأخذ يدنو من الحسين قليلا قليلا ، فقال له رجل من قومه :
— ما تريد يا بن يزيد ؟ أتريد أن تحمل ؟
فسكت وظل يتقدم فقال الرجل :

— والله إن أمرك لمريب ، والله ما رأيت منك في موقف قط مثل شيء أراه الآن ، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة رجلا ما عدوتك ، فما هذا الذي أرى منك ؟
— إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار ، والله لا أختار على الجنة شيئا ، ولو قطعت وحرقت .

ثم ضرب فرسه فلاحق بحسين عليه السلام ، فلما اقترب منه قال :
— جعلني الله فداك يا بن رسول الله ، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ، وسأيرتك في الطريق وجمعجت بك في هذا المكان ، والله الذي لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبدا ، ولا يبلغون منك هذه المنزلة ، فقلت في نفسي لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ، ولا يرون أني خرجت من طاعتهم ، وأما هم فسيقبلون من حسين هذه الخصال التي يعرض عليهم ، والله ما ظننت أنهم لا يقبلونها منك ما ركبها منك ، وإني قد جئتك تائبا مما كان مني إلى ربي ، ومواسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك ، أفترى ذلك لي توبة ؟

— نعم يتوب الله عليك ويغفر لك . انزل .
— أنا لك فارسا خيرا مني راجلا ، أقاتلهم على فرسى ساعة ، وإلى النزول ما يصير آخر أمرى .

— فاصنع يرحمك الله ما بدا لك .
وتقدم الحر الصفوف ثم قال :
— أيها القوم ، ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التي عرض عليكم ، فيعافىكم الله من حربه وقتاله ؟!

— هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه .

— يا عمر .

وراح الحر يكلم عمر بن سعد فقال عمر :

— قد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلا فعلت .

— يا أهل الكوفة لأمكم الهبل والعبر إذ دعوتموه حتى إذا أتاكم استلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه . أمسكتم بنفسه وأخذتم بكظمه ، وأحطتم به من كل جانب ، فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وخلأتموه ونساءه وأصببته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وها هم قد صرعههم العطش ، بثسما خلفتم محمدا في ذريته ، لا أسقام الله يوم الظما إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه .
ووضع سعد سهمه في كبد قوسه ثم رمى فقال :
— اشهدوا أنى أول من رمى .

وحملت على الحر رجالة للقوم ترميه بالنبل ، فأقبل حتى وقف أمام الحسين ، وسكنت الألسن لتكلم السيوف ، وليحاول الباطل أن يزهد الحق ، ولكن الباطل كان زهوقا .

وخرج بسار مولى زياد وسالم مولى عبيد الله بن زياد فقالا :

— من يبارز ؟ ليخرج إلينا بعضكم .

فوثب حبيب بن مظاهر ، وبرير بن حضير فقال لهما الحسين :

— اجلسا .

فقام عبد الله بن عمير فقال :

— أبا عبد الله ، رحمك الله ائذن لى فلا أخرج إليهما .

فنظر الحسين إليه فرأى رجلا آدم طويلا ، شديد الساعدين ، بعيد ما بين

المنكبين ، فقال :

— إني لأحسبه للأقران قتالا ، اخرج إن شئت .

فخرج عبد الله بن عمير ، فقالا له :

— من أنت ؟

فانتسب لهما فقالا :

— لا نعرفك؟ ليخرج لنا زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر أو برير بن حضير.

— يا بن الزانية ، وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس . ويخرج إليك أحد من

الناس إلا وهو خير منك .

ثم شد بسيفه ، فلما رأت أم وهب مبارزة زوجها لرجلين أخذت عمودًا ثم أقبلت نحوه تقول له : — فذاك أبي وأمي ، قاتل دون الطيبين ذرية محمد .

فأقبل إليها يردّها نحو النساء فأخذت تجاذب ثوبه ، ثم قالت :

— إني لن أدعك دون أن أموت معك .

فناداها حسين فقال :

— جزيتم من أهل بيت خيرًا ، ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهن ،

فإنه ليس على النساء قتال .

واستمر عبد الله يبارز الرجلين حتى أرداهما فأقبل يرتجز :

إني امرؤ ذو مرة وعصب ولست بالخوار عند النكب

إني زعيم لك أم وهب بالطعن فيهم مقدّمًا والضرب

ضرب غلام مؤمن بالرب

وخرج رجل من صفوف ابن سعد فقال :

— يا برير بن حضير ، كيف ترى الله صنع بك ؟

— صنع الله والله بي خيرًا وصنع الله بك شرًا .

— كذبت وقبل اليوم ما كنت كذابا ، هل تذكر وأنا أماشيك في بني لوزان

وأنت تقول إن عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفا وإن معاوية بن أبي سفيان ضال

مضل ، وإن إمام الهدى والحق عليّ بن أبي طالب ؟

— أشهد أن هذا رأيي وقولي .

— فإني أشهد أنك من الضالين .

— هل لك فلا بأهلك ولندع الله أن يلعن الكاذب ، وأن يقتل المبطل ثم اخرج

فلأبارزك .

فخرجوا فرفعا أيديهما إلى الله يدعوانه أن يلعن الكاذب وأن يقتل الحق المبطل .

وبرز كل واحد منهما لصاحبه فاختلفا ضربتين فضرب الرجل برير بن حضير

ضربة خفيفة لم تضره شيئا وضربه برير بن حضير ضربة قدت المغفر وبلغت الدماغ

فخر كأنما هو من حائق ، وإن سيف ابن حضير لثابت في رأسه ، فراح ينضنضه

من رأسه ، وحمل عليه رجل آخر فاعتنق بريراً فاعتراك ساعة ثم إن بريراً قعد على

صدره ، فصاح الرجل .

— أين أهل المصاع والدفاع ؟

فذهب رجل فحمل عليه بالرمح حتى وضعه في ظهره . ثم أقبل عليه يضربه

بسيفه حتى قتله .

واستمرت المبارزات فما من رجل خرج لأصحاب الحسين إلا قتل ، فصاح

رجل من جيش ابن سعد :

— يا حمقى ، أتدرون من تقاتلون ؟ فرسان المصر ، قوما مستميتين ، لا يبرزن

لهم منكم أحد فإنهم قليل . وقل ما ييقون ، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة

لقتلتموهم .

وحمل عمر بن الحجاج في ميمنة عمر بن سعد من نحو الفرات ، فاضربوا ساعة

ثم انصرف ابن الحجاج وأصحابه وارتفعت الغيرة فإذا مسلم بن عوسجة صريع ،

فمشى إليه الحسين فإذا به رمق ، فقال :

— رحمك ربك يا مسلم ، منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا

تبديلاً .

ودنا منه حبيب بن مظاهر فقال :

— عز على مصرعك يا مسلم ، أبشر بالجنة .

فقال مسلم في صوت ضعيف :

— بشرك الله بخير .

— لولا أنى أعلم أنى فى أثرك ، لاحق بك من ساعتى هذه ، لأحببت أن
توصينى بكل ما أهمك حتى أحفظك فى كل ذلك ، بما أنت أهل له فى القرابة
والدين .

— بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله ، — وأهوى بيده إلى الحسين — أن تموت
دونه .

— أفعل ورب الكعبة .

وحمل شمر بن ذى الجوشن فى الميسرة على أهل الميسرة ، فراح عبد الله بن عمير
يصول ويجول ، ويجدل الرجال ، وتكاثروا عليه فقتلوه ، وقتلهم أصحاب
الحسين قتالاً شديداً ، وأخذت خيلهم تحمل وإنما هم اثنان وثلاثون فارساً ،
وأخذت لا تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة إلا كشفتها ، فلما رأى قائد
فرسانهم ما تلقى خيله من هذه العدة اليسيرة بعث إلى عمر بن سعد أن ابعث إليهم
الرجال والرماة .

وأقبل المرامية حتى إذا دنوا من الحسين وأصحابه زشقوهم بالنبل ، وشب قتال
هائل ، وأخذ رجال ابن سعد لا يقدرّون على أن يأتوا الحسين وأصحابه إلا من
وجه واحد لا اجتماع أبنتهم وتقارب بعضها من بعض ، فلما رأى ذلك عمر بن
سعد أرسل رجالاً يقوضونها عن أيمانهم وعن شمائلهم ليحيطوا بهم ، فأخذ
أصحاب الحسين يتخللون البيوت فيشدون على الرجل وهو يقوض وينتهب
فيقتلونه ويرمونّه من قريب ويعقرونه ، فأمر بها عمر بن سعد عند ذلك فقال :

— احرقوها بالنار .

فأحدوا يحرقون ، فقال الحسين :

— دعوهم فليحرقوها فإنهم لو قد حرقوها لم يستطيعوا أن يجزوا إليكم منها .

وحمل شمر بن ذى الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين برمح ونادى :

— على بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله .

فصاح النساء وخرجن من الفسطاط ، وصاح به الحسين :

— ويلك يا شمر ، تريد أن تحرق خيمة رسول الله ؟!

— نعم .

— حرقك الله بالنار .

واقترب رجل من رجال ابن سعد من شمر وقال له :

— سبحان الله ، إن هذا لا يصلح لك ، أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين

تعذب بهذاب الله وتقتل الولدان والنساء ؟ والله إن قتلك الرجال لما ترضى به

أميرك .

— من أنت ؟

وخشى الرجل أن لو عرفه أن يضره عند السلطان ، فقال له :

— لا أخبرك من أنا .

وحمل عليه زهير بن القين في رجال من أصحابه فشد على شمر بن ذى الجوشن

وأصحابه فكشفهم عن البيوت حتى ارتفعوا عنها .

وخرجت أم وهب امرأة عبد الله بن عمير تمشي إلى زوجها حتى جلست عند

رأسه تمسح عنه التراب وتقول :

— هنيئاً لك الجنة .

فقال شمر بن ذى الجوشن لـغلام :

— اضرب رأسها بالعمود .

(أهل البيت)

فضرب رأسها ، فسقطت على صدر زوجها وهمس في أذنيها هاتف كأنما كان
ترجيع صوتها .
— هنيئاً لك الجنة .

٥٤

كان أصحاب الحسين يشدون على الأعداء شد الليوث ، وكانوا يبدلون منهم
خلقا كثيرا ، ولكن إذا قتل منهم الرجل والرجلان تبين فيهم ، وأولئك كثير لا
يتبين فيهم ما يقتل منهم ، فلما رأى ذلك أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدي قال
للحسين :

— يا أبا عبد الله ، نفسي لك الفداء ، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك ، ولا والله
لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله ، وأحب أن ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة
التي دنا وقتها .

فرفع الحسين رأسه وقال :

— ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين . نعم هذا أول وقتها .
وأذن مؤذن الحسين . فلما فرغ من الأذان نادى الحسين :

— يا عمر بن سعد ، أنسيت شرائع الإسلام ، ألا تكف عنا الحرب حتى
نصلي ؟

فلم يجبه عمر ، فناداه الحصين بن نمير :

— يا حسين صل ، فإن صلاتك لا تقبل .

فقال له حبيب بن مظاهر :

— لا تقبل ؟ زعمت الصلاة من آل رسول الله ﷺ لا تقبل ، وتقبل منك

يا حمار .

فغضب الحصين من كلامه وبرز إليه وهو يقول :

— يا حبيب ، ابرز إلى ميدان الحرب ، ومكافحة الطعن والضرب .
فالتفت حبيب إلى الحسين وقال :
— إني أحب أن تتم صلاتي في الجنة ، وأقرأ جدك وأباك وأخاك مني السلام ، ثم
برز وهو يقول :

أنا حبيب وأبي مظاهرُ وفارس الهيجاء ليث قسور
أنتم أعداء عدة وأكثر ونحن أوفى منكم وأصبر
ونحن أعلى حجة وأظهر حقاً وأتقى منكم وأعذر
وحمل على الحصين وضايقه في مجاله ، وضربه على أم رأسه ، وقطع خيشوم
جواده ، وأرداه إلى الأرض ، وهم أن يأخذ رأسه فحمل عليه أصحابه وتكاثروا
عليه فقتلوه .

وهذا مقتل حبيب بن مظاهر حسينا وقال :
— أحسب نفسي وحماة أصحابي .
وجعل الحسين يشهد مصارع الشهداء فبان الإنكسار في وجهه ، فقام إليه
زهير بن القين وقال :
— بأبي أنت وأمي يا بن رسول الله ، ما هذا الانكسار الذي أراه على وجهك ؟
ألست تعلم أننا على الحق ؟
— بلى وإله الخلق إني لأعلم علماً يقينا أني وإياكم على الحق والهدى .
— إذا لا نبالي ونحن نصير إلى الجنة ونعيمها .
ثم تقدم أمام الحسين فقال :
— أتأذن لي بالبراز ؟
— ابرز .

فبرز زهير وهو يقول :
أنا زهير وأنا ابن القين وفي يميني مرهف الحدين
أذب بالسيف عن الحسين الطاهر ابن الطاهر الجدين

ثم حمل على القوم ولم يزل يقاتل حتى قتل خلقًا كثيرًا ، ثم رجع وقال :
— إني خشيت أن تفوتني الصلاة ، فصل بنا .

فقام الحسين وصلى بأصحابه صلاة الخوف ، فلما انتهى من صلاته قال :
— هذه الجنة قد فتحت أبوابها ، واتصلت أنهارها ، وأينعت ثمارها . وزينت
قصورها ، وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا معه ، وأبى وأمى يتوقعون
قدومكم عليهم ، ويتباشرون بكم ، وهم مشتاقون إليكم ، فحاموا عن دينكم ،
وذبوا عن حرم رسول الله وعن إمامكم وابن بنت نبيكم ، فقد امتحنكم الله بنا ،
فدافعوا بارك الله فيكم عنا .

فضجوا بالبكاء والنحيب ، وقالوا :

— نفوسنا دون أنفسكم ، ودماؤنا دون دمائكم ، وأرواحنا لكم الفداء ،
والله لا يصل إليكم أحد بمكروه وفينا الحياة ، وقد وهبنا للسيوف نفوسنا ، وللطير
أبداننا ، فلعله نقيكم زحف الصفوف ، ونشرب دونكم الختوف ، فقد فاز من
كسب اليوم خيرًا .

ثم برز زهير بن القين وهو يرتجز :

أقدم حسينا هاديا مهديا اليوم نلتى جدك النيسا
وحسنا والمرضى عليا وذا الجناحين الفتى الكميا
وأسد الله الشهيد الحيا

وراح يمشى مشى الوعول ، ويضرب ضرب واثق غير مرتاب ، ويقبل على
الموت إقبال صنديد لا يقدر الحياة ، فما بينه وبين الجنة إلا لحظات وحمل عليه
رجلان فطعناه ، فسقط يخبط في دمه ، ويجود بروحه الطاهرة لترجع إلى ربها
راضية مرضية .

ورأى أصحاب الحسين أنهم قد كسروا ، وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا حسينا
ولا أنفسهم فجعلوا يتنافسون في أن يقتلوا بين يديه ، فجاءه بطلان فقالا :
— يا أبا عبد الله ، عليك السلام ، حازنا العدو إليك ، فأحبينا أن نقتل بين

يديك ، نمنعك وندفع عنك .

— مرحبًا بكما ، ادنوا مني .

فراحا يقاتلان ليقتلا ، وجاء فتیان ودنوا منه وهما ييكيان فقال :

— أي ابني أخي ما ييكيكما ، فوالله إني لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري

عين .

— جعلنا الله فداك ، لا والله ما على أنفسنا نبكي ، ولكننا نبكي عليك ، نراك

قد أحيط بك ولا نقدر على أن نمنعك .

— جزاكم الله يا ابني أخي بوجدكما من ذلك ومواساتكما إياي بأنفسكما

أحسن جزاء المتقين .

وجاء رجل فقام بين يدي حسين فأخذ ينادي :

— يا قوم ، إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد

وئود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قوم إني أخاف عليكم يوم

التناد ، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضل الله فما له من

هاد . يا قوم لا تقتلوا حسينا فيسحقكم الله بعذاب وقد خاب من افترى .

— رحمك الله ، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من

الحق ، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك ، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك

الصالحين ؟

— صدقت ، جعلت فداك ، أنت أفعه مني وأحق بذلك ، أفلا نروح إلى

الآخرة ونلحق بإخواننا ؟

— رح إلى خير من الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلى .

— السلام عليك أبا عبد الله ، صلى الله عليك وعلى أهل بيتك ، وعرف بيننا

وبينك في جنته .

— آمين آمين .

وتقدم ليقاتل ويُقتل ويلحق بالشهداء والصديقين .

والتفت رجل إلى مولاه وقال :

— ما في نفسك أن تصنع ؟

— ما أصنع ! أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله ﷺ حتى أقتل .

— ذلك الظن بك ، فتقدم بين يدي أبي عبد الله حتى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه وحتى أحتسبك أنا ، فإنه لو كان معي الساعة أحد أنا أولى به مني بك لسرني أن يتقدم بين يدي حتى أحتسبه ، فإن هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب الأجر فيه بكل ما قدرنا عليه ، فإنه لا عمل بعد اليوم ، وإنما هو الحساب .

ثم التفت إلى الحسين وقال :

— يا أبا عبد الله ، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز على ولا أحب إلى منك ، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعز على من نفسي ودمي لفعلته . والسلام عليك يا أبا عبد الله ، أشهد الله أني على هديك وهدى أبيك .

وخرج وقد كثر عن أنيابه فما خرج له أحد ، نصاح :

— ألا رجل لرجل ؟

فأحجموا جميعا فقد كانوا يعرفون أنه أشجع الناس فقال عمر بن سعد :

— ارضخوه بالحجارة .

فرمى بالحجارة من كل جانب ، فلما رأى ذلك ألقي درعه ومغفره ، ثم شد على الناس ، فمشى في أجسادهم رعدة فقد كان كل منهم يخشى أن يذوق الموت بغتة ، أما هو فقد كان يرتمي في أحضان الموت مستريح الضمير ، هادئ البال . ثم إنهم تعطفوا عليه من كل جانب ، فقتل .

وقتل أصحاب الحسين بين يديه ، وكان آخر من بقى من أصحابه سويد بن عمرو فراح يذب عنه ، وخرج على الأكبر ابن الحسين يشد على الناس وهو يقول :

أنا عليّ بن حسين بن عليّ نحن ورب البيت أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

ومر يشد على الناس بسيفه ، فاعترضه رجل فطعنه فصرع ، واحتوله الناس
فقطعوه بأسيا فهم ، فقال الحسين :

— قتل الله قومًا قتلوك يا بني ، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة
الرسول ، على الدنيا بعدك العفاء .

وخرجت زينب ابنة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ كأنها الشمس الطالعة ،
وهرعت إليه وهي تقول :

— يا أخياه ويا بن أخاه .

وأكبت على أول قتيل من بنى أمي طالب يومئذ ، فجاءها الحسين فأخذ يدها
فردها إلى الفسطاط . وأقبل الحسين إلى ابنه ، وأقبل فتياه إليه فقال :

— احملوا أخاكم .

فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون
أمامه ، وبرز عبد الله بن مسلم بن عقيل ووقف بإزاء الحسين وقال :

— أتأذن لي بالبراز ؟

— يا بني ، كفاك وأهلك القتل .

— يا عم ، بماذا ألقى جدك محمدًا وقد تركتك ، والله لا كان ذلك أبدًا ، بل
أقتل دونك حتى ألقى الله بذلك .

وراح يبارز فكان شبل الأسد ، ورماه رجل بسهم ، فخر صريعًا ينادي :

— وأبتاه ، وانقطاع ظهراه .

فلما نظر الحسين إليه وقد صرع قال :

— اللهم اقتل قاتل آل عقيل .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

وراح أبناء عبد الله بن جعفر يسقطون صرعى بين يدي خالهم ، وزينب أمهم
تنظر وقد انفطر كبدها حزناً على أبنائها الأبرار ، الذين فاضت أرواحهم في سبيل

نصرة الحق .

وخرج القاسم بن الحسن بن علي ، وكان غلاماً كأن وجهه شقة قمر ، في يده
السيف ، عليه قميص وإزار ونعلان ، وكان حزم آل أبي طالب يبدو في قسما
وجهه الصغير ، ورآه رجل قد قلبه من صخر فشد عليه ، فما ولى حتى ضرب
رأسه بالسيف ، فوقع الغلام لوجهه فقال :

— يا عماه !

فهد صوته قلب الحسين ، فجلى كما يجلى الصقر ، ثم شد شدة ليث أغضب ،
فضرب الرجل بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنها من لدن المرفق ، فصاح ثم تنحى
عنه ، وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوه من حسين فاستقبلته بصدورها ،
فحركت حوافرها ، وجالت الخيل بفرسائها عليه فتوطأت حتى مات ، وانجلت
الغبرة ، فإذا بالحسين قائم على رأس الغلام ، والغلام يفحص برجليه وحسين
يقول :

— بُعداً لقوم قتلوك ، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك .

ونظر إلى الوجه الجميل وقال :

— عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، ثم لا ينفعك صوت والله كثر
واتره ، وقل ناصره .

ثم احتمله وقد وضع صدره على صدره ، ورجلاه تخطان في الأرض . فجاء به
حتى ألقاه مع ابنه علي بن الحسين ، وقتلى قد قتلت حوله من أهل بيته .

ونظر الحسين فرأى أهل بيته صرعى ، وأصحابه قتلى ، قطعت رؤوسهم
وألقيت إليه ، فراح يرقبهم وهو واله حزين ، وأحس الظماً يضمنيه ، فأراد أن
يشرب قبل أن يلقي مصرعه ، فركب ودنا من الماء ليشرب فرماه رجل بسهم فوقع
في فمه ، ثم انتزع الحسين السهم ثم بسط كفيه فامتلاً دماً ، ثم قال :

— اللهم إني أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك .

بقى الحسين وحده ، شاهرا سيفه ، يذب عن حياضه ، وما كان مكسورا قط
قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا ، وأمضى جنانا منه ، ولا أجرا
مقداما . وراحت الرجالة تنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها
الذئب . وأقبل شمر بن الجوشن في الرجالة نحو الحسين فأخذ الحسين يشد عليهم
فينكشفون عنه ، فلن يخلصوا إليه قبل أن يروى أرض كربلاء بدمائهم ، ثم إنهم
أحاطوا به إحاطة ، وأقبل إلى الحسين أحمد بن الحسن بن علي ، وكان غلاما
صغيرا ، فانضم إلى عمه ، وقد غارت عيناه من العطش ، فأخذته زينب ابنة علي
لتحبسه ، فقال لها الحسين :

— احببيه .

فأبى الغلام وشهر سيفا ليزود عن عمه ، ويموت بين يديه كما مات كل أهله ،
وراحت زينب تصيح :

— ليت السماء تطابقت على الأرض .

ودنا عمر بن سعد من حسين فقالت :

— يا عمر بن سعد، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر ؟

فغامت عينا ابن سعد بالدموع ، وصرف بوجهه عنها ، وأهوى رجل إلى
الحسين بالسيف ، فصاح فيه أحمد بن الحسن :

— يابن الخبيثة ، أتقتل عمي ؟

فضربه الرجل بالسيف ، فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلا الجلدة ، فإذا يده معلقة
فنادى الغلام .

— يا أمتاه .

فأخذه الحسين فضمه إلى صدره وقال :

— يا بن أخي ، اصبر على ما نزل بك ، واحتسب في ذلك الخير ، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين ، برسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب وحمزة وجعفر والحسن بن علي رضوان الله عليهم أجمعين .

وأقبل إلى أم كلثوم وقال لها :

— يا أختاه ، أوصيك بولدي الأصغر خيراً .

— يا أخي ! إن هذا الطفل له ثلاثة أيام ما شرب الماء فاطلب له شربة من الماء .

فأخذ الطفل بين يديه وتوجه نحو القوم وقال :

— يا قوم ، قد قتلتم أخي وأولادي وأنصاري ، وما بقي غير هذا الطفل وهو يتلظى عطشاً ، فاسقوه شربة من ماء .

وما أتم عبارته حتى أناه سهم فذبح الطفل من الأذن إلى الأذن ، فجعل الحسين يتلقى الدم بكفيه ويرمي به إلى السماء ويقول :

— اللهم إني أشهدك على هؤلاء القوم ، فإنهم نذروا ألا يتركوا أحداً من ذرية نبيك .

ورجع بالطفل مذبحاً ودمه يجري على صدره ، نالقه إلى أم كلثوم ثم نادى :

— يا أم كلثوم ويا زينب ويا سكينه ويا رقية ويا عائكة ويا صفية . عليكن مني السلام ، فهذا آخر الاجتماع .

فصاحت أم كلثوم :

— يا أخي كأنك استسلمت للموت .

— يا أختاه ، فكيف لا يستسلم من لا ناصر له ولا معين ؟

— يا أخي .. ردنا إلى حرم جدنا .

— يا أختاه .. هيهات هيهات .

فرفعت سكينه صوتها بالبكاء والنحيب ، فضمها الحسين إلى صدره وقبلها ومسح دموعها بكمه وقال :

سيطول بعدى يا سكينه فاعلمى منك البكاء إذا الحمام دهبانى
لا تحزنى قلبى بدمعك حسرة مادام منى السروح فى جثمان
وخرج وهو يسمع عويل النساء ونحيبهم ، ثم توجه نحو القوم وقال :
— ويلكم ، علام تقاتلونى ؟ على حق تركته أم على سنة غيرتها أم على شريعة
بدلتها ؟

— بل نقاتلك بغضا منا لأبيك ، وما فعل بأشياخنا يوم بدر وحنين .
وجعل ينظر يمينا وشمالا فلم ير أحدا من أنصاره إلا من صافح التراب جنبه ،
فنادى :

— يا مسلم بن عقيل ، ويا هانىء بن عروة ، ويا حبيب بن مظاهر ، ويا زهير بن
القين ، يا أبطال الصفا ويا فرسان الهيجا ، مالى أناديكم فلا تحييون ، وأدعوكم فلا
تسمعون . أحالت مودتكم عن إمامكم فلا تنصروه ؟ ، هذه نساء الرسول لفقدكم
قد علاهن النحول ، فقوموا من نومتكم ودافعوا عن حرم الرسول الطغاة اللثام ،
ولكن صرعكم والله ريب المنون وإلا لما كنتم عن نصرتي تقصرون ، فها نحن
عليكم منتجعون .

وأخذ يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع يتقى الرمية ، ويشد على الخيل
وهو يقول :

— أعلى قتلى تحاثون ؟ أما والله لا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله ، الله أسخط
عليكم لقتله منى ، وأيم الله إني لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم ثم ينتقم لى منكم من
حيث لا تشعرون ، أما والله إن لو قتلتمونى لقد ألقى الله بأسكم بينكم وسفك
دماءكم ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم .

ومكث الحسين طويلا من النهار كلما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه ،
وكره أن يتولى قتله وعظيم إثمه ، وأقبل شمر بن ذى الجوشن فى نفر نحو من عشرة
من رجالة أهل الكوفة قبل منزل الحسين الذى فيه ثقله وعياله ، فمشى نحوه ،
فحالوا بينه وبين رحله ، فقال الحسين :

— ويلكم ، إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد ، فكونوا في أمر
دنياكم أحرارًا ذوى أحساب .
امنعوا رحلى وأهلى من طعامكم وجهالكم .
فقال ابن ذى الجوشن :
— ذلك لك يا بن فاطمة .
والتفت شمر إلى رجل شاك في السلاح وقال له :
— أقدم عليه .
— وما يمنعك أن تقدم عليه أنت ؟
— إلى تقول ذا ؟
— وأنت لى تقول ذا ؟
فاستبا ، فقال الرجل لشمر :
— والله لهمت أن أخضخض السنان في عينيك .
وأحس الحسين عطشًا شديدًا ، والماء يترقرق في الفرات أمامه ، فحمل على
أعدائه وكشفهم عن المشرعة ، ونزل إلى الفرات ، وكان الفرس عطشان ، فلما
أحس ببرودة الماء أرسل رأسه ليشرب فكره أن ينغص عليه شربه ، فصبر حتى
شرب الفرس ، فمد يده ليشرب ، وإذا بصائح يصيح :
— يا حسين ، أدرك خيمة النساء فإنها قد هتكت ..
فنفض الماء من يده ، وهرع إلى الخيمة ليزود عن حريمه ، فوجدها سالمة ،
فعلم أنها مكيدة من القوم ، فرجع لينطلق إلى الفرات فحالوا بينه وبين الماء .
وثار شمر بن الجوشن لإحجام الناس عن الحسين ، فنادى فيهم :
— ويحكم ، ماذا تنتظرون بالرجل !!؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم .
فحمل عليه من كل جانب ، فضربت كفه اليسرى ، وضرب على عاتقه ، ثم
انصرفوا وهو ينوء ويكبو ، وهم ليقوم للقتال ، فلم يقدر فنادى :
— واجداه واحمداه ، وأبتاه واعلياه ، وأأحاه واحسنه ، واغربتاه

واعطشاه ، واغوثاه واقلة ناصراه ، أقتل مظلوما وجدى المصطفى ، وأذبح
عطشان وأنى على المرتضى ، وأترك مهتوكا وأمى فاطمة الزهراء .
وأغمى عليه وما جرؤ أحد على الدنو منه ، فما كانوا يدرون أمات سيد
الشهداء أم لا زال فيه رمق . وتحرك الحسين وغمغم :
— صبراً على قضائك ، لا إله سواك .

وابتدر إليه أربعون رجلاً كل منهم يريد حزنه ليغزو بجائزة ابن زياد ويهوء
بخزى من الله عظيم ، وصاح عمر بن سعد :
— يا ويلكم ، عجلوا عليه .

فدنا منه شبت بن ربيع ويده السيف ، وطالما شهره مع على بن أبى طالب فى
وجه بنى أمية ، ولكنه اليوم يشهره ليحزنه شهيد كربلاء فرمقه الحسين بطرفه ،
فأطرق شبت خزياً ورمى السيف من يده ، وولى هارباً وهو يقول :
— ويحك يا بن سعد ، تريد أن تكون بريئاً من قتل الحسين وإهراق دمه ، معاذ
الله أن ألقى الله بدمك يا حسين .

وقابله سنان بن أنس وهو يفر وقد بان فى وجهه الندامة والخزى فصاح به :
— ثكلتك أمك وعدمك قومك ، لم رجعت عن قتله ؟
— يا ويلك ، إنه فتح عينيه فى وجهى فأشبهتا عينى رسول الله ، فاستحييت أن
أقتل شبيهاً لرسول الله .

— يا ويلك ، أعطنى السيف فأنا أحق منك بقتله .
وذهب سنان إليه واحتز رأسه ، فسالت دماء الحسين الزكية لتزلزل ملك بنى
أمية وتقوض أركانه ، فقد كان الحسين ميتاً أخطر منه حياً .
وسلب الحسين ما كان عليه فأخذت سراويله وقطيفته ونعلاه ، ومال الناس
على الإبل والخيول وانتهبوها ، وانطلق فرس الحسين يطلب الخيمة ، وصهل ، فلما
سمعت زينب صهيله ، أقبلت على سكينه وقالت :
— قد جاء أبوك بالماء .

فخرجت سكينه فرحة بذكر أبيها ، فرأت الجواد عاريا والسرّج خاليا من راكمه ، فنظرت فرأت أباه الحبيب مجدلا رأسه بأرض وجثته بأخرى فهتكت خمارها ونادت :

— وأبتاه ، واحسيناه ، واقتيلاه ، واغربتاه ، وابعد سفراه ، واطول كرباه ، هذا الحسين بالعرى ، مسلوب العمامة والردا .

فلما سمع باقى الحرم قولها خرجن ينظرن ، فرأين ما يفتت الأكباد ، ويذيب النفوس ، ويقطع نياط القلوب ، فجعلن يلطمن الخدود ويشققن الجيوب ، وصاحت أم كلثوم :

— اليوم مات محمد المصطفى ، اليوم مات على المرتضى ، اليوم ماتت فاطمة الزهراء .

وتبادر الرجال إلى نهب النساء ، فدخلوا الخيمة فأخذوا ما كان فيها وأخذوا القناع من رأس زينب ، ونظر رجل إلى علىّ بن الحسين وهو على نطع من الأديم ، وكان مريضا ، فجذب النطع من تحته ورماه إلى الأرض ، وجاء ثمر بن ذى الجوشن فرأى علىّ بن الحسين وهو مريض ، فقال :

— ألا تقتل هذا ؟

فقال رجل أخذته رقة :

— سبحان الله ، أتقتل الصبيان ؟ إنما هذا صبي .

وجاء عمر بن سعد فقال :

— ألا لا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد ، ولا يعرضن هذا الغلام المريض ، ومن أخذ من متاعهن شيئا فليرده عليهن .

فما رد أحد شيئا . وخرجت زينب فلما مرت بأخيها الحسين صريعا صاحت :

— يا محمداه يا محمداه ، صلى عليك ملائكة السما ، هذا الحسين بالعرا ،

مرمل بالدماء ، مقطوع الأعضاء ، يا محمداه وبناتك سبايا وذريتك ومقتلة تسفى عليها الصبا .

٥٦

وسرح برأس الحسين خولى بن يزيد إلى عبيد الله بن زياد ، فأقبل به خولى فأراد القصر ، فوجد باب القصر مغلقا ، فأتى منزله فوضعه تحت إجانة فى الدار ، ثم دخل البيت ، فأوى إلى فراشه فقالت له زوجته :

— ما الخبر ؟ ما عندك ؟

— جئت بك بغنى الدهر ، هذا رأس الحسين معك فى الدار .

فقالت المرأة فى غضب :

— ويلك ، جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ ؟! والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت أبدا .

وأذن عمر بن سعد بالرحيل ، فساروا بالسبايا وعلى بن الحسين على الجمال بغير غطاء ولا وطاء ، وتركوا الشهداء مطروحين بأرض كربلاء ، أرض سالت بها أزكى دماء ، فى سبيل نصره الحق ، وانطلقوا حتى خلفوا وراءهم قبلة كل نفس أبية ، لا تقبل أن تنام على ضيم ، أو تخضع لجبروت الظلم والطغيان .

وحملت الرعوس على الرماح ، ودخل الركب الكوفة ، فلما رأت النساء بنات الرسول سبايا ، شققن الجيوب ، ولطمن الخدود ، واقترب أهل الكوفة من أهل البيت وصاروا يطعمون الأطفال بعض الثمر والجوز فصاحت أم كلثوم وقالت :

— يا أهل الكوفة ، الصدقة علينا حرام .

وجعلت تأخذ من أيدي الأطفال وترمى به ، فضج الناس بالبكاء والنحيب .

فقالت أم كلثوم :

— تقتلنا رجالكم وتبكيها نساؤكم ، لقد تعديتم علينا عدوانا وظلما عظيما ،
وجئتم شيئا فريا تكاد السموات يتفطرن ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا .
وارتفعت صيحة عظيمة ، فالتفت أهل البيت فإذا برأس الحسين منصوب على
رمح ، فانهمرت الدموع ، وارتفع النشيج والنحيب حتى لكادت الأكباد تنفلق
من البكاء . وران حزن عميق ، وعطلت الأسواق وخرج الناس ينظرون ،
وخفقت رايات عمر بن سعد ، وتطلع الناس إلى ذرية رسول الله . فنادت أم
كلثوم :

— يا أهل الكوفة ، غضوا أبصاركم عنا ، أما تستحون من الله ورسوله أن
تنظروا إلى حرم رسول الله وهن حواسر ؟
فامتلات العيون بالدموع ، وانقبضت القلوب ، ومالت إلى أهل البيت
النفوس ، وتحركت الأحقاد ونبت المقت في الصدور ، وسيرعرع ذلك المقت
على كر الأيام ليزيل ملك آل أبي سفيان .
وجلس ابن زياد للناس ، وقد وفد الوفد عليه فأدخلهم وأذن للناس . وجيء
برأس الحسين فوضع بين يديه ، وراح ينكت بقضيب بين ثنيتيه ، وكان عنده زيد
ابن أرقم ، فأحس يدا قوية تهصر قلبه ، ولم يستطع أن يكبت ما يعانيه من حزن ،
فصاح بابن زياد :

— اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي
رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما .
وانفجر الشيخ باكيا ، فقال له ابن زياد في غضب :
— أبكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت
عنقك .

فقام زيد غاضبا ، وخرج فرأى الناس فقال لهم :
— ملك عبد عبدا ، فاتخذهم تلدا ، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم ، قتلتم
ابن فاطمة ، وأمرتم ابن مرجانة ، فهل يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ؟ فرضيتم

بالذل ، فبعثوا لمن رضى بالذل .

ودخل صبيان الحسين وأخواته ونسأوه على عبيد الله بن زياد ، ولبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها ، وتنكرت وحف بها إمامها . ووقفوا بين يديه فقال على بن الحسين :

— سنقف وتقفون ، ونسأل وتسألون ، وأنتم لا تردون لرسول الله جوابا . فسكت ابن زياد ولم يجبه ، ثم أقبل على النساء وقال :

— من هذه ؟

فلم تجبه ، فقال :

— من هذه ؟

فقال بعض إمامها :

— هذه زينب ابنة فاطمة .

— يا زينب بحق جدك كلميني .

— ما تريد منا يا عدو الله ورسوله ؟ لقد هتكتنا بين البر والفاجر .

— الحمد لله الذى فضحككم وقتلكم وأكذب أحدوثكم .

— الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد ﷺ ، وطهرنا تطهيرا ، لا كما تقول أنت ،

إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر .

— فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟

— كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم

فتحاجون إليه وتخاصمون عنده .

فغضب ابن زياد واستشاط ، فقال له رجل عنده :

— أصلح الله الأمير ، إنما هي امرأة ، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقتها ؟ إنها

لا تؤاخذ بقول ولا تلام على خطئ .

فقال لها ابن زياد :

— قد أشفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك .

(أهل البيت)

فبكت ثم قالت :

— لعمرى قد قتلت كهلى ، وأبرت أهلى ، وقطعت فرعى ، واجتثت أصلى ،
فإن يشفك هذا فقد اشتفيت .

— هذه شجاعة ، قد لعمرى كان أبوك شاعراً شجاعاً .

— ما للمرأة وللشجاعة ، إن لى عن الشجاعة لشغلاً ، ولكنى نفثنى ما أقول .

فغار على زين العابدين على عمته وقال :

— يابن زياد ، إلى كم تهتك عمتى وتعرفها لمن لا يعرفها ؟

فغضب ابن زياد لكلامه وقال فى حدة :

— ما اسمك ؟

— أنا على بن الحسين ؟

— أولم يقتل الله على بن الحسين ؟

فسكت ، فقال له ابن زياد :

— مالك لا تتكلم ؟

— قد كان لى أخ يقال له أيضا على فقتله الناس !

— إن الله قد قتله .

فسكت على ، فقال له :

— مالك لا تتكلم ؟

— الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله .

فقال ابن زياد فى ثورة :

— أنت والله منهم ، اقتله .

فقال على بن الحسين :

— من توكل بهؤلاء النسوة ؟!

وتعلقت به زينب عمته ، فقالت :

— يابن زياد حسبك منا ، أما رويت من دمائنا ، وهل أبقيت منا أحدا ؟؟

فاعتنته فقالت :

— أسألك بالله إن كنت مؤمنا إن قتلته لما قتلتنى معه .

ونادى على بن الحسين :

— يا بن زياد إن كانت بينك وبينهن قرابة ، فابعث معهن رجلا تقيا يصحبهن بصحبة الإسلام .

فنظر إلى زينب وهى معتنقة على ابن أخيها فقال :

— عجباً للرحم ! والله إنى لأظنها ودت لو أنى قتلتها معه . دعوا الغلام ، انطلق مع نسائك .

ونودى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فى المسجد الأعظم ، فصعد المنبر ابن زياد فقال :

— الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته .
فوثب عبد الله بن عفيف ، وكان من شيعة على كرم الله وجهه ، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل فلما كان يوم صفين ضرب على رأسه ضربة وأخرى على حاجبه فذهبت عينه الأخرى ، فكان لا يفارق المسجد ، فلما سمع مقالة ابن زياد صاح :

— يا بن مرجانة أنت الكذاب ابن الكذاب ، أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه ،
يا بن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين ، وتكلمون بكلام الصديقين ؟
فقال ابن زياد :

— على به .

فأحاط رجال ابن زياد به ، فوثب إليه فتية من أهله فانتزعوه فأتوا به منزله .
وظل ابن زياد يذكر مقالة ابن عفيف ، فلما جن الليل بعث ابن زياد رجالا ليأتوه برأسه ، فانطلقوا حتى أحاطوا بداره ، فلما سمعت ابنته صهيل الخيل قالت :
— يا أبتاه ، إن الأعداء قد هجموا عليك .

— ناوليني سيفي ، وقفى في مكانك ولكن قولى لى القوم عن يمينك وشمالك وخلفك وأمانك .

ثم وقف لهم فى مضيق وجعل يضرب يمينا وشمالا ، وتكاثروا عليه وأخذوه أسيرا إلى ابن زياد ، فلما نظر إليه قال :

— الحمد لله الذى أعمى عينيك .

— فقال له عبد الله بن عفيف :

— الحمد لله الذى أعمى قلبك .

— قتلنى الله إن لم أقتلك شر قتلة .

— قد ذهبت عيناي يوم صفين مع أمير المؤمنين ، وقد سألت أن يرزقنى الشهادة على يد أشر الناس ، وما علمت على وجه الأرض شرا منك .

وقتل عبد الله بن عفيف وصلب . وتأهب ابن زياد لبيعث بالسبايا ورأس سيد الشهداء إلى الشام ، وهو يحسب أنه قد انتهى من أمر الحسين ، وما دار بخلده قط أن خطر الحسين قد اشتد بعد أن أهرقت أطيب دماء لتروى أرض كربلاء .

٥٧

دخلت أم سلمة أم المؤمنين فراشها ، وما أغمضت عينها وأخذها النوم حتى هبت فزعة مرعوبة ، وقبل أن تملك روعها صاحت :

— واحسيناه ! واحسيناه !

فجعل الناس يهرعون إليها وقد بان فى وجوههم الدهشة وقالوا :

— يا أم المؤمنين ما الخبر ؟

— قتل ولدى الحسين .

— وكيف ذلك وأنت فى المدينة والحسين فى الكوفة ؟ ومن أخبرك بذلك ؟

فقالت ودمعها يسيل على خديها :

— رأيت رسول الله وعلى رأسه ولحيته التراب ، فقلت : يا رسول الله جعلت فداك — ما هذا التراب الذى أراه على رأسك ولحيتك ؟ قال : يا أم سلمة الآن رجعت من دفن ولدى الحسين .

فشعر الناس بغصة ، وبجفاف فى حلوقهم ، وجرت عبراتهم ، وطأطأوا رءوسهم ثم انطلقوا إلى قبر الرسول يعزونه بقتل الحسين ، ودمعهم جار وحزنهم ثقیل .

ومرت أيام وقدم رسول ابن زياد إلى المدينة فلقية رجل من قريش فقال : — ما الخبر ؟

— الخبر عند الأمير .

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، قتل الحسين بن على .

ودخل الرسول على عمرو بن سعيد بن العاص فقال عمرو : — ما وراءك ؟

— ما سر الأمير ، قُتل الحسين بن على .

— ناد بقتله .

فخرج الرسول ينادى بقتله ، فارتفعت أصوات نساء بنى هاشم بالبكاء والنوح ، فقال عمرو بن سعيد فى شماته :

— هذا يبكاء نساء عثمان بن عفان .

وأقبلت صارمجة حتى انتهت إلى أم سلمة ، فقالت : — قُتل الحسين .

فتزل الخبر على أم سلمة نزول الصاعقة ، فقالت :

— ملأ الله بيوتهم عليهم نارًا .

ووقعت مغشيا عليها .

وبلغ عبد الله بن جعفر بن أبى طالب مقتل ابنه مع الحسين فدخل عليه بعض موالیه والناس يعزونه فقال :

— هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين .

فحذفه عبد الله بن جعفر بنعله ثم قال :

— يابن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه
حتى أقتل معه ، والله إنه لما يسخى بنفسى عنهما ويهون على المصاب بهما أنهما
أصيبا مع أخى وابن عمى مواسين له صابرين معه .
ثم أقبل على جلسائه فقال :
— الحمد لله عز وجل على بمصرع الحسين أن لا يكن آست حسينا يدي ، فقد
آساه ولدى .

* * *

وأقبل زخر بن قيس حتى دخل على يزيد ، فقال له يزيد :

— ويلك ، ما وراءك ؟ وما عندك ؟

— أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره ، ورد علينا الحسين بن على فى ثمانية
عشر من أهل بيته وستين من شيعته ، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا
على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال ! فاختلفوا القتال على الاستسلام ،
فعدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى إذا ما أخذت
السيوف مأخذها من هام القوم يهربون إلى غير وزر ، ويلوذون منا بالآكام والحفر
لوإذا كما لاذ الحمام من صقر ، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلا جزر جزور أو نومة
قائل حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة ،
وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس ، وتسفى عليهم الريح ، زوارهم العقبان
والرخم بقى سبب .

— قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سمية ، أما والله
لو أنى صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين .

ودخل ركب السبايا دمشق ، وعلى بن الحسين مغلول بغل إلى عنقه ، ودخل
شمر بن ذى الجوشن ، وقد رفع رأس الحسين على رمح ، وأقبل من بعده رأس

الحر بن يزيد ، وأقبل من بعده رأس العباس بن عليّ ، وأقبل من بعده رأس عون بن عبد الله بن جعفر ، وأقبلت الرعوس على أثرهم ، وصاحت أم كلثوم :
— وإحمده ، واجده ، وإعليه ، وأبتاه ، واحسنه ، واحسيناه ،
واعقيله ، واعباساه ، وابعده سفراه ، واسوء صباحاه .

واقترب الناس ينظرون إلى النساء ، واقترب رجل من محبي آل علي من علي بن الحسين وقال له :

— هل لك من حاجة ؟

— هل عندك من الدراهم شيء ؟

— ألف دينار وألف ورقة .

— خذ منها شيئاً وادفعه إلى حامل الرأس وأمره أن يبعده عن النساء حتى تشتغل الناس بالنظر إليه عن النساء .

وأدخلت رعوس الشهداء عليّ يزيد ، ومروان بن الحكم عنده ، فلما رأى رأس الحسين هز أعطافه طرباً ، وراح يقول :

شفيت قلبي من دم الحسين أخذت ثأري وقضيت ديني
ونسي مروان أن الحسين كلم أباه يوم الجمل ليغفو عنه ، ولا غرو فقد كان
الحسين كريماً ، وكان مروان ينضح بخبث نفسه ولؤم طويته ، فراح ينفس عن
أحقاد السنين والحسد المكبوت .

وقال يحيى بن الحكم ، أخو مروان :

لهم بجنب الطف أدنى قرابة من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل
سمية أمسى نسلها عدد الحصى وليس لآل المصطفى اليوم من نسل
فضربه يزيد بن معاوية في صدره وقال له :

— اسكت .

ونظر يزيد إلى رأس الحسين ثم التفت إلى من عنده وقال :

— أتدرون من أين أتى هذا ؟ قال أبي عليّ خير من أبيه ، وأمى فاطمة خير من

أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه ، وأحق بهذا الأمر منه . فأما قوله أبوه خير من أبى لقد حاج أباه وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما قوله أمى خير من أمه ، فلعمري فاطمة ابنة رسول الله ﷺ خير من أمى ، وأما قوله جدى خير من جده ، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ .

ودعا بعلى بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه فأدخلوا عليه ، فالتفت يزيد إلى على فقال :

— يا على ، أبوك الذى قطع رحمى ، وجهل حتى ، ونازعنى سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت .

فقال على :

— ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

فغضب يزيد وجعل يعبث فى لحيته وقال لابنه خالد :

— اردد عليه .

فما درى خالد ما يرد عليه ، فقال له يزيد :

— قل : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ .
وصاح نساء آل يزيد وبنات معاوية وأهله وولولن لما رأين بنات رسول الله فى هيئة قبيحة ، وقالت فاطمة بنت الحسين :

— أبنات رسول الله سبايا يا يزيد !؟

فغامت عيناه بالدمع ، وقام رجل من أهل الشام إلى فاطمة وقد أعجبه حسنهما
وقال :

- يا أمير المؤمنين هب لي هذه .
فأرعدت فاطمة وفرقت ، وأخذت بثياب زينب ، فصاحت زينب :
— كذبت والله ولؤمت ، ما ذلك لك ولا له .
فغضب يزيد وقال :
— كذبت والله إن ذلك لي ، ولو شئت أن أفعله لفعلت .
— كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا .
— إياي تستقبلين بهذا ؟ إنما نخرج من الدين أبوك وأخوك .
— بدين الله ودين أبي ودين أخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وأخوك .
— كذبت يا عدوة الله .
— أنت أمير مسلط تشتم ظالما وتقهّر بسلطانك .
فاستحى يزيد فسكت ، ثم التفت إلى من عنده وقال :
— يا أهل الشام ، ما ترون في هؤلاء ؟
فقال رجل منهم :
— لا تتخذن من كلب سوء جروا .
فقال النعمان بن بشير :
— يا أمير المؤمنين ، اصنع بهم ما كان يصنع بهم رسول الله لو رآهم بهذه الحال .

— خلوا عنهم ، واذهبوا بهم إلى الحمام واغسلوهم واضربوا عليهم القباب ،
ودخلن دار يزيد فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكى وتنوح على
الحسين . ووضعت سكينه رأسها لتنام ، وراحت مشاهد الفاجعة تمر في خيالها
فتحس أسى عميقا ، وفكرت فيما كانت تفعله جدتها فاطمة لو أنها شهدت
مصرع الحسين ، فترقرق الدمع في مآقيها ، ونامت وهي حزينة ، فرأت امرأة
ناشرة شعرها ، قد صبغت أثوابها بالسواد ، وبين يديها قميص مصمخ بالدماء ،
ولم تتبين ملامح الوجه ، ولكنها أحست أنها أمام جدتها الزهراء ، فمشيت إليها

وقالت لها :

— يا جدتاه ، قُتل والله أبى ، وأُيُتِمَّت على صِغَر سِنى .

فَضَمَّتْهَا إِلَيْهَا فِي حَنَانٍ وَقَالَتْ وَدَمَعُهَا لَا يِرْقَاً :

— يَعْزُ وَاللَّهِ عَلَيَّ ذَلِكَ .. يَا سَكِينَةَ ، مَنْ غَسَلَ ابْنِي ؟ مَنْ كَفَّنَهُ ؟ مَنْ صَلَّى

عَلَيْهِ ؟ مَنْ جَهَّزَهُ ؟ مَنْ نَادَتْ : وَابِلِدَاهُ ، وَاثْمَرَةُ فَوَادَاهُ .

فَهَبَّتْ سَكِينَةُ مِنْ نَوْمِهَا كَأَنَّمَا طَعَنَ قَلْبُهَا سَكِينٌ حَادٌ ، وَجَعَلَتْ تَنْشِجُ وَتَنُوحُ

وَتَصْبِيحُ :

— وَأَبْتَاهُ ، وَاحْسِينَاهُ .

٥٨

اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ ، وَجَلَسَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بِالْقُرْبِ مِنْ يَزِيدَ ،

فَارْتَقَى رَجُلُ الْمَنْبَرِ وَجَعَلَ يَسِبُ الْحُسَيْنَ ، فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ، وَسَارَ إِلَى الْمَنْبَرِ

وَالْتَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ :

— بِاللَّهِ عَلَيْكَ إِلَّا مَا أَذْنَتْ لِي أَنْ أَصْعَدَ الْمَنْبَرَ ، وَأَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ فِيهِ رَضَى اللَّهُ

وَرَسُولُهُ .

— اصْعَدْ وَقُلْ مَا بَدَا لَكَ .

فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ ، وَتَكَلَّمَ بِعَذُوبَةٍ لِسَانٍ وَفَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَأَعَارَهُ النَّاسُ أَسْمَاعَهُمْ

فَقَالَ :

— أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفَنِي فَأَنَا أَعْرِفُهُ بِنَفْسِي ، أَنَا

عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَنَا ابْنُ مَنْ حَجَّ وَلَبَّى ، أَنَا ابْنُ مَنْ طَافَ

وَسَعَى ، أَنَا ابْنُ زَمْزَمَ وَالصَّفَا ، أَنَا ابْنُ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ ، أَنَا ابْنُ الْعَطِشَانِ حَتَّى

قُضِيَ ، أَنَا ابْنُ مَنْ مَنَعُوهُ مِنَ الْمَاءِ وَأَحْلَوْهُ عَلَى سَائِرِ الْوَرَى ، أَنَا ابْنُ مُحَمَّدِ

الْمُصْطَفَى ، أَنَا ابْنُ مَنْ رَاحَتْ أَنْصَارُهُ تَحْتَ الثَّرَى ، أَنَا ابْنُ مَنْ غَدَتِ حَرِيمُهُ

أسرى ، أنا ابن من ذبحت أطفاله من غيز سوء ، أنا ابن من أضرم الأعداء في خيمته
لظى ، أنا ابن من أضحى صريعاً بالعرا ، أنا ابن من لا له غسل ولا كفن يرى .
وضج الناس بالبكاء والنحيب وعلت الأصوات ، فخاف يزيد أن تكون
فتنة ، فأمر المؤذن أن يقطع عليه خطبته ، فصعد المؤذن فقال :
— الله أكبر .

فقال على بن الحسين :

— كبرت كبيراً وعظمت عظيماً وقلت حقاً .

— أشهد أن لا إله إلا الله .

— أشهد بها مع كل شاهد .

— أشهد أن محمداً رسول الله .

فبكى على وقال :

— يا يزيد ، سألتك بالله محمد جدى أم جدك ؟

— جدك .

— فلم قتلت أهل بيته ؟

فأفحم يزيد وقام وقد ظهر عليه الغضب والضيق ، ودخل داره ، فقام رجل

إلى على زين العابدين وقال له :

— كيف أصبحت يا بن رسول الله ؟

— كيف حال من أصبح وقد قُتل أبوه ، وقل ناصره ، وينظر إلى حرم من حوله

أسارى ، فقد فقدوا الستر والغطاء ، وقد أعدموا الكافل والحمى ، فهل ترانى إلا

أسيراً ذليلاً قد عدمت الناصر والكفيل ، قد كسيت أنا وأهل بيتى ثياب الأسى ،

فإن تسأل فهأنا كما ترى قد شمتت فينا الأعداء .

قد أصبحت العرب تفتخر على العجم بأن محمداً منهم ، وأصبحت قريش

تفتخر على سائر العرب بأن محمداً منهم ، ونحن أهل بيته أصبحنا مقتولين

مظلومين ، قد حلت بنا الرزايا ، نُساق سبايا ، ونُجلب هدايا ، كأن حسينا من

أسقط الحسب ، ومتنسبنا من أرذل النسب ، كأن لم نكن على هام المجد رقينا .
وخشى أعوان يزيد أن تكون فتنة فعجلوا بالصلاة ، وبعث يزيد إلى من سمح
لعلّ بن الحسين بارتقاء المنبر وقال له في ثورة :
— ويحك ، أردت بصعوده زوال ملكي ؟!
— والله ما علمت أن هذا الغلام يتكلم بمثل هذا الكلام .
— أما علمت أن هذا من أهل بيت النبوة ؟
فأطرق الرجل ، وإن كانت ت جيش في صدره رغبة أن يسأله : إن كان كذلك
فلم قتل أباه ؟

وآن أو ان الغداء ، فدعا يزيد علّ بن الحسين إليه ، ودعا عمرو بن الحسن بن
علّ وهو غلام صغير ، وجلس عمرو بجوار خالد بن يزيد ، فرمقهما يزيد وهما
متجاوران فخطر له خاطر ، فمن يدرى فقد يقتلان غداً على الملك والسلطان ،
والتفت يزيد إلى عمرو وقال :
— أتقاتل هذا الفتى ؟

فقال عمرو بن الحسن الذي سمع قعقة السلاح ، وعان الطعن والنزال :
— لا ، ولكن أعطني سكيناً وأعطه سكيناً ثم أقاتله .
فقال يزيد وهو يتسم :

— شنشنة أعرفها من أخزم ، هل تلد الحية إلا حية ؟
وظلمه يزيد ولو أنصفه لقال : ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ ، فقد كان عمرو
ابن الحسن حفيد فارس الإسلام الذي غذى أبناءه بالحق ووهبهم للموت .
وأمر يزيد النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم ، وأن يبعث معهم رجلاً من
أهل الشام أميناً صالحاً فيسير بهم إلى المدينة ، وتجهزوا للخروج ، فدعا يزيد علّ
ابن الحسين ثم قال :

— لعن الله ابن مرجانة ، أما والله لو أنى صاحبه ما سألتني خصلة أبداً إلا أعطيتها
إياه ، ولدفت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ، ولكن الله

قضى ما رأيت .

وخرج صبيان الحسين ونساؤه وأهل بيته من دمشق قاصدين مدينة جدهم العظيم ، وراح رسول يزيد يسايرهم بالليل فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه فإذا نزلوا تنحى عنهم وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم ، وجعل يسألهم عن حوائجهم ويلطفهم .

وبانت أرض يثرب ، فبعث عليّ بن الحسين رسولا إلى أهل المدينة ، فركب فرسه وركض حتى بلغ مسجد رسول الله فنادى :
— يا أهل المدينة ، هذا عليّ بن الحسين وإخوته وعماته قد نزلوا بساحتكم ، وأنا رسوله إليكم .

فخرج الناس من دورهم وقد لبسوا السواد ، وقد لاح في محياهم أعمق الحزن ، وراى على المدينة وجوم ، فقد كان اليوم أشبه بيوم مات رسول الله ﷺ .
وقالت فاطمة بنت عليّ لأختها زينب :
— يا أختي ، لقد أحسن هذا الرجل الشامى إلينا فى صحبتنا ، فهل لك أن نصله ؟

— والله ما معنا شيء نصله به إلا حلينا .

— فنعطيه حلينا .

فبعثتا بحليهما إليه وقالتا له :

— هذا جزاؤك بصحبتك إيانا بالحسن من الفعل .

فرد الرجل الحلى شاكرًا وقال :

— لو كان الذى صنعت إنما هو للدنيا كان فى حليكن ما يرضينى ودونه ، ولكن والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكن من رسول الله ﷺ .

ورأى نساء أهل البيت خروج أهل المدينة إليهن فى السواد ، فصرخت زينب وأم كلثوم وباقي النساء ، وارتفع العويل والصياح ، وكثر النوح والبكاء ، وهتف أكثر من صوت :

— واحسيناه !، واحبيباه !
وما صك أصوات العويل آذان بنت عقيل بن أبي طالب ، وأم هانيء ورملة
وأسماء بنات عليّ حتى خرجن يندبن الحسين ، وصاحت بنت عقيل :
ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدى منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم
وانطلق الركب حتى أناخ بباب مسجد الرسول ، فدخل الناس وفي القلب
حسرة ، وفي النفس لوعة ، ووقفت أم كلثوم أمام قبر النبي تبكي وتقول :
— السلام عليك يا جداه ، إني ناعية إليك ولذك الحسين .

مَحَدُ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ

أكتوبر ١٩٦٥	١ — إبراهيم أبو الأنبياء
مارس ١٩٦٦	٢ — هاجر المصرية أم العرب
سبتمبر ١٩٦٦	٣ — بنو إسماعيل
فبراير ١٩٦٧	٤ — العدنانيون
يوليو ١٩٦٧	٥ — قريش
يوليو ١٩٦٧	٦ — مولد الرسول
أكتوبر ١٩٦٧	٧ — اليتيم
يناير ١٩٦٨	٨ — خديجة بنت خويلد
مارس ١٩٦٨	٩ — دعوة إبراهيم
يونية ١٩٦٨	١٠ — عام الحزن
سبتمبر ١٩٦٨	١١ — الهجرة
نوفبر ١٩٦٨	١٢ — غزوة بدر
يناير ١٩٦٩	١٣ — غزوة أحد
مايو ١٩٦٩	١٤ — غزوة الخندق
يونيو ١٩٦٩	١٥ — صلح الحديبية
نوفبر ١٩٦٩	١٦ — فتح مكة
فبراير ١٩٧٠	١٧ — غزوة تبوك
مايو ١٩٧٠	١٨ — عام الوفود
نوفبر ١٩٧٠	١٩ — حجة الوداع
ديسمبر ١٩٧٠	٢٠ — وفاة الرسول
